لجنة التأليف والترجمة والنشر

أشهر الرسائل العالمية

من أقدم الأزمنة إلى الوقت الحاضر

اختارها وترجمها

محمد بدران

الجزء الأول

من القرن الرابع قبل الميلاد إلى آخر القرن الثامن عشر

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

لجنة التأليف والترجمة والنشر

أشهر الرسائل العالمية

من أقدم الأزمنة إلى الوقت الحاضر

اختارها وترجمها

محمد بدران

الجزء الأول

من القرن الرابع قبل الميلاد إلى آخر القرن الثامن عشر

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٦

الفهرس

[أرجو أن يصحح القارئ في الكتاب أرقام الرسائل من ٦ إلى ١٥ ومن ٤٨ إلى ٦٥ حسب أرقامها في هذا الفهرس وأن يستبدل بكلمة «أخيه» في السطر الثاني من ص ٢١٣ كلمة «صديقة له»].

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا كانت السير أكثر فروع الأدب طرافة ومتعة فإن أكثر ما فى السير من طرافة ومتعة الرسائل الشخصية . ذلك أن رسائل الشخص هى روحه سافرة ، ومرآة قلبه الصادقة ، ينعكس عليها ما يدور بخلده وما يخفيه فى قرارة نفسه ، فيظهر فيها واضحاً على حقيقته غير مشوّه ولا معكوس ، يظهر فيها حتى فى أثناء تكونه قبل أن يستكمل عناصره و يتخذ شكله النهائى .

فالرسالة تسجل الحياة العقلية لكاتبها ، وتعين على تحليل غرائزه وعواطفه ، والأسس الحقيقية التى تقوم عليها أعماله . والرسالة تنم عن أخلاق كاتبها ، وعن الأسباب الخفية لسلوكه وأعماله عَرَف ذلك أو لم يعرف ، وتظهر الأمور الصغيرة التافهة الكامنة وراء الحقائق العظيمة ، وتذكرنا بأن التاريخ كان فى يوم من الأيام حياة حقة ، وأن أشخاصه كانوا رجالا ونساء أحياء . و إن كنزاً من هذه الرسائل لهو فى الحق كنز من العواطف الصادقة الحية ، ظهرت للعالم صريحة غير مكبوتة . وما أصدق ما قيل فى وصف الرسائل : « إن للرسائل أرواحا ، و إنها لتتكلم ، و إن فيها من القوة ما يعبر عن نشوة القلب ، وليس ينقصها شىء من حرارة العواطف ، و إنها لتبعثها فى القلب كما يبعثها الكاتب نفسه ، وفيها كل ما للكلام من رقة وحنو ، وقد يكون فيها أحيانا من الجرأة على التعبير ما لا يستطيعه الكلام »[1] .

و إذا كان أكثر ما يهتم به المؤرخون هو أخبار الملوك وحروبهم فإن الرسائل الشخصية هى التى يجب الرجوع إليها لمعرفة الناس على حقيقتهم ، والكشف عما كانوا يخفونه من أخلاقهم وأعمالهم عن أعين غيرهم فى الحياة العامة . ذلك أن صندوق الرسائل ، كما قال شيشرون ،

---

(١) انظر هذا الوصف فى الرسالة رقم ١٠ من « هلواز إلى أبلار » .

« مستودع مقدس » يضع فيه الناس أسرارهم وهم واثقون من أنهم قد ألقوا بها فى مكان أمين ، وأن ما حوته من الأسرار لن يطلع عليها إلا المرسلة إليهم .

من أجل هذا عنينا بترجمة الرسائل التى يحويها هذا الكتاب ، ولم نقتصر فيها على نوع واحد بل حاولنا أن ننوعها بقدر المستطاع ، فذكرنا منها ما يصف عواطف كاتبها من حب واستعطاف ، وما يعنى بالحادثات الهامة التى غيرت مجرى التاريخ ، أو بالشخصيات البارزة التى كان لها أعظم الأثر فى هذا العالم ملوكا كان أصحابها أو فلاسفة أو رجال دين ، رجالا أو نساء ، شيباً أو شباناً . وكثير منها رسائل خاصة لم يكن كاتبوها يظنون أن أحداً سيطلع عليها فى يوم من الأيام .

ولم نقتصر فى هذا الكتاب على إيراد الرسائل وحدها ، بل قدمنا لكل رسالة ببيان واف عن الباعث على كتابتها ، وأوضحنا بعض ما حوته من إشارات غامضة . نعم إن الرسالة فى بعض الأحيان تقص قصتها بنفسها ، ولكنها حتى فى هذه الحال تصبح أشد وضوحا وأكثر متعة إذا عرف القارئ شيئاً عن كاتبها ، وعن الباعث على كتابتها ، وما كان يحيط به من الظروف وقت أن كتبها ؛ ومن أجل هذا يرى القارئ فى بعض الأحيان أن رسائل قصيرة سبقتها مقدمات طويلة . وقد أتبعنا كل رسالة بالرد عليها تارة وبخلاصة هذا الرد تارة أخرى ، أو بما كان لها من أثر وما أعقبها من نتائج إن لم يكن لها رد .

والرسائل منقولة بنصها الكامل فلم يحذف من هذا النص إلا القليل النادر ، وقد أشير فيها إلى أجزائها المحذوفة ، وهى مرتبة حسب أقدميتها ولكن فى نيتنا متى تم ما نريد ترجمته منها أن نرتبها كلها حسب موضوعاتها ، وأن نتبعها بفهرس يحوى أسماء كتابها ومن كتبت إليهم ، ومن وردت أسماؤهم فيها كما هى فى الأصل الإنجليزى .

وليست الرسائل التى اثبتناها هنا خير الرسائل العالمية على الدوام ، ولكن الذى روعى فى اختيارها أن تمثل أكثر ما يمكن تمثيله من ألوان الأدب ، أو أن تلقى أكثر ما يمكن إلقاؤه من الضوء على أهم حوادث التاريخ . وقد اختير بعضها لغرابته ، واختيرت كلها بوجه عام لما فيها من متعة وطرافة . كذلك ليس كاتبوها كلهم من عظماء التاريخ ، فمنهم العظيم ، ومنهم غير العظيم ، بل إن منهم من لا يمت إلى العظمة بسبب مثل نيرون وهنرى الثامن . وقصدنا من ذلك أن تمثل الرسائل أوسع ما يمكن تمثيله من مناحى الحياة الإنسانية .

وستلقى هذه المجموعة متى تمت ضوءاً ساطعاً على أهم حوادث تاريخ الإنسانية : على بداية المسيحية ، وعلى النهضة الأوربية ، والثورة الأمريكية ، والثورتين الفرنسية والروسية ، والانقلابين النازى والفاشى ، وعلى حياة العلماء الأعلام أمثال دارون وهكسلى ومدام كورى .

وكل الرسائل منقولة عن اللغة الإنجليزية ، حتى ما كتب منها فى الأصل بغير هذه اللغة ، فهو منقول عن ترجمته الإنجليزية . ولم نشأ أن نضم إليها شيئاً من الرسائل العربية لأن الذى نهدف إليه هو أن نطلع قراء لغتنا على نماذج من الأدب الغربى . أما الرسائل العربية ففى وسعهم أن يطلعوا على ما يريدون منها فى كتب الرسائل المعروفة .

ولعلنا بهذا نكون قد أدينا بعض الواجب علينا للغتنا وأبناء وطننا .

محمد بدران

الإسكندر الأكبر ودارا الثالث

يتنازعان سيادة العالم

تتكون سيرة الإسكندر الأكبر كما نقرؤها فى كتب التاريخ من مزيج من الحقائق والأوهام لا يسهل التفريق بينها . وليس فى المدارس تلميذ لا يعرف ما يعزى إلى الإسكندر فى شبابه من أعمال حربية مجيدة ، بعضها على الأقل مما لا يقبله العقل . فهو يتلقى من معلميه الشيء الكثير عن شجاعته الشخصية وجرأته المنقطعة النظير ، وعن سيره السريع فى القارات الثلاث أوربة وآسية وإفريقية ، وعن مباغتته أعداءه ، وعن فنونه الحربية المبتكرة ، وعن رفضه أن يهاجم عدوه ليلا أو «يختلس منه النصر اختلاساً» ، وعن دراسته على أستاذه أرسطوطاليس ، وعن قراءته الدائمة لهوميروس ، وعن فتح بيت المقدس وتأسيس الإسكندرية ، وعن زيارته لمعبد الإله آمون فى الصحراء ، وعن أبهته الشرقية ، وقسوته البالغة ، وعن حياته القصيرة وموته المبكر فى الثالثة والثلاثين من عمره .

وقد بدا فى السنين الأخيرة ميل من جانب بعض المؤرخين إلى الشك فى بعض ما يروى عن الإسكندر من قصص ، وليست الرسائل الواردة هنا مما تبادله الإسكندر ودارا الأكبر الذى هزم فى سهل مرثون[1] عام ٤٩١ ق . م . والذى ورث عرش دولة كورش الفارسية ، بل كانت بينه و بين دارا الثالث الذى ارتقى العرش فى نفس السنة التى ارتقى فيها الإسكندر عرش مقدونية (٣٣٦ ق . م) . وهى منقولة عن كتاب « روضة الصفا » للمؤرخ الفارسى المسلم ميرخوند (١٤٣٣—١٤٩٨ م)[2] . ذلك أن قصصا عن الإسكندر ومجده وعظمته انتشرت بين الناس فى العصور الوسطى ، وقد جمع ميرخوند طائفة منها فى كتابه السالف الذكر ، ووصف صاحبها فى هذا الكتاب بأنه جمع بين الرحمة والقسوة ، و بين الوعد والوعيد . . . . ؛ وقال عنه « إنه عاد من حروبه منتصرا ظافرا » .

---

(١) Marathon .

(٢) ابن برهام الدين الخوندشاه . قضى جزءا من حياته فى هرات وتوفى فيها فى ٢٢ يونية سنة ١٤٩٨ [عن دائرة المعارف الإسلامية] ، وتوجد نسخة من هذا الكتاب بالفارسية فى دار الكتب المصرية . (المترجم)

وكان مولد الإسكندر نفسه فى مدينة پلا[1] عاصمة مقدونية فى عام ٣٥٦ ق . م . ، وتربى على يد أرسطوطاليس ، وناب عن والده فى حكم بلاده حين هاجم هذا بوزنطية .

ولم يكن الإسكندر قد بلغ سن العشرين حين اعتلى العرش بعد موت أبيه ، و بعد سنتين من توليته أى عام ٣٣٤ . ق . م عبر مضيق هلسپنت[2] (الدردنيـل) على رأس ثلاثين ألفا من المشاة ، وخمسة آلاف من الفرسان ، ونال أول نصر على جيوش الفرس فى موقعة نهر غرانيكوس[3] . وعلى أثرها فتحت مدن آسية الصغرى أبوابها له . و يقول ميرخوند إن دارا هاله تقدم جيوش الإسكندر فكتب إلى عامله على طرسوس يقول : « وصلت إلى مسامعنا . . . . أخبار عن لص جمع حوله طائفة كبيرة من اللصوص أمثاله ، واتخذ طريقه إلى بلادنا . وقد كتبت هذا إليك لآمرك أن تلقى القبض على جميع من معه ، وتلقى بهم هم وأسلحتهم وماشيتهم فى البحر . أما زعيمهم فأرسله إلينا مكبلا بالأغلال . و إن لك من حكمتك وشجاعتك ما يعينك على تنفيذ هذه المهمة اليسيرة . ولما كان هذا اللص فضلا عن ذلك كله غلاما حقيرا من أبناء الروم ، فإننا لن نغفر لك عجزك عن القيام بهذا الواجب أو توانيك فى القيام به » .

ولما عاد الإسكندر من أرمينية نزل على شاطئ نهر أسطوخوس[4] فهدد بذلك مركز دارا . وفى هذا الوقت أرسل إليه دارا الرسالة التالية :

— ١ —

. . . انه اله السماء قد وهب لى ملك الأرض . . .

[من دارا إلى الإسكندر]

من عاصمة ملوك العالم . ليعلم الإسكندر اللص الخ . . . . ما دامت الشمس تشرق على رأسه ، أن مالك السماء قد وهب لى ملك الأرض ، وأن الله القادر على كل شىء قد منحنى أركانها الأربعة ، وأن العناية قد خصتنى بالمجد والرفعة والجلال ، و بعدد لا حصر له من الأنصار والأحلاف .

---

(١) Pella
(٢) Hellespont
(٣) Granicus
(٤) Astukhus

وقد ترامى إلىّ أنك جمعت حولك طائفة من اللصوص وأراذل الخلق ، وأن كثرتهم قد أعجبتك وغرّتك فأردت أن تستعين بجمعهم ليكون لك تاج وعرش ، ولتخرب ملكنا وتدمر أراضينا وتهلك شعبنا .

ولعمرى إن هذه النية الخبيثة لخليقة بأمثالك المفتونين من أبناء الروم . والآن يجدر بك بعد أن تقرأ هذه الرسالة أن تغادر من فورك المكان الذى تقدمت إليه . أما الحركة الإجرامية التى أقدمت عليها فلا تخش من أجلها بطشنا وعقابنا ، لأنك لم تصبح بعد فى عداد أولئك الذين يستحقون غضبنا وانتقامنا . وهأنذا أرسل إليك صندوقا مملوءاً بالذهب ، وحمارا محملا بالسمسم لتعرف منهما مقدار ما لدىّ من مال ، وما لى من سلطان . ومع هذه الهدية سوط وكرة ؛ فأما الكرة فلكى تلهو بها اللهو الخليق بسنك ، وأما السوط فلتعذب به نفسك .

. . .

ولما وصلت هذه الرسالة إلى يد الإسكندر أمر بالقبض على حامليها وقطع رؤوسهم ، ولكن رجال حاشيته هالهم الأمر فرجوه أن يعفو عنهم ، فأجابهم إلى طلبهم ، وكتب إلى دارا الرسالة التالية .

— ٢ —

. . . . حتى تقر لى بالغلبة وتذوق مرارة نصرى

[من الإسكندر إلى دارا]

من ذى القرنين إلى من يدّعى أنه ملك الملوك ، وأن جيوش السماء نفسها ترهبه ، وأن أهل الأرض جميعا يستضيئون بنوره ! أفهل يليق بإنسان كهذا أن يخشى عدوا حقيرا كالإسكندر ؟

ألا يعلم دارا أن الله العلى الأعلى يهب العزة والسلطان لمن يشاء ، وأن من يدعى من عباده الضعفاء الهالكين أنه إله مثله تخضع له جيوش السماء ، يحل به غضب الله فيدمر ملكه ويخرب بلاده !

وكيف يدعى الألوهية إنسان قدر عليه الموت والفناء ، معرض لأن ينتزع منه ملكه ويصبح تقسيم الدنيا فى يد غيره ؟

ألا فاعلم أنى عقدت النية على لقائك فى ميدان القتال ، وهأنذا سائر إلى بلادك مقر بأنى خادم الله ، ضعيف ذليل ، أتضرع إليه وأستغفره وأمجده . ولقد بعثتَ إلى مع رسالتك التى تفخر فيها بقوتك سوطا وكرة وصندوقا مملوءا بالذهب وحمارا محملا بالسمسم ، وأنا أعد هذا كله فألا حسنا ودلالة طيبة . فأما السوط فدليل على أنى سأكون أداة لتأديبك ، وأنى سأصبح حاكمك ومعلمك وهاديك ؛ وأما الكرة فتشير إلى أن الأرض وما عليها ستكون خاضعة لرجالى ؛ وأما الذهب وهو بعض ما لديك من كنوز فيدل على أن مالك كله سينقل إلينا ؛ وأما السمسم فإن حباته وإن كثر عديدها ناعمة الملمس ، وهى من أحسن الأطعمة وأقلها ضررا ؛ وهأنذا أرسل إليك بدلها حفنة من حب الخردل لتذوق فيها مرارة نصرى . ولقد أسرفت فى القول وغرك ملكك الواسع فتجبرت وتعاليت ، وادعيت أنك رب هذه الأرض ، وزعمت أنك تروعنى بكثرة جندك وعظيم استعدادك . أما أنا فلست أعتمد على غير العناية الإلهية ، وما من شك لدى فى أن الله جلت قدرته سيجازيك على كبريائك هذا بأن يجعلك عبرة لخلقه ، وأنه سيقمع من طغيانك ، ويذلك إذلالا لا يعادله إلا كبرياؤك نفسه ، ويجعل لى الغلبة عليك . ولست أعتمد فى هذا كله إلا على الله وحده والسلام .

* * *

واضطر الإسكندر أن يعود إلى مقدونية لمرض والدته . فلما شفيت واصل سيره لقتال دارا ، والتقى الجيشان ، ودارت بينهما رحى القتال . وفى ذلك يقول ميرخوند .

وتحرك الجيشان كأنهما بحران صاخبان ، وتلاطما كأنهما جبلان من حديد ، وأظلم الجو من كثرة ما ثار من النقع فى الميدان ، وصمت الآذان من صوت الأبواق ودق الطبول ، وأدرك الناس مما رأوه وشاهدوه معنى قوله تعالى : « إن زلزلة الساعة شىء عظيم » ؛ وانشقت السماء . . . . وجرت الدماء على شفار السيوف كأنها المطر المنهمر ، وانعكس على نصال الخناجر الزمردية لون دماء القتلى القرمزى . . . . ، وحجبت أجسامهم أرض السهل كله عن الأنظار . . .

وحالف النصر الإسكندر وولى دارا الأدبار فعبر نهر الفرات ، وجمع جيشا أكبر من جيشه الأول ، وعرض الصلح على الإسكندر ، وقبل أن ينزل فى سبيل ذلك عن نصف ملكه . ولكن الإسكندر رفض ما عرضه عليه ، وفضل أن يغامر بجنده فى موقعة أخرى يمتلك بها بلاد الفرس كلها ، وخالف فى ذلك نصيحة قواده . و إليك نص الرسالة التى بعث بها إلى دارا :

— ٣ —

ستری أنی أعرف . . . . كيف أعامل من أغلبهم

[من الإسكندر إلى دارا]

يا دارا

إن دارا الذى تُسمى باسمه[١] (إذا صدق ما يقوله المؤرخون) قد دمر جميع مدن اليونان على شاطئ الهلسپنت وخرب جميع المستعمرات اليونانية على شاطئه الأسيوى . ولم يكتف بهذا كله بل عبر البحر إلى شاطئه الغربى بجيش جرار ، وأغار به على بلادنا . ثم حلت به الهزيمة فى البحر ، فعاد إلى بلاده ، ولكنه ترك قائده مردونيس[٢] ليخرب فى غيبته أرض اليونان الخصبة المثمرة ويدك مدنها العامرة .

أضف إلى ذلك مقتل أبى فليپ الذى سولت لكم نفوسكم الدنيئة أن تحرضوا عليه من اغتالوه وتغروهم بما وعدتموهم من مال وفير . بذلك الغدر أوقدتم نار الحرب ، و بتلك النذالة أججتموها ، وهل ثم غدر أو نذالة أكبر من أن تنحط نفوسكم إلى هذا الدرك ، فتحاولوا قتل من تخافون لقاءه فى ميدان القتال ؟

وهل نسيت ما فعلته حين كنت تقود بنفسك جيشك العظيم لقتالى ، إذ وعدت من يأتيك برأسى بألف تالنت[٣] ؟ إن الحرب التى أخوض غمارها الآن ليست إذن إلا حربا أدافع بها عن نفسى ، وقد أثبتت الآلهة عدالة قضيتى بما أتاحته لجيوشى من النصر ، و بما

(١) دارا الأكبر الذى هزم فى سهل مرثون Marathon .

(٢) Mardonius .

(٣) يقدر التالنت الواحد بين ٢١٣ ، ٢٣٥ جنيها إنجليزيا .

استوليتُ عليـه من أقاليم واسعة فى بلادك .

لقد انتصرتُ عليك فى ميدان القتال ، والشرف لا يحتم على أن أجيبك إلى شىء تطلبه ، وليست لك على يد أغضى لها ، ولـكننى مع ذلك أعدك وعدا صادقا أنك إذا جئتنى ، كما يجب أن يجيئنى من هم على شاكلتك ، أطلقت سراح زوجتك وأبنائك من غير فدية . أما أنت فإنك من الغزاة الفاتحين ولك فى هذا تجارب كثيرة ، وسترى أنى أعرف كيف أعامل من أغلبهم معاملة شريفة . وإذا كنت فى شك من أنك ستكون هنا آمنا على نفسك ، فإنى أعدك بأن أرسل إليك من يحرسك فى مجيئك إلىّ وفى عودتك من عندى . وإذا شئت أن تكتب إلى الإسكندر قبل مجيئك فلا تنس أنك لا تكتب إلى ملك وحسب بل اعلم أنك تكتب إلى مليكك أيضا .

. . .

وفى اليوم الحادى والعشرين من سبتمبر سنة ٣٣١ ق . م . عبرت جيوش مقدونية بقيادة الإسكندر نهر الفرات فى أثناء خسوف القمر . وتقابل الفرس واليونان مرة أخرى عند أربيلا ودارت بينهما معركة من أعظم المعارك الحاسمة فى التاريخ . وفيها انتصر الإسكندر وأصبح صاحب الأمر والنهى فى الجزء الأكبر من العالم المعروف وقتئذ ، ولم يكن قد جاوز الخامسة والعشرين من عمره . وفر دارا من ميدان القتال ولـكنه اغتيل بيد أحد مرازبته .

وواصل الإسكندر سيره إلى أواسط آسية ثم أخذ فى الثمان السنين الباقية من حياته فى تدعيم ملـكه ، وتنظيم حكمه ، وتأديب الخارجين عليه ، وفى الدرس والكتابة إلى العلماء والفلاسفة[1] ، وفيما لا يحصى من ضروب البذخ والدعارة إلى أن مات فى عام ٣٢٣ ق . م . غير متجاوز ثلاثة وثلاثين عاما ، وترك ملـكه يتنازعه قادته ، حتى اقتسمه بطليموس وسلوكس وانتجنس[2] ؛ وأقام أولهما فى مصر وثانيهما فى سوريا وثالثهما فى مقدونية .

---

(١) اقرأ الخطاب التالى الذى أرسله إلى ديوچين .

(٢) Selcucus و Antigonus .

ديچين يرفض الذهاب لمقابلة الإسكندر

ولد الفيلسوف ديچين فى سينوب من أعمال آسية الصغرى فى عام ٤١٢ قبل الميلاد ، ومات فى كُرِنث ببلاد اليونان فى عام ٣٢٣ ق . م . وقد أظهر منذ صباه اهتماماً عظيماً بالمسائل الفلسفية ، وما لبث أن اشتهر بالفقر المدقع ، و بقدرته العظمى على ضبط النفس ، و ببحثه المتصل عن رجل شريف ، « و بالتنقيب عنه فى الظلام الحالك ، مستعيناً على ذلك بنور ضئيل ينبعث من مصباح صغير » . ويظهر الخطاب الآتى كيف استطاع رجل يسيطر على نفسه أن يتحدى رجلا سيطر على العالم المعروف كله .

— ٤ —

فليأت هو الىّ :

كتب ديچين إلى أرستپس[١] يقول

إلى أرستپس :

كتبت إلىّ تقول إن الاسكندر ملك مقدونية شديد الرغبة فى أن يرانى ، ولقد أحسنت إذ ذكرت لقبه لأنك تعلم أن لا سلطان لأحد علىّ مهما يكن من شأنه وشأن المقدونيين . فإذا كان هذا الأمير يريد أن يتصل بى ليعرف كيف أعيش فليأت هو إلىّ ، لأنى أعتقد ، وسأظل أعتقد ، أن أثينة تبعد عن مقدونية بقدر ما تبعد هذه عن تلك والسلام .

. . .

وكان الاجتماع الوحيد بين الإسكندر وديوچين هو اجتماعهما التاريخى فى أثينة حين التقيا صدفة ، وسأله الملك كيف يستطيع أن يخدمه ، فكان جواب الفيلسوف : « إن أعظم ما تستطيع أن تخدمنى به أن تبتعد عن ضوء مصباحى » . وتأثر الملك العظيم بقناعة ديچين فتنحى عن طريقه وهو يقول : « لو لم أكن الإسكندر لوددت أن أكون ديچين » .

ويعلق المؤرخ الكبير پلوطارخ صاحب كتاب السير على ذلك بقوله : « وماذا يعنى

(١) Aristippus .

هذا فى الحقيقة ؟ إن معناه أن الإسكندر قد ساءه ما هو عليه من غنى وعظمة وجاه ، لأنها كلها عقبات تحول بينه و بين الفضيلة ، ولا تترك له من الوقت ما يمكنه من البحث عنها أو ممارستها ، وأنه كان يحسد ديچين على ثيابه الساذجة الممزقة التى كانت له درعاً أقوى من دروع الاسكندر وخيله وحرابه ، ولو أنه استطاع أن يسيطر على نفسه لبلغ من القوة ما بلغه ديچين ، ولاحتفظ فضلا عن هذا بملكه وقوة بأسه . بل إن مقامه العظيم كان يجب أن يحفزه إلى التخلق بأخلاق ديچين ، لأن ثراءه وملكه وعظمته المعرضة لعبث الأقدار كانت تتطلب إليه قوة فى الخُلق ، وسيطرة على النفس ، أكثر مما تتطلبه أحوال ديچين نفسه ».

بين شيشرون وقيصر

لا يزال الهدف الذى كان يهدف له قيصر بأعماله كلها موضع الحدس والتخمين ؛ ولكن شيئاً واحداً على الأقل لا شك فيه ، ذلك أنه لم يكن يريد أن يُبقى على ذلك الحكم الأرستقراطى الفاسد الذى كانوا يسمونه « الجمهورية الرومانية » . وكان معظم منافسيه يعرفون عنه ذلك وإن اختلفوا فى مقاصده النهائية . ولما تهددت أخطار من هذا النوع سلطة مجلس الشيوخ العليا قبل عهد قيصر بجيل أو بجيلين وجد هذا المجلس من يدافع عنه من الأنصار فى شخص سَلَّا[١] . أما قيصر فكان شأنه غير شأن سابقيه ، فقد أثار المجلس عليه أقوى رجاله ، ولكنهم كانوا أضعف من أن يقفوا فى سبيله .

ولم يكن ماركس تليوس شيشرون[٢] أيضاً من غير ذوى الأطماع ، ولكنه كان من ذلك الصنف الذى يفضل أن يقف من الكفاح القائم بين قيصر ومجلس الشيوخ موقف المتفرج ؛ غير أن المتفرج المحايد مهما تكن نزاهته — وكان شيشرون أبعد الناس عن هذه النزاهة — لا يسلم من ضربة طائشة تصيبه من حين إلى حين . على أن شيشرون لم يقف موقف الحياد الدقيق ، إذ خال أن له من القوة السياسية أكثر مما كان له فى واقع الأمر ؛ فقد كان قبل عهد قيصر أعظم رجل فى إيطاليا ، وكان الناس بعد أن يفرغ من خطبة يلقيها عليهم يحيونه بقولهم إنه « أبو البلاد » . وقد لقبه كاتو[٣] بأنه جمهورى يمثل فى شخصه أقدم تقاليد الجمهوريين ، وكان لهذا التقدير أعظم الأثر فى عقل شيشرون .

واشتغل شيشرون أول الأمر بالمحاماة ، وكانت من المهن التى تدر على أصحابها المال الكثير ، واشتهر فيها ببلاغته التى أوصلته إلى منصب القنصلية . وكانت قوة قيصر آخذة وقتئذ فى الظهور فبدأ يخشى هذا الخطيب المفوه ، ولكنه لم يكن يحقد عليه ، وبلغ من أمره أنه لما ألف هو وپمپى وكراسس[٤] الحكومة الثلاثية الأولى عرض على شيشرون أن يشترك معهم فى حكم الدولة الرومانية اعتقاداً منه أن من مصلحتهم أن يضموه إلى جانبهم .

---

(١) Sulla

(٢) Marcus Tullius Cicero .

(٣) Cato

(٤) Pompey ، Crassus .

غير أن شيشرون رفض هذا العرض ، وظل فى ظاهر أمره صديقاً لقيصر ، ولـكنه كان فى خبيئة نفسه يفضل عليه بمبى ظناً منه أن انتصار بمبى يحفظ لمجلس الشيوخ سلطانه . ولما تحول النزاع بين بمبى وقيصر إلى حرب سافرة انضم شيشرون بكليته إلى أولهما . فلما حاقت به الهزيمة وفر إلى بلاد اليونان أصبح شيشرون غير آمن على حياته وتملكه اليأس كما يستدل على ذلك من رسالة كتبها فى ١٤ أبريل سنة ٤٩ قبل الميلاد إلى صديق له يدعى تيتس بمبونيس أتكس(١) ، وهو رجل رومانى من رجال الأعمال ذو ميول أدبية . و بعد ثلاثة أيام من تاريخ هذه الرسالة جاءته الرسالة التالية من قيصر يؤمنه فيها على حياته ، ولـكنه يحذره من التدخل فى النزاع القائم بينه و بين بمبى .

— ٥ —

. . . . وأى شىء أجدر من هذا بالرجل الصالح ؟ . . . .

فى الطريق إلى أسپانيا — فى ١٦ إبريل [٤٩ . ق . م]

قيصر الإمبراطور يحيى شيشرون الإمبراطور(٢)

إنى أعرف أنك لا تقدم على عمل خال من الحـكمة ينقصه العقل والروية ، ولـكن إشاعات وصلت إلى علمى لم يطمئن لها خاطرى ، فرأيت أن الواجب يقتضينى أن أكتب إليك لأسألك بحق ما بيننا من ود متبادل ألا تتخذ لك الآن ، وقد أصبح الحظ حليفى ، موقفاً لم تر من الواجب عليك أن تتخذه وقت أن كان الأمر محوطاً بالشك والغموض . فإن خالفت هذه النصيحة أسأت أشد الإساءة إلى ما بيننا من صداقة ، وسلـكت سبيلا أبعد ما تـكون عن مصلحتك ، لأنك حينئذ لا تترك مجالا للشك فى أنك تتبع الجانب الخاسر — فالحظ كله الآن فى جانبنا والخسارة كلها فى جانبهم — ، وفى أنك لا تعرف الظروف الحقة المحيطة بقضيتنا ، والتى لا تختلف الآن فى شىء عما كانت عليه حين رأيت أن من الخير ألا تشترك فى النقاش الذى يدور حولها . وفضلا عن هذا فإنك تـكون قد طعنت فى عمل من أعمالى وأنا أعد هذا الطعن أشد ضربة توجه إلىّ ، وأستحلفك بحق ما بيننا من الود ألا تفعل .

---

(١) Titus Pomponius Atticus .

(٢) كل ما كان للفظ إمبراطور Emperator من معنى فى الزمن القديم هو « القائد » .

وهل ثمة شيء أجدر بكرامة الرجل الصالح والمواطن الهادئ المسالم من أن يبتعد عن الاشتراك فى المنازعات الداخلية ؟ ذلك موقف يسر الكثيرين من الناس أن يقفوه ، ولكنهم لا يستطيعون أن يفعلوا ذلك لما يكتنفه من الأخطار . أما أنت فإنك بعد أن تقنع نفسك بما فى حياتى من دلائل على الظفر صادقة ، وبما اتخذتُه فى شأنك من قرار أملته علىّ صداقتى لك ، ستجد ألا شيء أسلم ولا أشرف لك من أن تنفض يدك من كل تدخل جدى فى النزاع القائم بيننا .

• • •

ومع أن شيشرون عرف وقتئذ أن لا أمل لبمپى وأتباعه فى النصر ، فإن ما أظهره له قيصر فى رسالته من أدلة صداقته ، وما قدمه له من نصح بأن يتبع سبيل العقل والحكمة ، لم يتغلبا على ما كان يشعر به من عطف على بمپى . غير أنه مع ذلك آثر العزلة والانسحاب من ميدان السياسة ، وظل عدة شهور يراسل زعماء الطائفتين المتنازعتين ، حتى علم أن قيصر حاق به الخطر فى حروبه مع أنصار بمپى فى أسپانيا ، فاستقر رأيه على أن ينضم إلى بطله فى اليونان . ولكنه لم يلق من بمپى ما كان يطمع فيه من ترحيب . ولم يلبث قيصر أن تغلب على أعدائه فى أسپانيا ثم سار بجيوشه إلى بلاد اليونان فى عام ٤٨ ق . م . ، وهزم بمپى فى موقعة فرسالس[١] الحاسمة .

وظن شيشرون أن قيصر لن يصفح عنه هذه المرة ، ولكن القائد الظافر أمنه على نفسه ، وسمح له بأن يغادر أرض اليونان ، وأن يقيم فى جنوب إيطاليا . ولما جاء قيصر إلى تارنتم[٢] فى سبتمبر سنة ٤٧ أتاه شيشرون محييا وهو يرتجف من الخوف ، ولكن قيصر فى ساعة نصره كان فى مقدوره أن يكرم وفادة هذا الشيخ المحطم ، فنزل من عربته وعانق شيشرون وتحدث إليه حديثا وديا طويلا ، ودعاه أن يعود إلى حياته القديمة .

وظل شيشرون من ذلك الوقت يعيش معيشة سراة الريف حتى قتل قيصر بعد عودته إلى إيطاليا بنحو ثلاث سنين . وكان فى هذه الفترة يقضى وقته فى دراسة الآداب والفلسفة وفى كتابة الرسائل . ولم يكن له وقتئذ نفوذ .

---

(١) Pharsalus .

(٢) Tarentum .

وكان همه كله أن يدافع عن المنفيين من أنصار پمبي ؛ وكانت إشاراته إلى قيصر هي النفاق بعينه . وظل الرجلان يتظاهران بالصداقة والحب إلى يوم مقتل قيصر ، و بلغ من أمر شيشرون أن استضافه في بيته الريفي الفخم قبل مقتله بثلاثة شهور .

ولم يشهد شيشرون مقتل قيصر في الخامس عشر من شهر مارس سنة ٤٤ ق . م ، ولكن أنطونيوس أكد أنه كان العقل المدبر للمؤامرة . ولم يلبث شيشرون أن جهر بعدائه الكامن لقيصر ، وانضم إلى قاتليه ، وكان جزاؤه أن قتله أنصار أنطونيوس في السابع من ديسمبر سنة ٤٣ ق . م .

و بعد عدة سنين من ذلك الوقت ، و بعد أن أصبح أكتاڤيوس — ابن أخي قيصر ومتبناه — إمبراطور الرومان ، رأى أحد أحفاده يقرأ بعض كتابات شيشرون ، فتناول الإمبراطور ما كان يقرؤه الشاب ، ونظر فيه نظرة فاحصة ، ثم أعاده إلى الصبي المضطرب وهو يقول : « لقد كان هذا يا بني رجلا بليغاً — رجلا بليغاً محباً لوطنه » .

من أجرپينا أم نيرون إلى ولدها الإمبراطور

تسترحمه وتطلب إليه أن يبقى على حياتها

كانت أجرپينا[١] أم نيرون وزوج الإمبراطور كلوديس[٢] هى التى أعانت ابنها على أن يرتقى عرش الإمبراطورية الرومانية فى عام ٥٤ . ق . م بدل برتنكس[٣] الوارث الشرعى . وكان نيرون معاصراً للمسيح وللقديس بولس . ويصف المؤرخون هذا العاهل بأنه كان أفحج الساقين ، غليظ العنق ، بطيناً ، وأنه كان يسير فى الطريق أحيانا عارى الجسم . وكان إذا غضب على رجل من أصدقائه أو من رجال الدولة أرسل إليه كلمة قصيرة يوحى إليه فيها أن انتحاره لن يسىء إليه أو إلى الدولة . وكانت هذه الإشارة فى بعض الأحيان تؤدى الغرض المقصود منها ، وكان ممن قتلهم بهذه الطريقة الفيلسوف سنكا نفسه حين تلقى إشارة بهذا المعنى من تلميذه . وكان من المشروعات الغريبة التى ملكت على نيرون تفكيره أن يكتب تاريخاً شعريا لرومة فى أربعمائة كتاب . وكان يسره أحيانا أن يقرأ على الناس بعض ما كتبه من هذا التاريخ بصوت مرتفع .

واستطاع نيرون بعد أن جلس على سرير الملك أن يقضى على حياة الكثيرين ممن كانوا يعارضونه فى مشروعاته الجنونية . وقد أغرته پپيا سبينا[٤] إحدى محظياته وزوجة الإمبراطور أتو[٥] فيما بعد بأعدامها ، واتهمتها كذبا بالخيانة و بالتآمر على حياة ابنها ، فكتبت أجرپينا إلى ولدها الرسالة التى أثبتناها هنا . أما أجرپينا نفسها فكانت من أسوأ النساء سيرة ، فقد دبرت مختلف المؤامرات ، وحاكت كثيراً من الدسائس حتى ارتقى ابنها عرش الإمبراطورية ، فقضت بالسم على حياة منافسيه وأعدائه ، ومنهم الإمبراطور كلوديس عمها وزوجها الثالث . ويشك بعض المؤرخين فى هذا ، ولكن مهما يكن من صدقه أو كذبه فإن فيه دليلا قويا على ما كان شائعاً فى رومة فى القرن الأول الميلادى من قسوة وفساد .

• • •

(١) Agrappina .

(٢) Claudius .

(٣) Britannicus

(٤) Poppaea Sabina .

(٥) Otho .

— ٥ —

« . . . لقد حملتك فى رحمى . . . وغذيتك . . . بدمى . . . »

لست أعجب من أن سلانا العقيم لا تشعر بشىء من العطف والحنان ، لأن التى لم تلد قط ولداً لا تعرف بطبيعة الحال ما يصيب الأم إذا فقدت ولدها . والمرء يكره بطبيعته ما لم يجر به ، و إذا لم يكن يكرهه فإنه على الأقل لا يعبأ به .

. . . . و إنى لأعجب كيف تستطيع الألفاظ مهما بلغ من سحرها أن تحملك على أن تعير هذه التهم الشنيعة أقل عناية .

ألست تعرف يا ولدى ما تنطوى عليه قلوب الأمهات كلهن من حب لأبنائهن ؟ إنه حب لا تحده حدود ، ويز يده على الدوام ما فى قلوبهن من حنو لا تعرفه إلا الأمهات أنفسهن . وهل يمكن أن يكون شىء أعز علينا مما اشتريناه نحن بحياتنا حين عرضناها إلى الخطر ، أو أن يكون شىء أعظم لدينا قدراً مما حصلنا عليه بما لا يعرفه غيرنا من الحزن والألم ؟ إنها آلام وأحزان تجل عن الوصف ، ولولا ما يملأ قلوبنا من أمل فى أننا سوف نبصر فى خاتمتها مولوداً سعيداً ينسينا آلامنا لفنى العالم ولم يبق به إنسان . وهل نسيت أنى حملتك فى رحمى تسعة أشهر كاملة وغذيتك فيها بدمى ؟ وهل يصدق إنسان أنى بعدئذ أ أتمر بولدى العزيز الذى جئت به إلى العالم وسط هذه الآلام الشديدة ؟ لست أدرى لعل الآلهة قد أغضبها منى إسرافى فى حبك ، فدبَّرَت ما دبرت لتجزينى على هذا الحب شر الجزاء .

ويل لك يا أجر يبنا ! إنك تتهمين بجريمة لا يصدق أحد من الناس أنك ترتكبينها ... وماذا أفيد من لقب الإمبراطورة إذا كنت أتهم بجريمة تشمئز منها أحط النساء . . . . ألا ما أتعس الذين يتنفسون هواء بلاط الملوك . . . . !

إن أكبر الناس عقلا ، وأعظمهم حكمة ، لا يأمنون على أنفسهم من العواصف التى تثور فى قصورهم ، بل إن الخطر ليكمن فيها حتى وهى هادئة . ولكن لِمَ ألوم بطانتك ؟ فهل هؤلاء هم الذين يتهموننى بقتل ولدى ؟... بحقك ألا ما خبرتنى لم أ أتمر بولدى لأقتله ؟ أ أقتله ليزداد بذلك بؤسى وشقائى ؟ إن هذا غير معقول . وأى أمل أرتجيه بالقضاء عليك ؟ إنى لأعرف أن التطلع إلى الملك كثيراً ما يفسد الفطرة البشرية ، وأن العدالة تعجز أحياناً عن

الانتقام ممن يرتكبون هذا الجرم الشنيع ، وأن من يطمحون إلى مثل هذا المركز السامى لا يبالون بما يرتكبون من الآثام إذا ما نالوا ما يشتهون . . . أما أنا فأى إله أرتجيه ليغفر لى ذنبى ويطهرنى من هذه الخطيئة إن ارتكبتها ؟ . . .

وهل ثمة يا ولدى صعاب لم أتغلب عليها لأضع التاج على رأسك ؟ ولكنى أسيء إليك حين أذكرك بما فعلت لك . ليس من واجبى وأنا البريئة من الذنب أن أدفع التهمة عن نفسى ، بل واجبى هو أن أعتمد كل الاعتماد على عدالتك والسلام .

. . .

ويبدو أن نيرون لم يتأثر بدفاع أمه عن نفسها أو يقتنع به ، فأمر بقتلها ، وأعدمت خنقاً فى عام ٥٩ بعد الميلاد ، ثم تملكته فيما بعد سورة الغضب فركل برجله پوپيا التى دبرت مقتل أمه ، وكانت پوپيا حاملا فى ذلك الوقت فقضت نحبها من أثر الضربة .

وبعد أن حكم نيرون رومة أربعة عشر عاماً كأسوأ ما يكون الحاكمون قضى مجلس الشيوخ بإعدامه ، ولكنه استطاع أن يفوت على المجلس قصده إذ قتل نفسه بالسيف . وتقول بعض القصص إن آخر ما نطق به هو قوله : « وا أسفاه ! كيف يموت الفنان هذه الميتة ! » . ويروى أن أحداً لم يجرؤ على مجابهة نيرون بحقيقة أمره إلا پترونيس (١) ، فقد كتب إليه خطاباً يصفه فيه بأنه « أسوأ مغن عرفه العالم » » ، وأيقن أن الإمبراطور سوف لا يعفو عنه فانتحر بقطع بعض شرايينه .

---

(١) Petronius .

سنكا يندد بالمعاملة التى يلقاها العبيد فى أيامه

ويدعو إلى الرجوع للمعاملة الإنسانية القديمة التى كانوا يعاملون بها فى أيام الرومان

رسالة إلى صديقه لوسليس[١]

لم يقرر التاريخ بعد أكان سنكا من سفلة الناس أم لم يكن منهم ، فمن المؤرخين القدماء من يقول إنه كان من كبار المرابين ، وإنه أوقد نار الثورة فى بريطانيا بقسوته على مدينيه ؛ ومنهم من يقول إنه وهو معلم نيرون قد سمح لهذا الغلام بأن يطلق العنان لشهواته الوحشية .

وكانت حياة هذا الفيلسوف سلسلة من الظفر والنجاة من المآزق الحرجة . وقد ولد فى أسپانيا وانتقل منها فى أيام شبابه إلى رومة وأصبح فيها من كبار الكتاب والمحامين . وأثار نجاحه فيها عداء الإمبراطور كلجيولا[٢] الذى وصف كتاباته بأنها لا تفترق فى شىء عن « تمارين صبية المدارس » . ولم يُنْجه من غضب كلجيولا إلا اعتلال صحته ، فقد أكدوا للإمبراطور أنه لن يعيش طويلا . وفى أيام الإمبراطور كلوديس[٣] غضبت عليه زوجته مسالينا[٤] وعملت على نفيه إلى كورسكا . ولما سقطت مسالينا وتزوج كلوديس بأجرپينا استدعى سنكا إلى رومة ليكون معلما لولدها نيرون . وزاد سلطان سنكا أول الأمر فى أيام نيرون ثم ضعف هذا السلطان حتى لم يكد يبقى له أثر بعد أن وافق على قتل ولية نعمته أجرپينا ، فانزوى فى عقر داره وتوسل إلى نيرون أن يأذن له بالانسحاب من الحياة العامة — أى أن يبقى حيا . وظل شبح الموت يتتبعه فترة من الزمان كتب فى سنتين منها — بين سنتى ٦٣ ، ٦٥ ميلادية — رسائله الشهيرة إلى لوسليس ، وهو فيلسوف أبيقورى . وقد حوت هذه الرسائل مبادئ خلقية هى التى يشتهر بها هذا الفيلسوف اليوم ، وهى تبحث فى الأسفار والصحة والدين والعلوم والموت ومباريات المصارعين ، ومنها رسالة فى الرق حوت

---

(١) Lucilius
(٢) Caligula
(٣) Claudius
(٤) Messalina

من الأفكار ما لا يقل جدة عن أفكار هذه الأيام :

— ٦ —

« وقد تكون روحه . . . . روح رجل حر »

يسرنى ما حدثنى به بعض القادمين من عندك ، وهو أنك تعيش مع عبيدك معيشة الصديق مع الصديق ، وهذا هو الذى يليق بمن كان له مثل عقلك وعلمك . ولقد يقول الناس : « إنهم عبيد ! » كلا أيها الرفاق . « عبيد ! » كلا : إنهم أصدقاء منزهون عن الزهو والصلف . « عبيد ! » كلا ! إنهم عبيد مثلنا إذا ما فكر الإنسان أن للأقدار سلطانا متساويا على العبيد والأحرار .

من أجل هذا ترانى أسخر من أولئك الذين يظنون أن الرجل إذا جلس إلى مائدة الطعام مع عبده كان فى ذلك ما يشينه ويحط من قدره . ولست أدرى أى حطة فى هذا ؟ وهل لهذا الاعتقاد من سبب إلا أن آداب من يفخرون بمالهم تقضى بأن يحيط صاحب الدار نفسه بطائفة من العبيد يقفون فى خدمته وهو على مائدة الطعام ، فيأكل السيد من طعامه أكثر مما يطيق ، ويدفعه نهمه إلى أن يزحم معدته حتى تتخم ولا تؤدى عملها الذى خلقت له ، فيقاسى من الآلام فى إفراغها مما فيها أكثر مما قاساه فى إدخاله إليها . والعبيد فى أثناء ذلك لا يتحركون ولا ينطقون ، وإذا همس أحدهم ألهب جسده بالعصا وجوزى على أقل صوت يصدر منه ، ولو كان سعالا أو عطسا أو فواقا ، بضرب السياط . وقصارى القول أن من يفسد على رب الدار هـذا السكون الشامل يعاقب على عمله أشد العقاب . وهم ملزمون أن يظلوا طوال الليل وقوفا على أقدامهم جياعا صامتين .

ونتيجة هذا كله أن أولئك العبيد الذين لا يسمح لهم بالحديث فى حضرة سيدهم يتحدثون عنه من وراء ظهره . أما عبيد الأيام الغابرة الذين لم تكن أفواههم مكممة ، والذين لم يكن يسمح لهم بالحديث فى حضرة سيدهم فحسب بل كان يسمح لهم أيضا بالحديث معه ، فقد كانوا على استعداد لأن يقدموا رقابهم فـداء لسادتهم ، وأن يتحملوا طائعين كل خطر يحيق به .

. . . . ومن أجل هذه المعاملة المتغطرسة نشأ القول المأثور وذاع : « يكون للرجل من الأعداء بقدر ماله من العبيد » . ولم يكن هؤلاء أعداء فى أول أمرهم ، بل إننا نحن الذين جعلناهم لنا أعداء .

وهناك ضروب أخرى من سوء المعاملة القاسية الوحشية سأضرب صفحا عنها . وحسبى أن أقول إنا لا نعاملهم معاملة بنى الإنسان بل معاملة دواب الحمل ، وإذا ما اضطجعنا على المقاعد فى وليمة أقبل أحدهم يمسح ما تجشأناه من الطعام ، وانحنى آخر تحت المائدة ليجمع فضلات الأضياف السكارى ، وجاء ثالث ليقطع من لحم الطير أحسن ما فيه وهو صدره وفخذه ، بيد دربت على هذا العمل حتى أتقنه فلا تخطئ فيه .

ألا ما أتعس هذا الإنسان . إن همه فى الحياة « أن يتقن قطع لحم الطير السمين » ، ولعل أتعس ممن يتعلم هذا الفن وهو مرغم على تعلمه ، ذلك الذى يتعلمه رغبة منه فى ذلك التعليم . وثمة عبد آخر يقدم النبيذ ، وهو مرغم على أن يتزيى بزى النساء ، وألا يجعل لتقدم السن أثرا فى عمله ، فيظل غلاما طول حياته ، يجذب إلى هذه السن جذبا . فإذا لاحت عليه مخايل الجندى لم يسمح له بالالتحاء ، بل يقص شعره أو يقتلع من جذوره . وعليه أن يظل طوال الليل يقظا يقسم وقته بين مشاهدة سكر سيده وفجوره . فهو رجل إذا آوى سيده إلى حجرته وغلام إذا جلس إلى مائدته . وثمة عبد آخر لا عمل له إلا تقدير قيمة الضيفان ؛ — وما أشق عمل هذا المسكين الذى يرغم على أن يقضى فيه كل وقته ، وعليه أن يعرف أى الناس يؤهله ملقه أو فحشه أو نهمه أو سفاهته لأن يدعى إلى وليمة الغد . ولا تنس بعد ذلك موردى الطعام البارعين فى ملاحظة أذواق سادتهم ، ليعرفوا أى التوابل تقوى فيهم شهوة الطعام ، وأيها تسر أعينهم ، وأى مزيج جديد يوقظ المعدة المتخومة ، وأى طعام تعافه أنفسهم إذا كانت المعدة ممتلئة ، وأيها تشعره بالجوع فى يوم معين ؟ أولئك هم العبيد الذين يأبى السيد أن يطعم معهم لأنه يرى فى الجلوس مع عبده على مائدة واحدة حطة له ومهانه ، نسأل آلهة السماء أن تقينا شر هذا الاعتقاد .

ولكن كم من الأسياد يخلقهم السيد نفسه من بين أولئك العبيد ! لقد رأيت بعينى سيد كلستس[1] السابق واقفا فى الصف أمام بيت كالستس ، ورأيته ممنوعا من دخول

(١) Calistus

القصر وغيرُه يرحب بهم فيه . وهذا السيد نفسه هو الذى لصق على جسم كلستس بطاقة كتب عليها « للبيع » ، وأرسله إلى سوق الرقيق مع غيره من العبيد غير الصالحين . ولـكن ذلك العبد الذى كان بين الطائفة الأولى من العبيد الذين بحت حنجرة النخاس من النداء عليهم فى سوق الرقيق قد انتقم لنفسه فيما بعد من سيده فمحا اسمه من سجل الضيفان ، وقرر أنه غير جدير بدخول بيته . لقد باع كلستس سيدُه ، ولـكن انظر أى جزاء جازى به كلستس هذا السيد ؟

ألا فلتعلموا أن الذين تسمونهم عبيـدا خلق أمثالـكم ، تبسم لهم السموات التى تبسم لـكم ، ويتنفسون الهواء كما تتنفسون ، ويحيون كما تحيون ، ويموتون كما تموتون . وأى شىء يمنعكم أن تنظروا إليهم على أنهم قد ولدوا أحراراً كما وُلدتم ؟ وأى شىء يمنعهم أن ينظروا إليكم على أنكم عبيد أمثالهم ؟ وكم من رجل عظيم بمولده ونشأته كان يخطو الخطوات الأولى إلى مقعده فى مجلس الشيوخ ، تؤهله إليه خدمته فى الجيش ، قد سقط من سماء مجده عقب مذبحة يوم ماريوس[١] ؛ فمنهم من أصبح راعيا ، ومنهم من أضحى خادما فى كوخ ريفى . فحقروا إذاً من قد تنزل بكم الأقدار إلى مسـتواهم فى يوم من الأيام ، وقد يكون نزولـكم إلى مستواهم فى اليوم الذى تحقرونهم فيه .

ولست أريد أن أقحم نفسى فى هذا الموضوع الواسع ، فأفصّل القول فى معاملة العبيد الذين نشمخ عليهم بأنوفنا ، ونعذبهم ونهينهم ، ولـكنى أحب أن أتقدم لبنى وطنى بهذه الـكلمة الموجزة التى تجمع كل ما أريد أن أنصحهم به : « عاملوا من هم دونكم كما تحبون أن يعاملـكم من هم فوقـكم ، وكلما ذكرتم مالـكم من سلطان على عبيدكم ، اذكروا أيضا أن لغيركم هذا السلطان نفسه عليـكم » . وقد يقول الواحد منـكم : « ولـكنى لا سلطان لأحد علىَّ » ، ولـكن لعل من يقول هـذا لا يزال فى مستهل حياته ، ولعله سيكون له سيد فى وقت من الأوقات . فهل تعلمون فى أية سن استُرِقَّت هكيبا[٢] وأم دارا ، أو استرق كروسس[٣] أو أفلاطون أو ديچين ؟

---

(١) Marius

(٢) Hecuba

(٣) Croesus

كن شفيقاً على عبدك ، بل أستطيع أن أقول كن لطيفاً فى معاملته ، واسمح له بأن يتحدث إليك ، و يفكر معك ، و يعيش معك . ولست أشك فى أنى حين أقول هذا سيهب فى وجهى جميع المتطرفين و يرفعون عقيرتهم قائلين : « لا شىء فى العالم أكثر من هذا تحقيراً لنا ومهانة » . ولـكن هؤلاء أنفسهم هم الذين أراهم أحياناً يقبلون أيدى عبيد غيرهم . ألا تعلمون كيف كان آباؤنا ينتزعون من نفوس السادة كل ما يثير الحقد عليهم ، و ينتزعون من نفوس العبيد كل ما يدعو إلى إذلالهم و إهانتهم ؟ إنهم كانوا يدعون السيد « أبا الأسرة » و يدعون العبيد « أعضاء الأسرة » ، وهى عادة لا نزال نشاهدها فى المسرحيات الهزلية . وكانوا فوق ذلك يخصصون يوماً من الأيام يجتمع فيه السادة والعبيد على مائدة واحدة ؛ ولم يكن هو اليوم الوحيد الذى يجتمعون فيه ، بل كانت لهم أيام أخرى من نوعه ، ولـكن الاجتماع فى هذا اليوم كان فرضاً واجباً ، سواء اجتموا فى غيره أو لم يجتمعوا . وكانوا فوق ذلك يمكنون العبيد من أن تـكون لهم فى منازلهم مكانة ممتازة شريفة ، وأن تـكون لهم كلمة مسموعة فى تصريف شئونها . ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن المنزل ليس إلا دولة صـغيرة تصرف أمورها بالتشاور بين أعضائها جميعاً .

ورب قائل يقول : « هل تطلب إلى أن أجلس مع عبيدى كلهم على مائدة واحدة ؟ » لا يا سيدى ! لست أطلب إليك هذا كما لا أطلب إليك أن يجلس معك الأحرار جميعهم ، بل الذى أريد أن أقوله لك إنك تخطئ إذا ظننت أنى أر يد أن تمنع من الجلوس معك على المـائدة بعض العبيد الذين تظن أن عملهم حقير ، كسائقى البغال أو الرعاة . يجب أن تقدر الناس بأخلاقهم لا بما يؤدونه من أعمال ؛ ذلك أن الأخلاق يكسبها الرجل نفسه ، أما الأعمال التى يؤديها فإن الظروف هى التى تخلقها له . ادع إلى مائدتك بعض العبيد لأنهم جديرون بهذا الشرف ، وادع إليها غيرهم حتى يصـبحوا جديرين به . فإذا كان فى طباعهم بعض صفات العبيد لطول اختلاطهم بالطبقات الوضيعة ، فإن هذه الصفات تزول حتما حين يختلطون بالطبقات الراقية التى نالت من التربية الحسنة نصيباً موفوراً . ولست يا صديقى لوسليس فى حاجة إلى أن تبحث عن أصدقائك على منصات الخطابة أو فى مجلس الشيوخ ، بل إنك إذا وجهت لهذا الأمر عنايتـك والتفاتك وجدت هؤلاء أيضاً فى منزلك . فأنت كثيراً ما ترى الألوان الطبيعية مهملة لا ينتفع بها لعدم وجود الفنان القادر على مزجها ، ولـكنها

إذا جربت ظهر بهاؤها ورونقها . وكما أن الأحمق الأبله هو الذى يشترى الجواد من غير أن يفحص عن صفاته وفضائله ، بل يكتفى بالنظر إلى سرجه ولجامه ، كذلك السفيه الأخرق هو الذى يقدر الناس بثيابهم أو منزلتهم ، إذ ليست منزلة الرجل إلّا ثوبا يرتديه . « إنه عبد » ولكن نفسه قد تكون نفس الرجل الحر ؛ « إنه عبد » ولكن هل يقوم وضعه هذا عقبة فى سبيله ؟ وهل فيكم من ليس عبداً ؟ إن هذا عبد لفجوره ، وهذا عبد لشرهه ، وذاك عبد لمطامعه ، والناس كلهم عبيد للخوف . وفى وسعى أن أدلكم على قنصل سابق وهو الآن عبد لعجوز شمطاء ، وعلى من هو عبد لخادمه وهو من أصحاب الملايين . وكم من شبان كرام المحتد يستعبدهم الممثلون الماجنون . والحق أن ليس ثمة عبودية تحقر من صاحبها كالعبودية التى يفرضها هو على نفسه ؛ لهذا يجب ألا يمنعكم أولئك المتحذلقون أن تحسنوا معاملة العبيد ، وألا تتعالوا عليهم . إنهم بذلك يحترمونكم بدل أن يرهبوكم . وقد يظن بعضكم أنى حين أدعوا العبيد إلى احترام سادتهم بدل أن يخافوهم ، إنما أدعو إلى تحرير العبيد جملة ، وإنزال السادة من سماء عليائهم . سيقولون : «إن الذى يريد أن يقوله فى بساطة هو أن العبيد يجب أن يحترموا سادتهم كأنهم عملاء لهم أو زوّارا جاءوهم فى الصباح الباكر ! » ومن يقل هذا ينس إن ما يكفى لرضاء الإله لا يمكن أن يكون أقل مما يرضى السيد . إن الاحترام معناه الحب ، والحب والخوف لا يجتمعان ، ولهذا أرى أنكم على حق حين ترغبون فى ألا يرهبكم عبيدكم ، وحين تكتفون بعقابهم بلسانكم ؛ فالحيوان الأصم هو وحده الذى يحتاج إلى السوط.

وليس كل ما يغضبنا يؤذينا حتما ، بل إن حياتنا المترفة هى التى تجعلنا نغضب ونثور إذا وقف شىء فى سبيل أهوائنا . إننا نتطبع فى ذلك بطباع الملوك ، فهم أيضا ينسون ما لهم من بطش وما فى غيرهم من ضعف فيغضبون ويثورون كأن أذى قد لحقهم ، فى حين أن مركزهم السامى يجعلهم بمنجاة من كل أذى ؛ ولكنهم لا يدركون هذا بل يتلمسون أخطاء الناس ويصبون عليهم جام غضبهم وأذاهم ، ويصرون على أنهم قد أوذوا لكى يبرروا إيذاء غيرهم .

ولست أريد أن أطيل عليكم فى غير حاجة ، فلستم فى حاجة إلى من يحذركم وينذركم ؛ وهذا دليل آخر على حسن أخلاقكم ، وعلى قدرتكم على أن تصدروا أحكامكم بأنفسكم ، وألا تحيدوا عن هذه الأحكام . أما صاحب الخلق السيئ فيتبع هواه ، والهوى متقلب

لا يثبت على حال ، وهو لا يحول من شيء إلى ما هو خير منه ، بل يحول لمجرد الرغبة فى التحول ، وحسبى هذا والسلام .

. . .

وفقد سنكا سيطرته على نيرون ، ولـكنه لم يفقد سيطرته على العالم . وقد وضعه سانت جيروم فى مصاف « كتاب الـكنيسة » ؛ وكانت كتاباته مصدراً استمد منه كثيرون من علماء العصور الوسطى . وكانت مآسيه المسرحية بنوع خاص نماذج نسج على منوالها كتاب المسرحيات الأولى وكتاب المسرحيات فى عصر الملـكة إلزبث .

ووقع له فى عام ٦٥ م . ما كان يخشاه طوال حياته ، فقد طلب إليه نيرون أن ينتحر . ولما جاءه الأمر طلب أن يؤذن له بكتابة وصيته ، فلما رفض هذا الطلب التفت إلى أصدقائه وقال لهم إنه إذا حيل بينه و بين مكافأتهم على حسن صنيعهم ، فإنه يترك لهم ذلك الشيء الوحيد الذى بقى له والذى يعده خير تراث يخلفه لهم ، وهو العبرة التى يستمدونها من حياته . ثم حاول فى الوقت نفسه أن يخفف من أحزانهم ، ويكفكف دموعهم ، و يعيد إليهم صبرهم وقوتهم . ولم يكن أحد فى البلاد كلها بمأمن من بطش نيرون ووحشيته ، وهل ينتظر ممن أمر بقتل أمه وأخيه أن يتردد فى قتل أستاذه ومربيه ؟

پلنى الأصغر يسأل الإمبراطور تراچان

كيف يقضى على الخرافات المنحطة الشائنة

التى يتمسك بها المسيحيون الأولون و يعاقبهم عليها

يكشف هذا الخطاب عن قوة إيمان المسيحيين فى أواخر القرن الأول الميلادى ، وكيف كانت هذه القوة خطراً يهدد كيان الإمبراطورية الرومانية .

وكان پلنى[1] الأصغر — ابن عم پلنى الأكبر ومتبناه — حاكما على بثينيا[2] إحدى ولايات آسية الصغرى فى عام ١٠٤ ميلادية حين أرسل هذا الخطاب إلى إمبراطور من أكبر أباطرة الرومان يستشيره فى الطريقة التى يعامل بها المسيحيين الأولين . وكان الرومان قبل سقوط بيت المقدس فى عام ٧٥ ميلادية يعدون هؤلاء المسيحيين طائفة من الطوائف اليهودية ، فيسمحون لهم بإحياء شعائر دينهم ، ولكنهم فى أواخر القرن الأول الميلادى أخذوا يعدونهم خطراً يتهدد دولتهم . وأراد معظم حكام الأقاليم أن يستأصلوا هذه « الخرافات المعدية » ، ولكن پلنى الأصغر ، وقد أُعِدَّ إعداد قانونيا فى رومة ، سار على حذر و بعث إلى الإمبراطور يستشيره فى الأمر .

وفيما يلى خطاب پلنى إلى الإمبراطور و يليه ملخص ما أجابه به

— ٧ —

« .... فإذا أصروا فاقتلهم ... »

تعودت يامولاى أن أرجع إليكم إذا ماحيرنى أمر من الأمور . وهل ثمة من هو أقدر منكم على جلاء ريبى و إرشادى فيما يتخالجنى من شكوك ؟ و إذ كنت لم أشهد حتى الآن محاكمة المسيحيين فإنى لا أعرف ما يتبع فى أمرهم ، وما يحل بهم من عقاب ، وهل يختلف هذا باختلاف سنهم ؟ أو هل يستوى فى ذلك صغيرهم وكبيرهم ؟ وهل تنجيهم التوبة من العقاب ؟ أو هل يكون اعتناق المسيحية جرما لا تكفر عنه توبة ؟ وهل يعد الجهر بالمسيحية

---

(١) Pliny .

(٢) Bithinia .

فى ذاته جريمة وإن لم يصحبه عمل من أعمال الإجرام الأخرى ؟ أو هل ترى أن الجرائم المتصلة بهذا الدين هى وحدها التى يعاقب عليها مرتكبها ؟ تلك كلها مسائل لم أقف على جلية أمرها .

أما الخطة التى اتبعتها حتى الآن فيمن عرض علىّ أمرهم من هؤلاء المسيحيين فهى :

سألتهم هل هم مسيحيون ؟ فإذا أجابوا بنعم أعدت السؤال عليهم مرة أخرى وأنذرتهم فى الوقت نفسه بأنهم سيقتلون إذا أصروا على قولهم ؛ فإذا أصروا أمرت بقتلهم ، وذلك لأنى أعتقد أن التمرد والعناد خليقان بأشد العقاب ، مهما يكن من أمر دينهم الجديد . وجىء إلى أيضا بخلق افتتنوا بهذا الدين ، ولكنى وجدتهم من أبناء رومة فأمرت أن ينقلوا إليها . وأخذت أخبار هؤلاء المتهمين تنتشر وتذيع فى أنحاء البلاد لمجرد أن أمرهم كان موضع البحث والاستقصاء ، وسرعان ما تكشف لنا كثير من شرهم وأذاهم . فقد علقتْ لوحة كتبت عليها أسماء بعضهم دون أن يوقعها كاتبها ، وجىء بهم ووُجِّهت إليهم التهمة فمنهم من أنكر أنه مسيحى أو أنه كان مسيحيا فى يوم من الأيام ، ونطق بدعاء لقنته له يتضرع فيه إلى آلهتنا ، وأقام شعائر ديننا ، وسكب الخمر وحرق البخور أمام تمثالك (وقد أمرت به فأحضر مع تماثيل الآلهة لهذا الغرض) ، ثم سب المسيح (ويقولون إنه ما من مسيحى حق يستطاع إرغامه على هذا العمل) . فإذا فعل ذلك رأيت أن أعفو عنه .

ومنهم طائفة أخرى ترامت إلىّ أخبارها ، وأقر أفرادها أول الأمر أنهم مسيحيون ، ثم أنكروا ذلك فيما بعد ، وقالوا إنهم كانوا من أتباع هذا الدين ثم ارتدوا عنه ، (بعضهم من ثلاث سنين وبعضهم من قبل ذلك بكثير . ومنهم من ارتد عنه من خمس وعشرين سنة) ، وكلهم يعبدون الآن تمثالك وتماثيل آلهتنا ويلعنون اسم المسيح .

وقد أكدوا جميعا أن ذنبهم ، أو خطأهم ، الوحيد هو أنهم تلاقوا فى يوم معين قبل مطلع الفجر ، وأنشدوا للمسيح نشيداً دينيا كما ينشدون للآلهة ، وأقسموا ألا يقترفوا إثما ، وألا يسرقوا أو يزنوا أو يكذبوا أو ينكروا وديعة إذا طلب إليهم أن يردوها . وكانوا بعد ذلك يفترقون ثم يعودون إلى الاجتماع فيما بعد ليأكلوا من طعام — طعام عادى برىء[1] ؛ على أنهم أقلعوا عن هذه العادة الأخيرة بعد أن أذعت عليهم منشوراً حرمت عليهم بأمرك

---

(١) لقد كان اليهود فى العصور الوسطى يتهمون بأكل لحوم الأطفال .

الاجتماعات السياسية . ثم رأيت من واجبي أن أستطلع طلع امرأتين منهم يسمونهما شماستين فلم أتبين فيهما إلا انحطاطا وتخريفاً فاقا كل ما يتصوره العقل .

ولم أر بعد ذلك كله بدا من أن أؤجل النظر فى هذه الشئون حتى أعرضها عليك — ذلك أن الأمر من الخطر بحيث يجب أن يعرف رأيك فيه ، لأن كثيراً من الناس كلهم معرضون له رجالا ونساء ، صغاراً وكباراً ، من مختلف الدرجات ؛ وهؤلاء جميعاً سوف ينظر فى أمرهم . ولم تقتصر عدوى هذا التخريف على أهل المدن ، بل انتشرت أيضاً فى جميع القرى والدساكر ، ولكنى لم ينقطع أملى فى قدرتى على صد هذا التيار ، وعلاج هذا الداء . على أن بارقة من الأمل قد بدت لى . ذلك أن الناس بعد أن هجروا المعابد فلا يكادون يطرقونها ، قد أخذوا الآن يعودون إليها ، و بعد أن انقطعوا عن ممارسة شعائر ديننا زمنا طويلا ، شرعوا الآن يحيونها من جديد ؛ وكثر الطلب على الضحايا من الحيوانات بعد أن قل الإقبال عليها . وليس بعسير على مولاى أن يعرف من هذا عدد من يمكن هدايتهم وردهم عن هذا الضلال ، إذا ظل باب التوبة مفتوحا .

• • •

وقد وصف رد الإمبراطور الخطة التى سار عليها پلنى بأنها « خطة حكيمة » ، وقال إنه لا يحب أن يضع قاعدة عامة تطبق على جميع الناس ، ثم أضاف إلى ذلك : « يجب ألا تجدَّ فى البحث عن هؤلاء الناس ، ولكن إذا ما بلغت أمرهم وتثبت من جرمهم فعاقبهم ؛ فإذا أنكر الواحد منهم أنه مسيحى وأيد ذلك بالابتهال إلى آلهتنا فاعف عنه بعد أن يتوب مهما يكن رأيك الأول فيه » .

و يعلق المؤرخون الأولون للمسيحية على رسالة پلنى أهمية كبيرة ، وقد أشار إليها كثير من هؤلاء المؤرخين منهم القديس جيروم وترتليان[١] ، وقد قال ثانيهما فى رسالة وجهها إلى القضاة الذين كانوا يحاكمون المسيحيين الأولين : « إن يد التاريخ قد كتبت هى الرد على رسالة پلنى الأصغر ، و إن مقاومة تيار المسيحية الجارف كانت تزداد صعوبة فى كل يوم .

ومما جاء فى هذه الرسالة قوله :

« والآن أيها القضاة المكرمون ، حافظوا على هذا المظهر الزائف من عدالتكم ،

(١) Tertullian ١٥٥ — ٢٢٢ م .

وأيقنوا أنكم ستكونون فى أعين الناس أكثر عدلا كلما أمعنتم فى تعذيب المسيحيين .
فاصلبوهم وعذبوهم وأقضوا عليهم بالإعدام ، واجعلوهم إن استطعتم ترابا يوطأ بالأقدام ،
ولكن اعلموا أنكم كلما أمعنتم فى ظلمهم كان ذلك الظلم أوضح دليل على طهرهم و براءتهم ،
فهاتوا ما عندكم ، واخترعوا من وسائل التعذيب كل ما يتصوره خيالكم ، فلن يفيدكم ذلك
إلا أن تلفتوا أنظار العالم إلى ديننا ، وتجذبوا قلوبهم إليه ؛ و بقدر ما تسرعون فى حصد
أرواحنا نسرع نحن فى النهوض ، وليس الدم المسيحى الذى تريقونه إلا بذوراً له تزرعونها
بأيديكم ، يخرج نباتها عما قليل من الأرض ، يحمل أطيب الثمر » .

بلنى الأصغر يصف موت عمه

فى ثورة بركان ويزوف

[رسالة إلى تَسِتس]

كان بلنى الأصغر كما كان شيشرون محاميا وأديبا وسريا من سراة الريف . وقد كتب كثيرا من رسائله ، أو قل معظم رسائله ، وهو يقصد أن تنشر ؛ ولعل الكثير منها لم يُرسل إلى من كتب إليهم ، ولسنا نخطئ إذا قلنا إنها كلها قطع أدبية مختارة كتبت فى موضوعات مختارة كذلك . ومن أجل هذا استطاع بلنى أن يعرض فيها صورة مفصلة لحياة رجل من سادة الرومان مثقف العقل واسع الثراء . ولم يكن بلنى يظهر أمام القضاة فى المحاكم إلا إذا كانت القضية التى يدافع عنها تجمع بين الأجر الكبير والفرصة السانحة لإظهار مواهبه الخطابية . ولهذا أتيح له أن يقضى معظم وقته متنقلا بين بيوته الريفية المترفة . أما أصدقاؤه فكانوا نخبة قليلة مختارة . وكان إذا كتب فى السياسة كتب بأسلوب الرجل الحذر الذى لا يرغب فى أن يثير عليه عداء الناس أو حسدهم ، ولا يريد أن ينغص عليه الناس أوقات فراغه . وما من شك فى أن تستس المؤرخ الرومانى الشهير ، حين أخذ يجمع المادة التى يريدها لتاريخه ، تحدث فى الأمر مع صديقه بلنى ؛ وما من شك أيضا فى أن الحديث شمل ثورة بركان ويزوف الشهيرة التى حدثت فى عام ٧٩ . م ، والتى دمرت فيها مدن بمبياى ، وهركيولانيم واستابية[٢] ووصفها أبدع وصف لورد إدورد لتن فى روايته الشهيرة « آخر أيام بمبياى » . وكان بلنى نفسه ممن شهدوا بعض أدوار هذه الثورة ، كما كان بلنى الأكبر عمه الذى تبناه قد مات فيها مختنقا برماد البركان . وكان من الطبيعى أن يرغب تستس فى أن يكتب له بلنى الأصغر قصة هذا الثوران البركانى ليضمها إلى تاريخه ، أو أن يرغب بلنى الأصغر نفسه فى أن يمده بهذه القصة .

وتعد هذه القطعة الفنية القصصية الممتازة من أجمل الرسائل القديمة ، وقد رحب بها

---

(١) Tacitus

(٢) Pompeii ، Herculaneum, ، Stabiae

المؤرخ الكبير تستس الذى كان پلنى شديد الإعجاب بأسلوبه .

— ٨ —

« . . . . ووجه السفينة مباشرة الى نقطة الخطر . . . »

[سنة ١٠٠ ب . م]

إن طلبك إلى بأن أقص عليك قصة موت عمى ، لكى تنقل إلى الخلف صورة صادقة منها لجدير بالشكر . ذلك أنه إذ أتيح لقصة موته أن ينشرها قلمك ، فإنى لا أشك فى أنها ستخلد أبد الدهر . ومع أنه قد هلك مع من هلك من الناس ، وما دمر من المدن ، حين خُرب ذلك الأقليم العامر الجميل فى تلك الكارثة المدلهمة ، وأن هذا من شأنه أن يخلع على اسمه شيئا من الخلود ، ومع أنه هو نفسه قد ألف من الكتب ما لا يُبلى الزمان جدته ، فإنى أعتقد أن ذكرك إياه فى كتاباتك سيكون من أكبر الأسباب فى تخليد اسمه . وما أسعد من حبتهم العناية الإلهية بالقدرة على أن يعملوا ما هو خليق بأن يسجل فى صحف التاريخ ، أو بأن يسجِّلوا هم أنفسهم ما هو جدير بالقراءة ، ولكن أسعد من هؤلاء وأولئك من امتازوا بهاتين الموهبَتين النادرتين ؛ وسيكون عمى بين هذه الطائفة الأخيرة بفضل كتاباته وكتاباتك . ومن أجل هذا فإنى يسرنى أعظم السرور أن أقوم بالعمل الذى دعوتنى إليه ، بل أن أتقدم أنا من تلقاء نفسى للقيام به .

لقد كان وقتئذ فى ميسنيوم ، هو والأسطول المعقود لواؤه له . وحوالى الساعة الواحدة بعد ظهر اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس ، لفتت أمى نظره إلى سحابة لاحت فى السماء ذات منظر غريب وحجم غير مألوف . وكان قبل ذلك بقليل قد جلس ساعة من النهار فى ضوء الشمس الساطع ، ثم اغتسل بالماء البارد ، وتغدى على مهل ، ثم آوى إلى حجرة درسه . فلما نبهته أمى إلى ذلك المنظر ، لبس نعليه من فوره ، واعتلى ربوة ليستطيع أن يرى فى وضوح هذا المنظر غير المألوف . ولم يكن فى وسع الإنسان أن يتبين فى ذلك الوقت من أى الجبال خرجت هذه السحابة ، ثم عُرف بعدئذ أن مصدرها هو بركان ويزوف . ولست أستطيع أن أصورها لك بأحسن من تشبيهها بشجرة صنوبر ، فقد علت

(١) The Last Days of Pompeii by Bulwer Edward Lytton

أول الأمر علوا عظيما فى صورة جذع شجرة ، ثم انقسمت من أعلاها إلى عدة فروع ، ولعل ذلك قد نشأ من عاصفة هبت عليها لحظة قصيرة ثم سكنت فتمددت فى بعض جوانبها وقت أن أخذت تذوب ، أو لعل ضغطها الذى كان يدفعها إلى أسفل هو سبب هذا المنظر الذى رآه . أما لونها فقد بدا ساعة من الزمان أبيض ، وساعة أخرى أسود مبرقشاً كأنها تحمل معها ترابا ورماداً .

ورأى عمى ، وهو العالم بحق ، أن هذه الظاهرة جديرة بأن يرقبها عن كثب ، فأمر من فوره بأن يعد له قارب خفيف ، وسمح لى أن أرافقه إذا شئت ، فأجبته أنى أفضل العكوف على الدرس ، لأعِدَّ موضوعاً إنشائياً كلفنى هو بكتابته . و بينا هو خارج من البيت وصلته رسالة من ركتينا[1] زوجة باسس[2] ، وكانت قد أوجست خيفة من الخطر المحدق بها لأن بيتها يقوم أسفل بيتنا مباشرة ولم يكن أمامها سبيل للنجاة إلا بطريق البحر . ولذلك ألحت عليه أن يذهب إليها لينقذها من هذا الخطر الشديد ، فلم يرعمى بدا من أن يرجع عن قصده الأول . ولكن رباطة جأشه التى حفزته إلى الخروج لتحقيق غرضه العلمى لم تفارقه فى مقصده الجديد ، وأمر أن تقلع بعض السفن الكبيرة ، وركب هو واحدة منها لينقذ ركتينا ولينقذ كثيرين غيرها ممن كانوا معرضين للخطر مثلها ، لأن هذا الشاطئ الجميل كان مزدحما بالبيوت الصغيرة ذات الحدائق — وأسرع عمى إلى المكان الذى كان الناس يفرون منه ، ووجه السفينة مباشرة إلى نقطة الخطر . فعل ذلك وهو مشبع الجنان مطمئن القلب أطمئنانا استطاع به أن يملى ما شاهده من تغيُّر متوال فى صورة هذا المنظر الرهيب .

وفى ذلك الوقت أخذت كثافة الرماد البركانى تزداد وحرارته تشتد كلما قرب عمى من البركان ، ثم بدأ يتساقط على السفينة ، ونزلت بعد الرماد حجارة الخفاف وصخور جبلية صلبة مسودة ومحترقة ومحطمة بفعل النيران ؛ ثم انحسر ماء البحر فجأة ، وظهر الشاطئ وقد حفت به الصخور المنهارة من الجبال ، فأخذت على القوم ملاجئهم ، وبدأ عمى ينظر هل يستمع لنصيحة ربان السفينة الذى كان يلح عليه فى الرجوع ، ثم أجابه بقوله : « إنما يفوز باللذة الجسور ، سر بنا إلى پمپنيانس[3] » . وكان بمبنيانس وقتئذ فى استابية[4] ، وهى تبعد عنه

---

(١) Rectina (٢) Bassus

(٣) Pomponianus (٤) Stabiae

بنصف عرض الخليج ، لأن الشاطئ كما تعلم ينحنى فجأة فى ذلك المكان فيدخل البحر فيه . وكان بمبنيانس قد نقل متاعه لأن استابيه ، وإن لم تكن فى تلك الساعة معرضة للخطر العاجل ، كانت على مرأى منه ؛ وما من شك فى أن الخطر سيحيق بها متى اتسع نطاقه ؛ وكان هو يعتزم الفرار ساعة تسكن الريح المضادة له . على أن تلك الريح نفسها كانت صالحة لتسيير السفينة لتقل عمى إلى بمبنيانس . وما أن وصل إلى صديقه المرتاع حتى أخذ يعانقه ، ويسليه ، ويشجعه ، ويسكن روعه ، بما يظهره هو من عدم المبالاة بما يحيط به ؛ ثم طلب أن يذهب إلى الحمام ، ولما استحم جلس إلى مائدة الطعام ، وتعشى وهو مبتهج منشرح الصدر ، أو لعله كان يتظاهر بالبهجة والانشراح . (وليس هـذا فى رأيى بأقل دلالة على الشجاعة من ذاك) .

وكان بركان ويزوف فى ذلك الوقت متأججا فى عدة مواضع ، يقذف باللهب فينتشر فى الجو ، ثم يهبط نحو الأرض ويزيده ظلام الليل تلألؤا وضياء . وأراد عمى أن يسكن من روع صديقه ، فأخذ يقول إن بعض الذين غادروا دورهم قد تركوا فى فزعهم نيرانا متقدة ، وإن اللهب الذى يشاهدونه ليس إلا بيوتا تشتعل فيها النـار بعد أن هجرها أصحابها حين غادروا هذا الإقليم . ثم آوى عمى ليستريح . وما من شك فى أن هذه الراحة كانت نوما عميقا ، فقد كان هو كما تعلم بادنا ، ومن أجل هذا كان تنفسه غطيطا يسمعه الواقفون على خدمته بباب حجرته . وكانت الردهة الموصلة إلى حجرته قد امتلأت وقتئذ بخليط من حجر الخفاف والرماد ، حتى أصبح خروجه من هـذه الحجرة مستحيلا إذا لم يغادرها من فوره . ولمـا أوقظ من نومه خرج لتوه من الحجرة ، واجتمع بصديقه بمبنيانس وغيره من أصحابه ، ولم يكونوا قد ذاقوا للنوم طعما ، وأخذوا يتبادلون الرأى هل يبقون فى البيت أو يخرجون إلى العراء ، لأن البيت كان فى ذلك الوقت يترنح من أثر الصدمات الكثيرة العنيفة ، حتى خيل إليهم أن أساسه قد تقوض . أما فى العراء فكانت تتهددهم حجارة الخفاف المتساقطة ، وإن كانت حجارة خفيفة مسامية ؛ وكان هذا أخف الضررين . وقد وصل عمى إلى هذه النتيجة بالعقل والتفكير ، ووصل إليها غيره بموازنة المخاوف بعضها ببعض . فلما وصلوا إلى هذه النتيجة خرجوا من البيت ، وقد شدوا الوسائد بالفوط على رؤوسهم ، وهو كل ما فعلوه ليتقوا به وابل الحجارة المتساقطة حولهم .

وكان ضوء النهار قد سطع فى كل مكان إلا مكانهم هم ، فقد كان لا يزال فى ظلام حالك أشد من ظلام الليل البهيم ، تبدده فى بعض الأحيان مشاعل وأضواء مختلفة ، وظنوا أنه يحسن بهم أن يسيروا على الشاطئ نحو الماء ليروا هل يستطيعون أن ينزلوا إلى البحر وهم آمنون ؛ ولكنهم وجدوا أن الأمواج لا تزال تعلو كالجبال ، ولا تمكنهم من الإبحار . وهناك ألقى عمى بنفسه على شراع قديم ، وطلب الماء مرارا ، وشرب به و بعد لحظات قليلة فرقت ألسنة اللهب تتقدمها رائحة الكبريت القوية سائر الجماعة وأرغمتهم على الفرار . أما عمى فكل ما فعلوه به أن أيقظوه ، فرفع جسمه عن الأرض متكئا على عبدين من عبيده ، ولكنه سقط من فوره . وأكبر الظن أن بخارا قويا كتم أنفاسه وسد قصبته الهوائية ، وكانت ضيقة وضعيفة بطبيعتها ومصابة بالتهاب مزمن . ولما طلع النهار بعد ثلاثة أيام من اليوم الذى أبصر فيه العالم آخر مرة وُجد جسمُه كاملا سليما وعليه ملابسه كاملة كأنه لا يزال حيا ، ويظنه من يراه أنه نائم وليس بميت .

وفى هذه الأثناء كنت أنا ووالدتى لا نزال فى ميسينيوم[١] ، ولكن هذا لا صلة له بالتاريخ ، وأنت لم تطلب إلى أكثر من أن أصف موت عمى ، ولهذا فإنى أختم رسالتى .

وكل الذى أرجوه أن تسمح لى بأن أضيف إليها أنى كنت أمينا فيما قصصته عليك ، فلم أحدثك إلا بما رأيته بعينى ، أو سمعته وقت حدوثه حين لا يُنقل من الأخبار إلا الصحيح . ولك أن تختار من هذا الوصف ما يتفق وغرضك ، لأن ثمة فرقا كبيرا بين الرسالة والتاريخ ، و بين الكتابة إلى صديق والكتابة إلى الجمهور .

والسلام

. . .

ومما هو جدير بالذكر أن پلنى الأصغر حين دعاه عمه إلى أن يصاحبه فى رحلته العلمية فضل أن يبقى فى الدار ليدرس ، ونجا بذلك من الهلاك . وقد كتب فى رسالة قبل هذه إلى تستس أنه كان مغرما بصيد الخنازير البرية ، ثم أضاف إلى ذلك أنه إذا خرج الصيادون للصيد كان هو يجلس ليدون ملاحظاته ، وفى هذا وذاك ما يدل على أن پلنى

---

(١) Miseneum

كان يفضل الحياة الهادئة المستقرة . لـكنه فى الخمسين من عمره اضطر أن يغادر بيوته إلى خارج بلاده ، فقد عينه صديقه الإمبراطور تراچان[١] حاكما على ولاية بثينيا[٢] ، ولـكن ما بذله من الجهد فى عمله هذا أثر فى صحته ، فتوفى بعد أن خلف وراءه طائفة كبيرة جدا من الرسائل المتبادلة بينه و بين صديقه الإمبراطور ، يحتوى بعضهـا وصفا شائقا للعلاقة التى نشأت بينه و بين المسيحيين الذين كان عددهم وقتئذ آخذاً فى الازدياد .

(١) Trajan
(٢) Bithynia

لوسيوس ڤيروس يحذر مركس أورليوس

من الخيانة فيرد عليه مركس ردا فلسفيا

أشرك مركس أورليوس معه فى حكم الدولة الرومانية لوسيوس ڤيروس[1] أخاه من أبيه . وقد قيل عن مركس « إنه كان شيخا كبيراً يعود إلى بيته بعد أن يفرغ من عمله اليومى ليشغل نفسه فى الكتابة التافهة » . وأقام مركس فى إيطاليا ليصرف فيها شئون الدولة ، أما ڤيروس فقد ذهب إلى الشرق ليحارب الخارجين عليها . وكان لوسيوس ضعيف القلب خوار العزيمة ، فترك أمر القتال إلى أڤيديس كاسيس[2] كبير قواده ، يتعرض فيه للأخطار وينتصر على الأعداء . ولما عاد لوسيس هو وجنوده إلى إيطاليا فى عام ١٦٦ م استقبل فيها استقبال الفاتحين ، فأثار ذلك غضب أڤيديس كاسيس ، وأخذ من ذلك الوقت يأتمر بالآخرين . وعرف لوسيوس بما كان يدبره ، فبعث بالرسالة التالية إلى مركس يحذره .

— ٩ —

« . . . . انه . . . يسميك عجوزاً تتفلسف . . . . »

[١٦٦ م]

يطمع أڤيديس كاسيس فى عرش الإمبراطورية ، أو أن هذا على الأقل هو الذى يبدو لى من أمره ؛ ولقد أظهر ذلك من قبل فى أيام جدى وأيام أبيك ، ولذلك أحب ألا تغفل عينك عنه . إنه مستاء من كل شىء نعمله ، وهو يتأهب للعمل ، ويسخر من رسائلنا ، ويسميك عجوزاً تتفلسف ، ويسمينى أنا متلافا أحمق . ورجائى إليك أن تفكر فيما يجب أن نفعل . إنى لا أكره الرجل نفسه ، ولكنى أعتقد أنك إذا استبقيت فى معسكرك رجلا يحب الجند أن يروه ، ويستمعوا إليه ، فحاذر أن تفسد عليك أمرك ، وتضر بمصلحتك وملصحة أبنائك :

• • •

---

(١) Lucius Verus

(٢) Avidius Cassius

و إليك رد الفيلسوف الرواقى الهادئ على هذه الرسالة التى لم يعبأ قط بها .

— ١٠ —

« . . . أبنائى . . . فليهلكوا . . . . »

[١٦٦ م]

قرأت رسالتك فوجدت فيها من القلق ما لايليق بالأباطرة ، وما لا يتفق مع المألوف من عادات أيامنا الحاضرة . فإذا شاءت الأقدار أن يجلس كاسيس على عرش الإمبراطورية فليس فى مقدورنا نحن أن نقتله ولو شئنا . ألست تذكر قول جدك الأكبر « ليس فى وسع إنسان أن يقتل خليفته » . أما إذا لم يكن مقدرا له أن يتربع على عرشها ، فسيقع فى شرك الأقدار من غير أن نرتكب نحن عملا من أعمال القسوة والعنف . نحن لا نستطيع أن نتهمه بالخيانة ، فإن أحدا لم يوجه إليه هذه التهمة ، والجند يحبونه كما تقرُّ أنت نفسك ، وحتى لو اتهمناه نحن بها فإن من شأن هذه التهمة أن تجعل الناس يظنون أن أصحابها ، حتى لو ثبتت عليهم ، كانوا ضحية ذوى السلطان .

فدعه إذن يسير فى طريقه ، ولا تنس أنه قائد محنك ، شجاع ، دقيق فى عمله ، لا تستطيع الدولة الاستغناء عنه . أما قولك إن من واجبى أن أقتله لأرعى بذلك مصلحة أولادى ، فذلك مالا يمكن أن أفعله . فإذا كان أفيديس أجدر بالحب من أبنائى ، و إذا كان من مصلحة الدولة أن يعيش هو وألا يعيش هؤلاء الأبناء ، فليهلكوا .

· · ·

ومات لوسيوس فيروس فى عام ١٦٩ م . تاركا مركس أورليوس وحده على عرش الدولة الرومانية . وثار عليه أفيديس كاسيس كما توقع لوسيوس ، ولكنه قتل بيد جنده بعد بضعة شهور من ثورته . ومركس أورليوس هو صاحب كتاب « التأملات » الذى يصفه رينان[1] الفيلسوف الفرنسى الذائع الصيت بقوله إنه « أكثر الكتب كلها إنسانية » .

ويدل تصرفه فى ثورة أفيديس على نبله . فقد أراد مجلس الشيوخ أن يقتل أتباعه

(١) Renan.

كلهم ، وأن يُقتل أيضا أبناؤه وزوجته ، ولـكن الإمبراطور عارض فى هذا أشد المعارضة ودافع عنهم دفاعا مجيداً . ومن أقواله فى هذا الدفاع « دعوهم حيثما وجدوا وفى جميع البلدان يتحدثون بهذا المثل الذى تضربونه وأضرب به أنا لهم فى فهمنا للحق » .

وكانت نتيجة هذا الدفاع أن نقض مجلس الشيوخ حكمه على أسرة أقيديس وأتباعه ، وأثنى على فلسفة مركُس أورليوس وصبره وعلمه ونبله وطيبة قلبه ، وحياه بقوله : « إنك من الآلهة ولذلك فإنك تهزم أعداءك وتظفر بشانئيك » .

أورلين إمبراطور الرومان يأمر زنوبيا ملكة تدمر

بأن تستسلم له وهى تتحداه

بدأ لوسيس دميتيس أورليانس[١] ، « محيي الإمبراطورية الرومانية » فى القرن الثالث بعد الميلاد ، حياته الحربية جنديا عاديا . فلما بلغ أعلى المراتب فى الجيش أختير إمبراطورا فى عام ٢٧٠ ميلادية . وامتدت فتوحه شرقا وغربا حتى التقى بزنوبيا ملكة تدمر ، وكانت تسيطر على بلاد الشام وآسية الصغرى ومصر . وقد كتب إليها خطابه الآتى يطلب إليها الخضوع له .

— ١١ —

« إنى آمرك أن تسلمى المدينة . . . »

لست أطلب إليك الآن إلا ما كان يجب عليك أن تفعليه من نفسك قبل هذا الوقت بزمن طويل . إنى آمرك أن تسلمى المدينة ، ولك علىّ فى نظير ذلك أن أبقى على حياتك وحياة من معك . لكننى لا أستطيع أن أعدك بحريتك . فعليك أنت يا زنوبيا وأبنائك أن تقنعوا بالرحيل إلى المكان الذى أرتضيه لكم ويرتضيه مجلس رومة الموقر . أما ما لديك من مال وحلى وذهب وفضة فستذهب كلها إلى الخزانة الرومانية ، وسيظل رعاياك وحدهم أحراراً ، وسيضمن لهم ما يتمتعون به الآن من حقوق وامتيازات .

. . .

ولكن الملكة لم ترهب سطوته ، وأرسلت إليه تتحداه . وكانت زنوبيا قد أعانت زوجها قبل وفاته فى حربه المظفرة مع الفرس ، ثم ورثت ملكه الواسع ؛ وكانت لها السيادة على جميع بلاد الشرق الأدنى ، وكانت لها دراية بكثير من العلوم والفنون ، تلقتهما عن لنجينس[٢] العظيم . وكانت تجيد اللغات اللاتينية واليونانية والقبطية والسريانية .

وإلى القارئ ما أجابت به أورلين :

---

(١) Lncius Dom itius Aurilianus　　(٢) Longinus

— ١٢ —

« . . ما من شك فى أنك ستبدل يومئذ لهجتك »

لم يجرؤ أحد من قبلك على أن يأمرنى بما أمرتنى به . إن الشجاعة وحدها يا أورلين هى التى تبلغك مأربك فى ميدان القتال . أتريد أن أسلم لك تدمر عاصمة ملكى ؟ كأنك لا تعرف أن ملكة من أسلافى هى كليوبطرة قد آثرت أن تموت ملكة ، على أن تعيش أسيرة ، مهما يبلغ شأنها ، فى يد سلفك أغسطس .

إننا سنلقى العون من الفرس ، وسينجدنا العرب ، وقد أعلن الأرمن أنهم فى صفنا ؛ فإذا كانت جيوشك قد بَدَّدت شملها فى الشام طائفة من قطاع الطريق ، ففكر فيما سيصيبك يوم تصلنا هذه القوى الهائلة .

وما من شك فى أنك ستبدل يومئذ لهجتك ، فلا تشمخ علىّ بأنفك وتأمرنى أن أسلم إليك تراث الآباء والأجداد ، كأنك وحدك المسيطر على هذا الكون .

• • •

وهزمت جيوش أورلين زنوبيا فى واقعة أنطاكية ، وتقدمت إلى تدمر الجميلة القديمة وحاصرتها ودمرتها ، وقبض على زنوبيا وهى فارة من وجه أعدائها مع أطفالها ، ولكنها أنقذت حياتها بأن ألقت تهمة إشعال نار الحرب على لنجينس معلمها وأمين سرها . فأمر به الإمبراطور أن يقتل ، وأخذت زنوبيا أسيرة لتزين موكب أورلين وهو عائد منتصر إلى رومة . وسمح لها الإمبراطور أن تعيش فيها معززة ، وتزوجت بناتها بأشراف الرومان ، وعين ابنها حاكما على ولاية صغيرة فى آسية الصغرى .

أما أورلين فقد اغتيل بالقرب من بوزنطية عام ٢٧٥ م فى حرب بين الفرس والرومان .

سان چيروم يشهد بعينه اضمحلال رومة وسقوطها

فى الرسالة التالية وصف شاهد عيان لما حل برومة من خراب ودمار ، وما أصاب أكبر دولة فى العالم من انحلال . وقد ولد سان چيروم أو يوزيبيس سفرونيس هيرنمس[1] فى عام ٣٤٠ م ومات فى عام ٤٢٠ .

أما الرسالة التى أثبتناها فيما بعد فكانت رسالة خاصة بعث بها إلى صديق . وتقوم مكانة چيروم فى التاريخ على ما جاء فى هذه الرسالة من وصف ممتع لحادثة من أعظم الحوادث فى تاريخ العالم كله ، وعلى ترجمة اللاتينية للكتاب المقدس التى قيل عنها إنها « من أعظم ما خَلَّف للكنيسة الغربية من تراث ذهنى مجيد » . ويقول إرزمس[2] المصلح الدينى الشهير إن سان چيروم شيشرون[3] المسيحية . وقد ظل كتاب العهد القديم الذى كتب بالعبرية حتى القرن التاسع عشر سرا مخفيا عن جميع الناس عدا العلماء و بعض القساوسة . وكانت اللاتينية وقتئذ لغة جمهور الشعب فنقل چيروم التوراة إلى هذه اللغة وجعلها بذلك فى متناول عامة الناس .

وكان آباء چيروم من سكان دلماشيا[4] المسيحيين ، فأرسلوا ولدهم إلى رومة ليتلقى العلم فيها ، ولكنه تأثر بروائع الأدب الرومانى الوثنية . غير أنه عاد بعد ذلك إلى دين آبائه وندم أشد الندم على ما قضى من حياته فى الوثنية . ولما مات صديقه إنوسنتيس[5] أثناء رحلة له فى بلاد الشرق ، وشفى هو من مرضه الخطر الذى أصابه وقتئذ ، أنذر أن يكرس « حياته كلها لتعليم الناس وللعمل بقلمه فى خدمة الله» . وقد وفى بهذا النذر بترجمته اللاتينية للتوراة ، وهى من الأعمال التى غيرت مجرى التاريخ . وانقض أريك[6] على رومة من الشمال ونهبها فى عام ٤١٠ ميلادية . وكان يوزيبيس سفرونيس هيرنمس وقتئذ فى سن السبعين ، وما من شك فى أنه خيل إليه أن العالم أوشك على نهايته . وهل أدل على ذلك من تخريب المدينة

---

(١) Saiut Gerome or Eusebius Sophronius Hieronymus

(٢) Erasmus

(٣) Cicero

(٤) Dalmatia

(٥) Innocentius

(٦) Alaric

الخالدة ؟ وهذه الحادثة هى التى وصفها أعظم الآباء اللاتين فى رسالته التالية :

— ١٣ —

« . . . لكن ذئاب الشمال انطلقت من عقالها »

لقد نزلت بنا فى هذه الأيام مصائب تقشعر من هولها الأبدان . فلقد ظلت دماء الرومان عشرين عاما كاملة تراق كل يوم فى طول البلاد وعرضها من القسطنطينية إلى جبال الألب ، واجتاح البلاد القوط والألانيون والهون والوندال(١) .

وكم من سيدة شريفة طاهرة عبث بها هؤلاء الوحوش الذين خربوا الكنائس ، وجعلوا بيوت الله مربطا للخيول ، وانتهكوا مقابر القديسين ونبشوا عظامهم .

وما من شك فى أن الدولة الرومانية قد آذنت بالزوال ، ولكننا نحن ما زلنا نرفع رؤوسنا عالية غير منكسة . ولقد بدا فى وقت من الأوقات أن الشرق بمنجاة من شرهم ، ولكن ذئاب الشمال انطلقت من عقالها فى السنة الماضية ، وأقبلت من حصونها النائية ، واجتاحت أقاليم واسعة ، فحاصرت انطاكية وغيرها من المدائن التى كانت فى يوم من الأيام حواضر دول عظيمة .

ولو أننى أوتيت مائة فم ومائة لسان ، وصوتا كصوت الحديد ، لما أحطت بكل جرائمهم ، أو ذكرت ما يستحقون من عقاب .

وهل يصدق الناس فيما بعد أن رومة تقاتل الآن داخل حدود بلادها ، وأنها لا تحارب لتظفر بالمجد والسلطان ، بل تكافح فى سبيل الحياة . « وإذا حل الضعف برومة فأين تكون القوة ؟ » كما يقول الشاعر لوكان(٢) .

وقد ذاعت الآن إشاعة رهيبة : إنهم يقولون إن الأعداء يحاصرون رومة ، وإن أبناءها قد اضطروا أن يشتروا حياتهم بالذهب . إن الألفاظ تقف فى حنجرتى ، والعبرات تخنقنى . كيف لا وهذه المدينة التى سادت العالم قد أصبحت الآن أسيرة فى يد الأعداء ، يجتاحها القحط ، ويموت أهلها من الجوع .

(١) Vandal, Huns, Alans, Goths وكلهم من القبائل المتبربرة التى هاجمت الإمبراطورية الرومانية وقتئذ .

(٢) Lucan

لقد حل بالعالم الدمار ، وأخذ كل شيء يزول إلا خطايانا فهي دائمة الانتشار على الدوام ، واندلعت ألسنة اللهب في المدينة العظيمة ، والتهمتها النيران ، وفر أهلها إلى كل مكان .

ولعل أحدا لا يصدق هذه الأقوال . وهل يصدق الناس أن رومة التي عمرتها على مدى القرون فتوحها العظيمة في مشارق الأرض ومغاربها قد هوت إلى الحضيض ، وأن باعثة الحياة في الأمم جميعها قد أصبحت قبراً لها ؟ وهل في الناس من يتصور أن فخر المدائن التي استنامت إلى أمنها ومنعتها وثروتها الطائلة قد ذلت حتى شرد أبناؤها ، وأخذوا يطوفون البلاد يسألون الناس القوت ؟ ومنذا الذي يستطيع أن يساعدهم ؟ إن كل ما في وسعنا هو أن نظهر العطف عليهم ، ونمزج دموعنا بدموعهم .

• • •

وفي الوقت الذي وصلت فيه هذه الرسالة إلى أصدقاء چيروم كانت جحافل أخرى من البرابرة تستعد لتدمير ما بقي من عاصمة الدولة الرومانية . وكان هذا الهجوم الثاني أشد قسوة وهولاً من الهجوم الأول ، فقد دك ما شيده القياصرة العظام . ولم تستعد المدينة شيئا من عظمتها القديمة إلا بعد سنين طوال من ذلك الوقت ، في عهد البابوات العظام . وقد كتب چيروم نفسه في رسالة أخرى « أعيدوا هذه القصة على مسامع الخلف حتى يعلموا أن الفضيلة لا يمكن أن تدول دولتها حتى بين قرقعة السيوف وفي مجاهل الفيافي والقفار والحيوانات الكاسرة ، وأن من يُسلم أمره إلى الله قد يقتل ، ولكنه لا يهزم » .

سيدونيس[1] يرسم صورة منافق رومانى

فى رسالة إلى ولده أپولينارس[2]

لم يكن من غير المألوف فى القرن الخامس الميلادى أن يعتزل السياسى الفاشل عمله السياسى ويأوى إلى الدير ، أو يقضى وقته فى ضرب من ضروب النشاط الدينى . وهذا ما كان من أمر أپولينارس سيدونيس . فلم يكن بين رجال السياسة فى وقته من هو أكثر منه نشاطا ؛ وكان متصفا بكل الصفات التى تؤهله وقتئذ للحياة السياسية الرفيعة ؛ فقد كان من سلالة أسرة نبيلة ، وتعلم تعليما راقيا ، وكان ذا شخصية قوية جذابة ؛ وكان ذا صلة بأكابر القوم فى ذلك الوقت ؛ وقد وفق فى اختيار زوجته أعظم توفيق .

وكان العصر الذى يعيش فيه سيدونيس عصر قلق واضطراب ، فقد كانت ولايات الدولة الرومانية ، ومنها موطنه غالة (فرنسا) ، معرضة لهجمات البرابرة ، وقد ارتقى أحدهم ثيودريك عرش تلك البلاد ، بعد أن قتل أخاه . وكان سيدونيس كاتبا وخطيبا يطمع فى منصب القنصلية ، وهو من أرفع المناصب فى الدولة الرومانية . وقد كتب رسالته التالية فى عام ٤٦٩ م حين بلغ ذروة مجده وقبل أن يعتزل الحياة السياسية .

— ١٤ —

« ليس قلبه بأقل قذارة من لسانه »

[سنة ٤٦٩ م]

إنى أحب فيك طهارة قلبك التى أبعدتك عن مخالطة السفهاء ؛ وتلك خلة أسرُّ بهـا وأقدرها ، ويزيد من سرورى بها وتقديرى إياها أن من تبتعد عنهم هم أولئك الذين برعوا فى التقاط ما يشاع عن الناس من أخبار السوء وإذاعتها ، فلا يسلم من لسانهم شىء مهما بلغ من الرفعة والتقديس . أولئك قوم أنذال يظنون أنهم يمزحون حين يصدعون الناس ببذىء ألفاظهم ، يقذفون بها فى المجالس بلا حياء . واستمع الآن إلىّ حين أبلغك أن حامل لواء هؤلاء الأوغاد هو ثرثار هذا البلد ولسانه الناطق . تصور لنفسك صورة إنسان هو أكثر

---

(1) Sidonius

(2) Apollinares

الناس كلهم تخرصا واختلاقاً ، وأكثرهم افتراء على الناس ، واتهاماً لهم بالباطل ، وأبرعهم فى النميمة ، إذا تحدث فلا يقف حديثه عند حد ، ولا يصل به إلى غايته ، ما جن يعوزه جمال المرح ، صخاب وقح ، وجبان رعديد ، فضولى يتقصى أحوال الناس فى غير فراسة ، يتصنع الأدب والرقة فى سماجة ، فينكشف عن فظ جلف ، همُّه حاضره ، لا ينفك عن ذم الماضى والاستهزاء بالمستقبل . إذا كانت له حاجة بزَّ المتسولين فى الإلحاف واللجاجة ، فإن لم ينلها كان أكثر الناس تحقيرا للمسئول وذما له ؛ و إن أعْطيته غضب وسخط ، ولم يترك وسيلة يستزيد بها من العطاء إلا لجأ إليها . إذا طُلب إليه أن يرد دينا أنَّ وناح وندب حظه ، و إذا رده لم ينقطع له أنين ولا نواح ، و إذا استدانه أحد كذب وادعى الفقر والإملاق ، و إذا أقرض تباهى بعمله وأشاع السر بين الناس ، و إذا تأخر المدين عن الوفاء بدينه استطال فى عرضه وطاخه بكل قبيح ، فإذا وفى به أنكر الوفاء . أبغض شىء إليه الصيام ، فهو شره نهم ، لا يمتدح من يحيا حياة هنيئة راضية إلا إذا استضافه فى منزله . وهو البخل المجَسَّم ، خير ما تهضمه معدته من الطعام طعام غيره ، لا يأكل فى منزله إلا إذا استطاع أن يختلس اللحم و يزدرده وسط عاصفة من اللطمات . على أننا لا نستطيع أن ننكر عليه فضيلة القناعة ، فهو يمسك عن الأكل إذا لم يستضفه مضيف . وهو فى كثير من الأحيان يتملكه طيش الطفيليين ، فيرفض دعوة الداعين . فإذا رأى الناس يبتعدون عنه و ينفرون منه حاك شبا كه حولهم ، وسعى إلى موائدهم ، فإذا دعوه لم يسلموا من لسانه ، و إذا أهملوه لم يسلموا من تيهه وصلفه . لا تصيبه لطمة ضالة غير متوقعة ، و إذا جاءه الطعام متأخرا انقض عليه انقضاض الوحش ، و إذا شبع قبل الأوان لم ينقطع له عويل ، و إذا لم يُرْوَ ظمؤه أرغى وأزبد ، و إذا شرب ثمل .

إذا مازح سفه ، و إذا مازحه غيره غضب ، جماع صفاته أنه كأقذار المجارى يزيد قذارة كلما حركته . حياته لا تبعث السرور إلا فى نفوس القلة ، ولا تبعث الحب فى نفس أحد ، وتبعث الازدراء والاستهزاء فى نفوس الناس جميعا . وهو من أولئك الذين تتقطع على جلودهم السياط وتتكسر على أجسامهم العصى ، وممن لا تفوق لهفتهم على الخمر إلا لهفتهم على الاغتياب . زفيره تعافه النفس ، وأنفاسه تفوح منها رائحة الخمر ، وألفاظه تنفث السم ،

لا يدرى الإنسان أى شىء يكرهه من أجله ، أيكرهه لنتنه أم لسكره — أم لنذالته ؟ ولرب قائل يقول : « إن الوجه المليح قد يستر الطبع الذميم ، وقد يكون لهذا الإنسان من جمال منظره ما يعوضه عن سخف عقله ، فقد يكون الرجل جميل المنظر أو حسن الذوق فيكون لذلك أحسن الأثر فى نفس من يلقونه » .

لكن الحقيقة أن جسمه أقذر وأقبح من جيفة مشوهة ، تدحرجت وهى نصف محترقة من كومة الوقود التى يحرق عليها الموتى حين هبطت ؛ يستنكف عبد دافن الموتى أن يردها إلى مكانها لقبح منظرها . قائم[1] العينين لا تنقطعان عن الهملان ، أقنف الأذنين يحيط بصحينيهما جلد متقرح ، يكسوه صملاخ متحجر ، وتسد الصحينين أورام لا ينقطع لها نحيح[2] . أفطس الأنف ، ضخم المنخرين ، يدرك بأنفه المشموم لساعته ، ولكنه كالكهف يرتاع منه مبصره . يطل عليك بوجه أحم الشفتين[3] تظنه لسعته فم حيوان لا إنسان ، له أسنان ذهرة[4] ، ولثة يسيل منها الصديد ، تنبعث من أسنانه القوادح[5] الجوفاء التى أنقدتها الأرضة روائح نتنة ، يزيدها خبثا تجشؤ معدته من وليمة الأمس ، وانتفاخها من إفراطه فى الطعام . وهو يزهو بجبهة بشعة مغضنة ، تمدد عليها حاجباه ، ولحية لم تبيض ، وإن كان قد بلغ أرذل العمر ، لأن مرضا خبيثا أصابه يحفظ عليها سوادها . وله وجه أصفر لا تفارقه الكآبة . وإنى أشفق عليك من وصف بقية جسمه السمين المتهدّل المصاب بالنقرس ، وجمجمته المجعدة التى يعلوها من القروح بقدر ما ينبت عليها من الشعر ، وقفاه الذى يخيل إليك لشدة قصره أن رأسه إذا ألقاه إلى خلفه غاص بين منكبيه .

وأشفق عليك من وصف وجهه المكفهر ، وذراعيه المسترخيتين ، ويديه المتصلبتين من النقرس تغطيهما ضمادتان زيتيتان كأنهما قفازان . أشفق عليك من هذا كله ، وأشفق عليك أيضا من وصف إبطيه اللذين تنبعث منهما رائحة خبيثة كرائحة المعز تفسد الهواء على كل من يقترب منه ، وتنشر الوباء من حوله ... أما ثدياه اللذان ذهب ما تحتهما من شحم ، واللذان

---

(١) العين القائمة التى ذهب بصرها وحدقتها سليمة .
(٢) نحت القرحة سال منها الدم والقيح .
(٣) أسودها .
(٤) سود .
(٥) المتآكلة

تعاف العين بروزها فى الرجال ، فتراهما متهدلين كثديي المرأة . وله بطن ذو طيات معلقة لا تقل قذارة عما تغطيه من عورته ... وما حاجتى إلى وصف ظهره وعموده الفقرى . نعم إن أضلاعه تخرج من ظهره ، وتتقوس فتغطى صدره ، ولكن عظامها كلها غارقة فى طيات بطنه . أما إليتاه فقد بلغتا من الضخامة مبلغا يصغر إلى جانبه بطنه على ضخامته . ولست أذكر شيئا عن فخذيه الضامرتين المنحنيتين ، وركبتيه المتورمتين وساقيه العصويتين ، وكعبيه الضعيفين وقدميه الكرشاوين الكزماوين[1] .

وهو كما صورته لك مشوه الخلق بشع المنظر ، يستنزف عجيجه وضجيجه نصف ما فى جسمه من حياة ودم . ليس فى وسعه أن يجلس ساعة أو يسير خطوتين ، مهما أعانوه على الجلوس أو المشى . أما لسانه فأخبث من سائر جوارحه ، لا ينفك يستخدمه فى أحط الشهوات ، وهو أشد ما يكون خطرا على من يحسن إليه إذا أخفى عنه شيئا ، ينظم به عقود المدح للمحظوظين ويغدر به المنكوبين .

وإذا لاحت له فرصة للتجسس على صديق حطم من فوره كل الحواجز وفض كل أختام الرسائل ، يقوض بأساليب غدره الخفية ما عجزت عنه الكباش والمجانيق . أما الخطة التى يتبعها هذا الوغد فى صداقته فهى أن يلازم الصديق فى السراء ويفر منه فى الضراء .

وكلما ابتعدتَ عن معرفة أمثال هذا الإنسان ، سرنى ذلك منك ، وبخاصة إذا كان ممن لا يستحون فيتحدثون كسفلة الممثلين ، ويطلقون لألسنتهم العنان . ذلك أن المتهتك الذى يباهى بتهتكه واستهتاره ، والذى يطلق لسانه بالأقذار التى تأباها كل الآداب والشرائع ، ليس قلبه بأقل قذارة من لسانه . فقد توجد الكبد الخبيثة مع اللسان الجاد ، أما اللسان القذر والحياة الفاضلة فقلما يجتمعان والسلام .

***

وقبل انحلال الدولة الرومانية الغربية بنحو ستة أعوام أو سبعة خرج سيدونيس من رومة ولم يعد إليها أبدا . وما من شك فى أنه رأى الأخطار تحيق بها فتخلى عن مكانه

(١) الغليظتين القصيرتى الأصابع .

فيها على كره منه ، وعاش فى أول الأمر كما كان يعيش من قبل فى مزارعه الواسعة . ثم تبدلت حالته فأصبح أسقفا للمدينة الغالية القديمة المعروفة فى هذه الأيام باسم كليرمنت[١] ، وهى التى شهدت بعد ذلك البابا إربان الثانى[٢] يدعو للحرب الصليبية الأولى . وكان فى وسع سيدونيس أن يعيش فى هذه البلدة هادئا لولا أنه اصطدم بعد ذلك بالأمير القوطى الذى خلف ثيودريك . فانتزع سيدونيس من أبرشينه وزج به فى السجن فترة من الزمان ؛ وكان سلوك سيدونيس فى محنته مشرفا له يكاد يرفعه إلى مقام الأبطال أو القديسين . ثم سُمح له أخيرا بالعودة إلى منصبه الدينى .

(١) Cleremont

(٢) Urban II

هلواز وأبلار يخلدان قصة حبهما فى رسائلهما

كان بيتر أبلار(١) من أبناء إحدى الأسر الشريفة الموسرة فى فرنسا فى العصور الوسطى . ولما بلغ السابعة والثلاثين من عمره فى عام ١١١٦ م كان قد حصل من العلم ما لم يحصله غيره من أبناء الأشراف ، فكان أستاذاً للمنطق فى جامعة باريس ، وكان من كبار رجال الدين فى كنيسة نتردام(٢) ، وأقبل عليه الطلاب من جميع أنحاء أوربا ليستمعوا إلى محاضراته الفلسفية العميقة .

وجاءت هلواز وهى فتاة فى التاسعة عشرة من عمرها من إحدى مدارس الأديرة إلى بيت عمها فلبرت(٣) لتستمع إلى محاضراته الشيقة فى باريس ، وكانت كلها وقتئذ تنظم عقود المدح لأبلار . وأعجب الفيلسوف بجمالها وذكائها فعمل على أن يكون مدرس الفلسفة لها ؛ وكان لابد أن تنشأ بين الاثنين صلات الحب وتقوى . ويصف أبلار فى خطاب لصديق له يدعى فلنتس(٤) — ويعرف هذا الخطاب باسم تاريخ المصائب — ما يشعر به نحو هلواز من وجد وهيام بقوله :

« لقد حاولت عبثا أن أتجنبه (الحب) . وأنا فيلسوف ولكن هذا الحب العارم استبد بعقلى فغلب على حكمتى ، وكانت سهامه أقوى من منطقى واستدلالى ، فشد وثاقى بقيوده الحلوة وسار بى حيث شاء . . . أما هى فقد أوتيت من الذكاء والجمال مايلين أقسى القلوب ، ولم يكن علمها أقل من ذكائها وفطنتها . . . ، رأيتها فأحببتها وعولت على أن أجعلها تحبنى . . . ، ولم أفكر فى شىء سواها ، وما من شىء رأيته إلا رسم صورتها فى مخيلتى . . . ، وكنت منذ البداية عظيم الأمل فى كسب عطفها ورضاها ، فقد ذاعت شهرتى فى طول البلاد وعرضها — وما من سيدة فاضلة تضن بحبها على رجل بزّ علماء جيله ، وكنت فى مقتبل الشباب . . . جميل المنظر أنيق الملبس لا كغيرى من العلماء . والملبس الحسن كما تعلم عظيم الأثر فى قلوب النساء . . . ، ورأيت هلواز وتحدثت إليها . . . ثم ضمنا بيت واحد وحب

(١) Heloise, Peter Abelard
(٢) Notre-Dame
(٣) Fulbert
(٤) Philintus

واحد ورغبة واحدة . وكم من لحظة حلوة قضيناها معا » .

ولـكن هذا الحب كما يقول أبلار بعدئذ لم يبق سراً مكتوما . فقد تحول اهتمامه من درسه إلى حبه ، ولم يكن يستطيع أن يركز عقله إلا فى الشعر ينظمه فى مدح محبوبته ، وما لبثت أغانيه أن شاعت بين المحبين ، وعرف الناس كلهم ، عدا فلبرت ، ما كان بين أبلار وهلواز . على أن جهل فلبرت نفسه لم يدم طويلا ، فقد عرف ما نشأ بين هلواز وأبلار من صلات ، فغضب لذلك وثار ، وأخرج أبلار من بيته .

وكان أبلار كما يقول هو عن نفسه لا يستطيع أن يعيش من غير أن يرى هلواز ، فظلا يتقابلان خفية ثم فر بها إلى برتنى[1] ، وأخذ يلح عليها أن تتزوج به ، ولـكنها رفضت على الدوام أن تخطو خطوة تقضى على منصبه فى الـكنيسة ، واستعانت على ذلك بكل ما كان لها من مواهب ؛ وكان مما قالته له : « أليس الحب أقوى على ربط قلبينا من الزواج ؟ » ولـكنه استطاع فى آخر الأمر أن يتغلب عليها ، فتزوجا وعادا بعد الزواج معا إلى باريس . وسمع فلبرت خبر عودتهما فانتقم من أبلار شر انتقام ، إذ أغرى به جماعة من السفلة الأشرار هجموا عليه فى بيته ليلا ، وبتروا بعض أعضائه . وفر أبلار بعد ذلك من باريس وأشار على هلواز بأن تدخل الدير فدخلته ، ثم صارت فيما بعد كبيرة راهباته . أما هو فقد ظل أعداؤه يطاردونه فى الأديرة التى ساقته الأقدار إليها ، وثارت نفسه لما شاهده فيها من إثم الرهبان وفجورهم ، فأخذ يتنقل من دير إلى دير يحاول عبثا أن يجد فى واحد منها ما ينشده من راحة وأمان ؛ ولـكنه مع ذلك لم يتغلب « على تلك العاطفة التى سببت لى كل هذا الشقاء ، فأنا فى ملجأى أبكى وأنتحب ، ويذوب قلبى وجدا ، وأردد اسم هلواز ، محبوبتى ويقع صوتى على أذنى برداً وسلاما » .

ولم يكن له فى هذا العذاب من سلوى إلا الرسائل التى كانا يتبادلانها .

والخطابان اللذان ترجمناهما هنا من خير ما كتبا ، فهما يصوران مأساة من أعظم المآسى فى جميع عصور التاريخ كانت معينا لا ينضب استمد منه الشعراء والـكتاب كثيراً من المآسى والقصائد .

---

(١) Brittany

— ١٦ —

«لقد لبست المسوح ولكني انظر أي اضطراب ألقيت بي فيه»

[من هلواز إلى أبلار]

هذا خطاب من هلواز خادمة أبلار وابنته وزوجته وأخته ، إلى سيدها وأبيها وزوجها وأخيها ، ينطوى على خضوعها و إجلالها وحبها .

لقد وقع فى يدى صدفة من بضعة أيام خطاب تعزية إلى صديق . ورأيت خطك فعرفته ، وحملنى حبى لليد التى سطرته على أن أفضه ، و بررت لنفسى هذا العمل الذى أقدمت عليه بأن زعمت لنفسى أن من حقى أن أتمتع قبل الناس جميعاً بكل ما يأتى منك . ولست أتردد مطلقاً فى أن أخرق كل قاعدة من قواعد الأدب وحسن التربية ، إذا كان فيها ما يعيننى على معرفة أخبار أبلار . على أننى قد لاقيت الأمرين من جراء تشوُّفِى هذا . فما كان أشد عذابى ودهشتى حين وجدت أن ما يحويه الخطاب إن هو إلا قصة طويلة محزنة تصف عذابى وعذابك . وقرأت فيه اسمى مائة مرة ، ولم أقرأه مرة واحدة إلا تملكنى الخوف والجزع ، فقد كان لا يذكر إلا ومعه فاجعة مروعة . ولم يكن اسمك فيه ليقل شقاء عن اسمى .

وخفق قلبى لهذه الذكريات المحزنة العزيزة ، فاستكثرت عليك أن تواسى صديقا فى متاعب قليلة ألمت به بهذه الطريقة الغريبة ، فتصور له من تصاريف الأيام ما أمر عيشنا وقبض رجاءنا ، وما أكثر الذكريات التى مرت بخاطرى وقتئذ !

لقد عادت إلى ذاكرتى كل أيامنا الماضية ، ورأيت نفسى من جديد مثقلة بأعباء الحزن التى غشيتنى فى أول عهدنا بالشقاء . ولقد كان طول الزمن خليقا بأن يضمد جراحى ، ولكنى ما كدت أرى وصفها الذى خططته بيمينك حتى نكأت الجروح وتفتحت وسالت منها الدماء .

ولقد أغرقت دموعى التى لم أستطع حبسها نصف رسالتك ، وليتها محت الرسالة كلها ، وليتنى أعدتها إليك على هذه الصورة ولو فعلت لتمتعت بها طول الوقت الذى كنت أغرقها فيه بدمعى ، ولكنهم سرعان ما انتزعوها منى .

ولست أخفى عنك أننى كنت قبل أن أقرأ رسالتك أنعم بالاً منى بعد قراءتها . وما من شك فى أن العينين هما مصدر شقاء المحبين وعذابهم ، إذ ما كدت أقرأ الرسالة حتى شعرت بأن كل شقائى قد تجدد ، وأخذت ألوم نفسى على أنى طويت آلامى فى قلبى هذا الزمن الطويل ، على حين أن نار الحقد لا تزال تضطرم فى قلوب أعدائنا ، كأن الزمان الذى يذهب بالأحقاد لا يزيد هذه النار إلا ضراما . وإذ كان لابد أن تظل فضائلك مثار الحقد والاضطهاد حتى تتوارى فى قبرك — ولعلهم لن يرضيهم بعد ذلك أن يتركوا جسمك آمناً مستريحا من شرهم — فلتدعنى أفكر على الدوام فيما حل بك من بلاء ، وأنشره فى مشارق الأرض ومغاربها لأُجَلِّل بالعار زمانا جهل قدرك ، إذا كان هذا الزمان لم يجلل بعد بالعار ..

فأرسل إلىّ وصفا صادقا لكل شئونك ، فأنا أريد أن أعرف كل شىء عنك مهما يكن فيه من شر ، ولعلى إذا مزجت دمعى بدمعك قلل ذلك من آلامك ، فقد قيل إن الآلام إذا تقاسمها الناس خفَّ وقعها وسهل حملها .

ولا تعتذر بقولك إنك تريد أن تجنبنى الدمع أزرفه أسى عليك ، فإن دموع النساء اللاتى كتب عليهن أن يقمن فى مكان موحش محزن لا عمل لهن فيه إلا التوبة من الذنوب دموع يجب إلا يضن بها . وإذا كنت تريد ألا تكتب حتى تتاح لك فرصة تكتب إلىّ فيها ما يسر ، فستنتظر هذه الفرصة طويلا . ذلك أن النعمى قلما تختار جانب الفضيلة ؛ والحظ كما علمت أعمى ، فإذا ما وُجد رجل واحد عاقل وشجاع بين طائفة كبيرة من الخلق لا يتمتعون بهذه الصفات ، فهل ينتظر أن يواتيه الحظ هو وحده من دونهم جميعاً ؟ اكتب إلىّ إذن من فورك ولا تنتظر حدوث المعجزات فهى جد نادرة ، وإذا حدثت فقلَّ أن تكون من نصيبنا نحن لأننا تعودنا سوء المصير ، وسأعتقد على الدوام — وأرجو أن تسمح لى بهذا الاعتقاد الذى يملأنى غبطة على الدوام — أنى إذا ما تلقيت منك رسالة عرفت أنك ما زلت تذكرنى ... إن صورتك معلقة فى حجرتى ، وكلما مررت بها وقفت عندها أطيل النظر إليها . أما إذا كنت أنت معى ، فإنى قلما ألقى نظرة عليها . وإذا كان فى مقدور الصورة ، وهى ذلك الرمز الصامت ، أن تبعث فى النفس ما أشعر به من السرور ، فماذا تستطيع الرسائل أن تبعثه فيها . إن للرسائل أرواحا ، وإنها لتتكلم ، وإن فيها من القوة ما يعبر عن نشوة القلب ، وليس ينقصها شىء من حرارة العواطف ، وإنها لتبعثها فى القلب كما يبعثها

الـكاتب نفسه ، وفيها كل ما للكلام من رقة وحنو ، وقد يكون فيها أحياناً من الجرأة على التعبير ما لا يستطيعه الـكلام .

ليس ثمة ما يمنعنا أن نتبادل الرسائل ، لأن هذه المتعة البريئة لا يحرمها علينا الناس ، فعلينا إذن ألا نضيع بإهمالنا تلك السعادة التى لم يبق لنا غيرها ، ولعلها هى السعادة الوحيدة التى لا يستطيع حقد أعدائنا أن يغتصبها منا . وسأقرأ فى رسائلك أنك زوجى ، وسأوقعها بأنى زوجتك ، وستكون أنت فى هذه الرسائل ما تحب أن تـكون على الرغم مما حل بنا من نوائب ؛ ولعل الرسائل لم تخترع أول ما اخترعت إلا لتـكون تعزية وسلوى للبائسين أمثالى . وما دمت قد فقدت تلك السعادة العظيمة سعادة النظر إليك والاستحواذ عليك ، فلا أقل من أستعيض عن بعضها بما أجده من اللذة فى رسائلك .

ولسوف أقرأ فيها أفـكارك القدسية ، وأحملها معى أينما ذهبت ، وأقبّلها فى كل وقت . وإذا كانت الغيرة تجد سبيلا إلى قلبك فلتـكن غيرتك من هـذا العطف الذى أمنحه رسائلك ، ولتحسد فقط هذه السعادة التى يتمتع بها هؤلاء المنافسون . وأحب أن تـكتب إلىّ فى غير تـكلف أو استعداد ، حتى لا تـكون هذه الـكتابة مصدر تعب لك . وخير لى أن أقرأ فيها ما يفيض به قلبك لا ما يمليه عليك عقلك . ذلك أنى لا أستطيع العيش إذا لم تقل لى إنك ما زلت باقيا على حبى ، ولـكن يجب أن تـكون اللغة التى تعبر بهـا عن هذا الحب هى اللغة التى تجرى على لسانك ولسان الناس ، والتى أعتقد أنك لا تستطيع أن تتحدث إلىّ بغيرها إلا إذا كان قلبك قلقا مضطربا . ولقد قصصتَ على صديقك فى رسالتك قصة محزنة فأثرت بها كوامن أشجانى ، ولهذا فإن من حقى عليك أن تخفف وقعها علىّ بإشارة منك إلىّ أنك لا زلت باقيا على حبى .

وليس فى مقدورك أن تنسى (لأن المحبين لا ينسون أبدا) ما كنت استمتع به من السعادة حين أقضى الأيام أصغى إلى محاضراتك ، وكيف كنتُ وأنت غائب عنى أعتزل الناس جميعا لأكتب إليك ، وكيف كنتُ أظل قلقة حتى تصل رسالتى إلى يديك ، وما أكثر ما كان يتطلبه وجود الرسول الذى يحملها إليك من تدبير واحتيال . وقد يكون فى هذا القول ما يثير دهشتك ، وقد تـكون متلهفا على معرفة ما أقوله بعده ، وليس ثمة ما أخجل منه حين أبلغك أنى فعلت أكثر منه لأن حبى لك لا يقف عند حد . ولقد بلغ من أمرى

أن كرهت نفسى حبا فيك ، فلقد جئت إلى هذا المكان لأُحبس فيه على الدوام ، حتى تستطيع أنت أن تحيا هادئا مطمئنا .

وتلك نتائج لا يمكن الوصول إليها إلا عن طريق الفضيلة الممتزجة بالحب الخالص الذى لا صلة له بالحواس الجسمية . ذلك حب ليس فى مقدور الرذيلة أن توحى به ، لأن الرذيلة خاضعة لسلطان الجسم ، والذى يحب اللذات إنما يحب الأحياء لا الأموات ، ونار هذا الحب لا تضطرم فى قلوب الأحياء إذا كانت قد خبت فى قلوب الموتى . ذلك ما كان يفهمه عمى من الحب ، فقد كان مقياس فضيلتى عنده ضعفى الجنسى ، فظن أنى أحببت فيك الرجل لا الإنسان ، ولكنه ارتكب جرما ولم ينل غرضا ، فإنى أحبك الآن أكثر مما كنت أحبك فى أى وقت مضى ، وأنا أثأر بهذا الحب لنفسى ، وسأظل أحبك بكل ما فى طاقتى إلى آخر لحظة من حياتى . و إذا لم يكن حبى لك فى الأيام الخالية نقيا طاهرا بقدر ما هو فى هذه الأيام ، و إذا كان روحى وجسمى فى ذلك الوقت قد أحباك ، فإنى طالما قلت لك حتى فى ذلك الوقت إن سعادتى بامتلاك قلبك لا تعدلها قط سعادة أخرى ، و إن الرجل الذى فيك لهو أقل ما فيك قيمة فى نظرى . وما من شك فى أنك قد اقتنعت بهذا القول كل الاقتناع ، اقتنعت به لأنى رفضت بشدة أن أكون لك زوجة ، وإن كنت أعلم أن لفظ الزوجة لفظ مشرف فى الدنيا ومقدس فى الدين ، لكن لفظ « الحبيبة » كان أجمل وأكثر جاذبية ، لأنه أوسع حرية . ذلك أن رابطة الزواج مهما يكن فيها من شرف وكرامة تنطوى مع ذلك على قيود لا بد منها ، وإنى لأكره أشد الكره أن أضطر إلى حب رجل قد لا يدوم لى حبه مدى الحياة . لذلك احتقرت اسم الزوجة لكى أعيش سعيدة ممتعة باسم الحبيبة ، ثم عرفت من خطابك لصديقك أنك لم تنس قط من كانت تحبك أشد الحب ، والتى ترغب فى أن تكون أقوى مما هى الآن حبا لك . ولقد صدقت إذ قلت فى خطابك إنى لا أكبر قط شأن تلك الروابط العامة التى لا تدوم إلا ما دامت الحياة ، ثم تنحل بالموت ، فتجعل بذلك الحياة والحب شقاءين لا بد منهما ؛ ولكنك لم تذكر فى هذا الخطاب كم مرة أعلنت لك أنى أفضل ألف مرة أن أعيش مع أبلار وأن أكون حبيبته على أن أعيش مع إنسان آخر وأن أكون ملكة الدنيا جميعها . وكنت أجد فى طاعتك من السعادة ما لا أستطيع أن أجده لو أننى كنت زوجة ملك تخضع له الأرض وما عليها . ذلك أن الثراء

والجاه ليسا منشأ ما فى الحب من لذة وسعادة ، بل إن الحب الحقيقى ليحملنا على أن نفرق بين المحب و بين كل ما هو خارج عنه ، فنَطَّرِح جاهه وثراءه ومهنته ولا ننظر إلا لشخصه .

وليس الحب الخالص هو الذى يدفع المرأة إلى أن ترتمى فى أحضان زوج وضيع ، بل الذى يدفعها إلى ذلك هو حب المال أو الجاه . فالطمع لا الحب هو واسطة عقد هذا الزواج ، ولست أشك فى أنه قد يعقبه شىء من الرفعة أو الفائدة ، ولكنى لا أعتقد أن هذه هى الوسيلة التى يستطيع بها الإنسان أن يتمتع بلذة الوفاق المحبوب ، أو يشعر بتلك الغبطة السامية الفاتنة التى تكون حين ترتبط القلوب بعد أن طال افتراقها . إن ضحايا ذلك الزواج لا ينفكون يتطلعون إلى ثروة أعظم ، يخيل إليهم أنهم فقدوها ، فالمرأة ترى رجالا أكثر من زوجها مالا ، والرجل يرى نساء أجمل من زوجته خَلْقا ، فلا تلبث أيمانهما المشتراة أن تبعث فى نفسيهما الندم ، والندم يورث الكره ، وسرعان ما يفترقان — أو يرغبان فى الفراق — ، ويكون جزاؤهما على أنهمـا أرادا بالحب شيئا غير الحب نفسه هو ذلك الجشع والاستكلاب على المال الذى يعذبهم و يقض مضاجعهم .

و إذا كان فى هذه الدنيا ما يصح أن يُسمى سعادة بحق فلست أشك فى أنه هو اتحاد شخصين متحابين بكامل حريتهما جمعت بينهما ألفة خفية ، واقتنع كلاهما بأن أليفه جدير بحبه . إن الحب يملأ قلبى هذين المحبين ، فلا يكون فيهما مكان لغيره من العواطف ، وهما يستمتعان بالراحة الدائمة لأنهما يستمتعان بالرضاء والقناعة ...

وما أكثر النساء اللاتى كن ينافسننى فى الحظوة بنبلك وشهامتك ، و يعتقدن لجهلهن أنهن أجدر بك منى .

وكم من فتاة سمعتها تجهر فى أسى وحسرة بحبها لك بعـد أن جئت إليها فى زيارة عادية وهنأتها صاحباتها بأنها هى الموحية إليك بشعرك . وكم من فتاة غيرهن قد امتلأ قلبها حسدا و يأسا فأخذت تبكتنى بأنى ليس لى من الجمال إلا ما تخلعه أنت علىّ ، أو من الفضل إلا حبك إياى . وهل تصدقنى إذا قلت لك إننى بالرغم من أنوثتى كنت أظن نفسى جدّ سعيـدة لأن لى حبيبا أنا مدينة له بفتنتى وجمالى ، و إننى كان يخالجنى سرور كمين لأن رجلا يعجب بى وهو قادر إذا شاء أن يرفع محبوبته إلى مصاف الملائكة . ولقد كنت وأنا نشوى بجلالك وحده أقرأ — فى بهجة — ثناءك علىّ ، ولم أكن أفكر وقتها فى أنى لا أستحق

هذا الثناء ، بل كنت أعتقد أنى كما وصفتنى بحق ، كى يزداد يقينى بأنى أبعث السرور فى نفسك .

ولـكن وا أسفاه أين ولت هذه الأيام السعيدة ؟ إنى أندب الآن حبيبى ، ولم يبق لى من مسراتى كلها إلا تلك الذكرى المؤلمة : وهى أن مسراتى كلها قد انقضت أيامها . ألا فلتعلمن يا من كنتن تنافسننى فى حبى وتحسدننى على ما كنت أرفل فيه من حلل السعادة أن من كنتن تحسدننى عليه قد فارقنى إلى غير عودة . فلقد أحببته وكان حبى إياه هو جريمته وسبب عقابه . لقد افتتن بجمالى ، فأعجب بى وأعجبت به ، وقضينا أيام بهجتنا هادئين ، فإذا كانت هـذه جريمة فما أحلاها من جريمة مازلت أحبها ولا أندم على شىء إلا أنى قد أرغمت على أن لا أرتكبها .

ولـكن ماذا أقول ؟ لقد ابتلانى الله بأهل قساة قضوا بحقدهم على ما كنا نستمتع به من هدوء ، ولو أنهم أوتوا شيئا من العقل لـكنت الآن سعيدة بجانب زوجى العزيز . ألا ما كان أشد قسوتهم حين اندفعوا فى سورة الغضب فسلطوا عليك شريراً فاجأك فى نومك . ألا ليتنى كنت معك . ألا ليتنى استطعت أن أدفع الأذى عن حبيبى ، ولو استطعت لـكان فى ذلك مسرة لا تعادلها مسرة ، ولو أننى كنت إلى جانبك لدفعت الشر عنك ولو ضحيت فى سبيل ذلك بحياتى . ويل لى ! ترى إلى أى غاية تدفعنى عواطفى الجامحة . إن الحب لا يطيق هذا الفخر ، ولذلك ترانى عاجزة عن مواصلة هذا الحديث .

ولـكن هلا حدثتنى عن سبب إغفالك أمرى منذ ترهبت ؟ إنك لتعرف أنى ما أقدمت على ذلك العمل إلا بسبب ما حلّ بك ، وأنى لم أرضه لنفسى إلا لأنك ارتضيته لى . فقل لى ما سبب هذا الفتور ، وإلا فاسمح لى أن أحدثك أنا بظنى . ألم يكن تفكيرك فى مسرتك هو الذى وثق الصـلة بينك وبينى ؟ ألم يكن عطفى عليك ذلك العطف الذى حدا بى ألا أمنع عنك شيئا ترغب فيه هو الذى أطفأ جذوة حبك ؟

ألا ما أشقاك يا هلواز ! لقد كان فى وسعك أن تمنحى السرور حين كنت ترغبين فى منعه ، وكنت خليقة بالبخور يحرق لك حينما كان فى مقدورك أن تنحى عنك اليد التى تقدمه . فلما رق قلبك وخضعت وأخلصت وضحيت بنفسك ، هجرك من أخلصت له ونسيك من ضحيت بنفسك من أجله .

ولقد أقنعتنى التجارب القاسية أن من طبيعة الإنسان أن يتجنب لقاء من له عليه فضل عظيم ، وأن الإسراف فى الكرم يُجزى بالإهمال لا بالشكر . ولقد أسرعت بتسليم قلبى إليك فلم ينل ذلك القلب احترام من استسلم إليه ، ذلك أنه تملكه سهلا فاطرحه سهلا ؛ ولكن مهما يكن من جحودك فلست أشاركك هذا الجحود ، وسأظل أحتفظ فى أعماق نفسى برغبتى فى أن تحبنى ، وإن لم يكن من حقى أن أحتفظ لنفسى برغبة تخصنى .

وهل تعرف أنى حين نذرت نفسى للدير وأقسمت قسمى الحزين ، كانت إلى جانبى رسائلك التى تعلن فيها أنك كلك لى ، وأنك لن تحيا إلا لتحبنى ، فوضعت من أجل ذلك نفسى بين يديك وملكتك قلبى وملكتنى قلبك ؟ ويقينى أن ليس من حقك أن تسترد ما وهبت ، وأن عليك أن تصبر على عواطفى الجياشة ، فإنك أنت باعثها وليس فى مقدورك أن تتنصل منها بحال .

ويل لى ما أقل عقلى حين أنطق بهذه الألفاظ ! إنى لا أجد من حولى إلا آثار الله ، ومع ذلك ترانى لا أتحدث إلا عن الإنسان ! ألا ما أقساك ؟ لقد كنت أنت السبب فى هذا بسلوكك معى أيها الغادر ، فهل يليق بك أن تتخلى عن حبى على هذا النحو الفجائى ؟ ولِمَ لَمْ تخدعنى بعض الوقت بدل أن تهجرنى على الفور ؟ فلو أنى بدا لى من قبل أثر ضئيل من نقص حبك لما ساءنى خداعك ، ولكن عبثا ما أمنّى به نفسى من أن فى مقدورك أن تثبت على حبى ، لأنك لم تترك لى ما أعتذر عنك به . إنى راغبة أشد الرغبة فى رؤيتك ، فإذا كان ذلك غير مستطاع قَنعتُ بسطور قليلة من خط يدك .

إن من أصعب الأشياء على المحب أن يكتب ، ولكنى لا أريد رسالة من رسائلك التى تفيض بالعلم والتى تكتبها لتنال بها الشهرة والمجد ، بل أريدها رسالة يمليها القلب ، ولا تستطيع اليد أن تلاحقه فيها .

ولطالما خادعت نفسى بالأمل بأنك ستكون كلّك لى إذا ما لبستُ المسوح ، وعاهدت نفسى بأن أعيش أبد الدهر خاضعة لسلطانك . ذلك أنى حين ترهبت لم أقسم إلا أن أكون لك ، وزججت بنفسى مختارة فى هذا السجن الذى رغبته أنت لى ، ولن يخرجنى من صومعتى التى وضعتنى فيها إلا الموت . فإذا جاء أجلى بقيت رفاتى حيث أنا تنتظر رفاتك ، وتشهد أبد الدهر على طاعتى إياك وإخلاصى لك .

وأى شىء يدعونى إلى أن أخفى عنك سر مقامى فى الدير ؟ إنك لتعرف أنى ما جئت إليه لشدة تقواى ولحماستى الدينية ، وضميرك أطهر من أن يجيز لك أن تتنصل من أنك أنت السبب فى مجيئى إليه ، ولـكن هأنذا مقيمة فيه ، وسأظل أقيم فيه ، أى فى المكان الذى حَكَمَ على بالإقامة فيه يأسى وقريب لى غير رحيم ؛ فإذا لم يدم لى اهتمامك بشأنى ، وإذا فقدت عطفك على ، فماذا عسى أن أكون قد أفدته من سجنى ؟ وأى جزاء إذن أرتجيه ؟ إن ما أعقب حبنا من شقاء ، وما أصابك أنت من بلاء ، قد أرغمانى على أن أكون عفيفة طاهرة ، ولـكنى غير نادمة على الماضى . وهكذا يضيع كدى فى هذا الدير فأقيم بين من وهبن أنفسهن لله ، وأنا التى وهبت نفسى للإنسان ، فهن يعبدن الله وأنا أعبد شهوة بشرية ، أتزعَّم جماعة دينية وأنا التى لا أخلص إلا لأبلار .

ألا ما أفظع هذا القول ! اللهم أنر بصيرتى فلست أدرى لعل قنوطى من رحمتك هو الذى أنطقنى بما نطقت به . لست أنكر أننى قد عصيتك ، ولـكننى بدل أن أغسل خطيئتى بدمعى لا أبكى إلا حبيبى ، وبدل أن أمقت جرائمى لا تتوق نفسى إلا إلى المزيد منها ، ويتملـكنى ضعف لا يليق بالوضع الذى أنا فيه ، ويطيب لى حين أذكر مسراتى الماضية أن أتمنى اليوم الذى أستطيع فيه العودة إليها .

رحماك اللهم ! ما هذا كله ؟ إنى ألوم نفسى على ما ارتـكبت من ذنوب ، وأعنفك ياحبيبى على ذنوبك ؛ ولـكن ماذا يجدى هذا ؟ لقد لبست ثياب الرهبنة ولـكن انظر أى عذاب ألقيتنى فيه ! وما أشد ما أقاسى وأنا أكافح ميولى لأقوم بواجبى ؛ وإنى لأشعر بما تلقيه علىَّ هذه الثياب من واجبات ، ولـكنى أشعر أكثر من هذا بما لعاطفتى القديمة على قلبى من سلطان ...

أستحلفك بالله أن تُعين هذه البائسة على أن تبرأ من رغائبها — من نفسها — وأن تبرأ من حبك إذا كان لهذا البرء من سبيل . فإن كنت محبا أو أبا فأعن حبيبة أو أرح طفلا .

إنى لا يخالجنى شك فى أنك ستلبى طلبى ، فإن هذين الاسمين سيثيران عواطفك ، فألِنْ قلبك رحمة أو حبا ، فإذا أجبت دعوتى فسأبقى راهبة ولن أدنس بعد اليوم مهنتى .

إنى لن أتوانى فى أن أذل نفسى معك إلى رحمة الله الذى تتسع رحمته لـكل شىء ،

والذى يطهرنا بفضله من جميع الذنوب والآثام ، والذى يطهرنا برحمته الواسعة من رغائبنا ، ويرسل نوره إلى قلوبنا ، فتتفتح شيئا فشيئا لذلك الفيض الربانى الذى لم نكن ندركه من قبل ...

إن القلوب التى أحبت مثل قلبى لا تستطيع السلوى إلا على مهل ، فهى تتردد وقتا طويلا بين الحب والكره قبل أن يتاح لها الاستقرار والهدوء ، وهى تستمسك على الدوام بذلك الأمل الضائع فتظن أنها لن تنسى كل النسيان .

أجل يا أبلار ، إنى أستحلفك بهذه الأغلال التى ينوء بها كاهلى فى هذا المكان أن تخفف عنى باهظ عبئها فتكون بحيث أطيقها . هلا علمتنى أصول الحب القدسى ، فإنى بعد أن هجرتنى لا يسعنى إلا أن أباهى بأنى حبيبة الله . إن قلبى يمجد لفظ الحبيبة ويحتقر كل ما عداه ، فقل لى ما الذى يغذى هذا الحب القدسى وينميه ، وكيف يعمل هذا الحب فى النفوس وكيف يطهرها من الدنس ؟

إنى حين أخذت تتقاذفنا أمواج هذا العالم لم أكن أطيق سماع شىء غير أشعارك التى كانت تنشر أفراحنا ومسراتنا فى مشارق الأرض ومغاربها ؛ والآن وقد ألقينا عصا التسيار فى ملجأ من رحمة الله ، أفلا يجدر بك أن تحدثنى عن هذه السعادة الجديدة ، وأن تعلمنى كل ما يزيد من قدرها ويصلح من شأنها ؟

هلا أظهرت إلىّ فى وضعى الحالى من الرقة والعطف ما كنتَ تظهره ونحن فى دنيا الناس ؟ دعنا نبدل أهداف عواطفنا دون أن نبدل من حرارتها ؛ ولنغن وليكن غناؤنا ترنيات دينية ، ولنطو قلوبنا على حب الله ولا نطرب إلا لمجده .

أنى أنتظر هذا منك ، وليس فى مقدورك أن تأباه علىّ ، فإن لله على قلوب العظماء من خلقه حقوقا خاصة يتقاضاها منهم ؛ فإذا ما تجلى لهم جذلوا واغتبطوا فلم يستطيعوا النطق إلا بمجده ، والتنفس إلا تسبيحا بحمده .

فإلى أن تحين هذه الساعة فكر فىّ ولا تنسنى ، واذكر حبى وإخلاصى ووفائى ، وأحبنى أنا حبيبتك ، وأعزنى أنا طفلتك وأختك وزوجتك . واذكر أنى مازلت أحبك

و إن كنت أحاول أن أتجنب حبك . ألا ياله من قول رهيب يقشعر من هوله بدنى و يثور عند ما أنطق به قلبى ! سأغسل هذه الأوراق بدمعى ، وهأنذا أختم رسالتى الطويلة داعية لك بالخير ، وأستودعك الله — إذا رغبت — وداعا أبديا ، وليت الله يعينى عليه .

* * *

وقد رد أبلار على خطاب هلواز هذا برسالته الآتية :

أبلار فى وحدته ومن كوخ الغاب الذى يعيش فيه

يسلم أمره وأمر هلواز إلى ربه

« . . . أريد الآن أن أجفف هذه العبرات . . . »

[من أبلار إلى هلواز]

— ١٧ —

لو أننى عرفت أن رسالة لم تكتب لك سوف تقع فى يديك لكنت أكثر مما أنا حرصا على ألا أذكر فيها شيئا يثير ذكرى شقائنا الماضى . لقد كنت جريئا فى وصف ما قاسيت إلى صديق من أصدقائى لكى أخفف عنه وقع مصيبة حلت به .

فإذا كانت هذه الوسيلة التى لم أقصد بها إلا الخير قد سببت لك بعض الألم ، فإنى أريد الآن أن أجفف هذه العبرات التى تحدرت من عينيك حين قرأتِ ما جاء فى رسالتى من وصف محزن لحالى ولحالك ، وسأمزج حزنى بحزنك ، وأسكب دم قلبى بين يديك ، وأعرض أمام عينيك جميع ما لاقيت من شقاء ، وما فى نفسى من أحزان أخفيتها حتى الآن عن أنظار العالم كله أنفة منى وكبرياء ، وسأضطر لأن أفصح لك عنها على الرغم منى .

لست أنكر حين أذكر ما فجعنا به الدهر من فجائع ، وأرى ألّا رجاء لنا فى النجاة من صروف الزمان وقوارعه ، أن أيام السعادة قد أدبرت ولم يبق إلا أن نمحو من عقولنا كل ما بقى فيها من ذكريات وآثار مهما كلفنا ذلك من آلام . ولقد كنت أرجو أن يكون فى الفلسفة والدين ما يخفف عنى بعض ما أصابنى ، فبحثت عن ملجأ يعصمنى من الحب ، و بلغ من أمرى أن لجأت إلى تلك الوسيلة المحزنة فترهبت لكى يقسو قلبى بعض الشىء . فما الذى

جنبته من هذا كله ؟ إذا كانت عواطفي قد قيدت بعض الشيء ، فإن أفكارى ما زالت حرة طليقة ؛ وأنا أمنّى نفسى بأن أنساك ، ولكننى لا أستطيع أن أفكر فى نسيانك من غير أن يؤدى هذا التفكير إلى حبك . وليس شيء من هذه الأفكار التى أريد أن أحرر بها نفسى بالذى ينقص من حبى ، بل إن السكون الذى يحيط بى نفسه يزيدنى إحساسا بهذا الحب . وإذا لم يكن لدىّ ما يشغلنى كان حبك كل ما يشغل بالى ، حتى أيقنت بعد أن بذلت من الجهد ما بذلت أن لا فائدة ترجى من العمل على التحرر من قيود الحب ، وأن حسبى من العقل والحكمة أن أخفى عن الناس كلهم ، إلا أنت وحدك ، ما أنا فيه من اضطراب وما أحس به من ضعف .

ولقد بعدت عن شخصك لكى أتجنب لقائك كما أتجنب الأعداء ، ولكننى لا أنفك أبحث عنك فى أعماق نفسى ، وأستثير خيالك فى ذاكرتى ، وأستعين بمختلف الوسائل المقلقة المزعجة لكى أناقض نفسى وأفضح سرى . فأنا أبغضك وأنا أحبك فيا للعار الذى يجللنى من كل صوب .

ولقد يبدو لك فى هذه الساعة أننى قد سلوت أكثر منك ، ولكن يسوءنى أن أكشف لك عن آلامى . آلاما أضعف بنى الإنسان إن لم يعتصموا بالصبر ويتخذوا من الأنبياء والقديسين أسوة حسنة . فهل تخوننا شجاعتنا ؟ وهل يصيب قلبى أيضا ما أصاب قلبك من الضعف الذى يبعثه فيه خضوع الإنسان لسيدين ؟ . إنك لتحسين بما أنا فيه من اضطراب ، وترين كيف ألوم نفسى وكيف أتعذب .

إن الدين يأمرنى أن أستمسك بالفضيلة لأنى لا رجاء لى فى الحب ، ولكن الحب لا يزال يسيطر على خيالى ويذكرنى بسعادتى الماضية ؛ وقد اتخذت من الذكرى بديلا من الحبيبة ، ذلك أن العزلة لا تثمر التقوى ولا يعقبها أداء الواجب فى جميع الأحوال ، فساكن الصحراء الذى لا يرى قطرة من ندى السماء يحب مالا يليق به أن يحبه .

إن العواطف التى تثيرها الوحدة لتملأ تلك الأصقاع التى يسكنها الموتى ويخيم عليها السكون ، وقلما يحرص الناس فى هذه الأماكن على أن يتبعوا حقا ما يجب عليهم أن يتبعوه لو أن الله وحده هو الذى يعبَد ويُحب فى هذه الأماكن . ولو أنى عرفت هذا من قبل لعلَّمتك خيرا مما علمتُ . وأنت تسميننى معلمك ، ولست أنكر أنهم عهدوا بك إلى

عنايتي ، وأنني رأيتك وحرصت بحق على أن ألقنك العلوم التي لا جدوى منها ، وخسرتِ من جراء ذلك طهركِ وخسرت أنا حريتي .

وكان عمك يحبك فعاداني وانتقم لنفسه مني ، فإذا كنت الآن قد فقدتُ القدرة على حبك بعد أن فقدتُ القدرة على إشباع عاطفتي منك ، فقد كان من حقي على نفسي أن أجد بعض ما يواسيني ويفرج كربي ، وكان من حقي على أعدائي أن يتيحوا لي ذلك الهدوء الذي ابتاعه أرِچين[1] بجرمه . ألا ما أشقاني ! إني لأجد نفسي أكثر جرما وأنا أبكيك وأفكر فيك مما كنت وأنا أتملكك بكامل حريتي . إني أفكر فيك دائما ولا أنسى قط ما كنت تحيطينني به من عطف وحنان .

فإذا كنتُ يا إلهي أسجد أمامك وأنا على هذه الحال لأسألك أن ترحمني ، فلم لا تحرق نار الروح الطاهرة ذلك الحب الذي أريد أن أضحي به من أجلك وأقدمه قربانا لكَ ؟ لم لا ترحمني يا إلهي من أجل هذه الثياب التي أرتديها ، ثياب التوبة من الذنوب والندم على ما فات ؟ إن الله لا يزال غاضباً على لأن عواطفي القديمة لا تزال تجيش في صدري ، ولا تزال نيرانها متأججة لم يخمد لظاها ، وإنما يغشاها الرماد الخداع ، ولن يطفئها إلا رحمة من الله ورضوان لم يهبهما من قبل لإنسان . وماذا يفيدنا خداع الناس والله مطلع على السرائر لا تخفى عليه منها خافية ؟

تقولين إنك من أجلي ترتدين ثياب الراهبات ؛ بالله لا تدنسي مهنتك المقدسة بهذه الألفاظ ، ولا تغضبي ربك بهذا الضلال ! لقد كنتُ أرجو حين بعدتُ عنك أن تتبدل عواطفك ، كما كنت أرجو أن ينجيني الله من اضطراب نفسي . ذلك أن ما يشعر به الناس من وجد وهيام يضعف حين يفترقون ؛ فالغياب مقبرة الحب ، والقلب ينسى مالا تراه العين . لكنني وجدت أن غيابك عني يذكرني بحبك وهي ذكرى لا تنفك تقض مضجعي وتضرم النار في قلبي . وكنت أظن أني حين تراك عيني تستقرين في ذاكرتي دون أن تتوزعني الفكر وتتشعبني الهموم ، وأن برتني[2] والبحر سيوحيان إليَّ أفكارا غير هذه الأفكار ،

---

(١) Origen

(٢) Brittany شبه الجزيرة الشمالية القريبة من فرنسا حيث كان أبلار يقيم في ذلك الوقت .

وأن صيامى ودرسى سيفرغان قلبي منك على مر الأيام . ولـكنى رغم صـومى الشديد ، ودرسى الشاق الطويل ، ورغم ما بيننا من بعد شاسع يبلغ ثلثمائة من الأميال ، أرى صورتك فى لباس الراهبات ، كما تصفين نفسك فى رسالتك ، لا تنفك ماثلة أمام عينى تفت فى عضدى وتوهن عزيمتى .

وهل ثمة وسيلة لم أتوسل بها إلى غايتى ؟ لقد تسلحت بأسلحة قاتلت بها نفسى ، وأضنيت قواى بالرياضة التى لا تنقطع أبدا ، وكتبت الشروح الطويلة على أقوال القديس بولس ، وعارضت أرسطوطاليس ، وقصارى القول أنى أفعل الآن ما كنت أفعله قبل أن أحبك ، ولـكن ذلك كله لم يفدنى شيئا ، إذ لا شيء يفلح معى إذا كان يقصد به مقاومتك . بحقك لا تزيدى شقائى بثباتك على حبى ... ولم تستعينين ببلاغتك على تأنيبى لفرارى وسكوتى ؟ أشفقى علىّ من ذكر ما ارتضيناه لأنفسنا من مقام ومن حرصك على أداء واجباتك فى الدير .

حسبى ما لدىّ من آلام ولا تذكرينى بهذه الأفـكار التى تُمر عيشى وتقبض رجائى ؛ وأية ميزة كبرى تميزنا بها الفلسفة من النـاس إذا كانت دراستها لا تعيننا على كبح جماح عواطفنا . آه لشد ما نقاسى مما نبذله من جهود ومما يصيبنا من انتكاس واضطراب ، وما أكثر ما نضل فى هذا القلق وتطيش فيه أحلامنا ، ونفقد السيطرة على نفوسنا ، ونعجز عن كبح جماح عواطفنا ! . . .

وكيف أستطيع أن أفصل عن شخص من أحبه تلك العاطفة التى يجب علىّ أن أمقتها ؟ وهل تـكفى الدموع التى أذرفها لـكى تبغضها لى ؟ لعمرى لست أدرى كيف يجد الإنسان اللذة فى البكاء على ما يحب ؟ إن من العسير علينا فى أحزاننا أن نفرق بين الندم والحب ، ولعل السبب فى هـذا أن الصلة بين ذكرى الجرم وذكرى المحبوب أوثق من أن يستطاع فصم عراها على الفور ؛ وليس حبنا للخالق فى بادئ أمره بالذى يقضى القضاء كله على حبنا للمخلوق .

ولـكن أى عذر لا أستطيع أن أجده فيك إذا كانت جريمتى مما يعتذر عنه ؟ ليس الذى زللت من أجله هو المجد الذى لا نفع فيه ، أو الثروة التى لا تجر وراءها إلا التعب

والشقاء ، بل الذى زلت من أجله هو سحرك وجمالك و بهاؤك الذى لا أزال أشاهده حتى هذه الساعة . لقد كانت طلعتك بداية جريمتى ، ثم نفذ حديثك ونفذت لحاظك فى قلبى ، فسيطر الحب علىّ بالرغم من ذانك الطموح والمجد اللذين حاولا عبثا أن يتقيا تلك السهام النافذة .

وقد أراد الله أن يجزينى عما فعلت فوكلنى إلى نفسى . لستِ الآن من بنات الدنيا لأنك خرجت منها ، وأنا الآن من رجال الدين الذين نذروا الوحدة ، فلم لا نفيد من هذه الحال التى نحن عليها ؟ وهل تريدين أن تقضى على تقواى وهى لا تزال فى مهدها ؟ وهل ترغبين فى أن أخرج من الدير الذى لم أدخله إلا منذ قليل ؟ وهل أحنث فى أيمانى ؟ لقد أقسمتها أمام الله فأين أفر من غضبه إذا نكثت عهدى ؟ فهلا تركتنى لأجد الراحة فى قيامى بواجبى ...

إنى أتوسل إليك ألاّ تنظرى إلى بعد الآن نظرتك إلى العظماء أو كبار المنشئين . إن ثنائك علىّ لا يتفق مع ضعفى وأخطائى . فأنا مذنب بائس أرتجى عفو حاكم عادل ، أخر ساجداً أمام ربى أبلل الثرى بدمعى ، فإذا أبصرتنى على هذه الحال فهل تطلبين إلىّ أن أحبك ؟ تعالى إذا شئت فى ثيابك الكهنوتية واحشرى نفسك بينى و بين ربى . تعالى واسلبى تلك النفثات والأفكار والنذور التى لا أدين بها إلا لله وحده ، تعالى وكونى عونا للشيطان وأداة لمكره وشره ، وأى شىء لا تستطيعين أن تغرى بفعله قلبا أنت أعلم الناس بضعفه ؟

لا . لا تأتى إلىّ وكونى عونا لى على النجاة . أستحلفك بحق حبنا القديم وشقائنا الحديث أن تجنبينى الهلاك ، ولتكن أسمى درجات الحب لديك ألا تظهرى شيئاً من الحب ، وأنت فى حل من جميع أيمانك وعهودك . كونى كلك لله الذى وهبت إليه نفسك ، فلست أعارض قط فى هذا العمل الصالح ؛ وما أسعدنى إذا فقدتك على هذا النحو ! إذن لكنت تقيا حقا ، وكنت أنت مثلا أعلى للراهبات .

أصلحى من شأنك بهذا الاختيار الموفق ، واجعلى فضيلتك مثالا يحتذيه خلق الأرض وملائكة السماء ، والزمى التواضع أمام أبنائك ، والجد فى ترتيلك ، واحرصى على نظم الدير ، ولا تقصرى فى القراءة والدرس ، وأفيدى حتى من رياضتك نفسها .

وهل من يشترى مهنته بهذا الثمن الغالى يقصِّر فى الإفادة منها أكبر ما يستطيع من

فائدة ؟ وما دمتِ قد سمحت لنفسك بأن تضلك المبادئ الخاطئة والتعاليم الإجرامية ، فلا تضيعى تلك النصائح الطيبة التى يوحى بها الدين واطلبى من الله المغفرة .

وسأقر أمامك بأنى أظن نفسى حتى هذه الساعة أقدر على نشر الرذيلة منى على بث الفضيلة . إن بلاغتى الكاذبة لم تفد إلا فى تزيين الضلال ، وإن قلبى الذى أسكرته الشهوة ليعجز إلا عن أن يوحى بها ويمجدها . إن الكأس التى تمتد بها يد المذنبين لتفيض بالشراب العذب اللذيذ ، وإننا لنميل بطبيعتنا إلى تذوقها ، فليسوا هم إذن بحاجة إلى أكثر من عرضها علينا .

أما أكواب القديسين فشرابها مرٌّ تعافه النفس ، ومع ذلك ترميننى بالجبن لأنى قدمتها إليك أول الأمر . إنى لأقبل هذه التهمة وأرتضيها لنفسى ، وإنى لمعجب أشد الإعجاب بإقبالك السريع على لبس ثياب الراهبات ، فاحملى فى شجاعة الصليب الذى تقبلته بثبات وعزم ، وتجرعى شراب القديسين الأبرار ، واشربى كأسهم حتى الثمالة ، ولا ترفعى عينيك وتتلفتى نحوى تلفت المرتاب ، ودعينى أبتعد عنك ، وأعمل بما أشار به الرسول ، فأهرب من الفساد الذى فى العالم[١] .

إنك تتوسلين إلىّ بأن أعود إليك مستترا وراء ستار التقى والصلاح ، وإن حرصك على هذا ليوجد فى نفسى شيئاً من الريبة ، ويحملنى على أن أتردد فى اختيار الطريقة التى أجيبك بها ، لأنى إذا أخطأت فيما أكتبه إليك استحت ألفاظى نفسها من الظهور أمامك — إذا جاز هذا التعبير — بعد ما حل بنا من المصائب الكثيرة . إن الكنيسة لشديدة الغيرة على شرفها ، وهى تتطلب إلى أبنائها أن يمارسوا الفضيلة بالوسائل الفاضلة . ذلك أننا إذا تقربنا إلى الله طاهرى السريرة كان فى وسعنا أن ندعو غيرنا إلى التقرب إليه غير هيابين .

إن الذى يطلبه إله السموات إلى أبلار هو أن ينسى هلواز ولا يراها أبداً بعد اليوم ، والذى يأمر به هلواز هو ألا تنتظر شيئاً من أبلار ، وأن تنساه وتنتزعه من ذاكرتها . ذلك أن نسيان المحب هو ألزم الأمور للتوبة وإن كان أشقها على النفس . إن من السهل علينا أن نعدد أخطاءنا ، وما أكثر الذين يستمتعون بملذاتهم الماضية على هذا النحو وهم لا يعرفون

---

(١) رسالة بطرس الثانية ١ : ٤

ما يفعلون ؟ وكان عليهم بدلا من هذا أن يقروا بها فى ذلة وخشوع . وليس ثمة وسيلة نرجع بهـا إلى الله إلا أن نبتعد عن المخلوق الذى كنا نعبده ، وأن نعبد الله الذى أبعدنا عنه . قد يكون هذا صعبا على النفس ولـكنه أمر لا غنى عنه إذا أردنا لأنفسنا النجاة .

وقد يُيَسِّر هذا لك أن تفـكرى فيما دعانى إلى الإلحاح عليك فى دخول الدير قبل أن أدخله أنا ، و إذا لم أُخف شيئا عنك فأرجو أن يشفع لى لديك إخلاصى وحرصى على أن أكون خايفا بإهمالك وكرهك . لقد كنتُ حين تقسمتنى الهموم شديد الغيرة ، أعد الناس كلهم منافسين لى وأعداء ، ذلك أن فى الحب من الريبة أكثر ممـا فيه من الثقة ، وكنت أخشى كثيراً من الأشياء لـكثرة ما فىّ من أسباب النقص ، وكانت مخاوفى تعذبنى ، وتقض مضجعى ، فقد ظننت أن قلبك الذى أحبنى تعود الحب حتى لا يطيق أن يصبر طويلا دون أن يرتبط بحب جديد ، وما أسهل ما يصدق الإنسان كل ما توحى به الغيرة إلى النفوس من الأفـكار المروعة .

ولقد كنت شديد الرغبة فى أن لا أجعل إلى نفسى سبيلا إلى الشك فيك ، حريصا كل الحرص على إقناعك بأن الواجب يقضى عليك أن تبتعدى عن أعيُن الناس ، وأن آدابك وصداقتنا يتطلبان ذلك منك ، وأن سلامتك أنت تفرضه عليك ، وأن ليس فى وسعك بعد أن وقع علىّ ما وقع من ضروب الانتقام الوحشى أن تطلبى الأمان فى غير الدير . وقبلت أنت النصح بسهولة وهو ماأحمده لك ، ولشدما اغتبطت فيما بينى و بين نفسى لأنك أجبت رغبتى مدفوعة إلى ذلك ببراءتك وطيبة قلبك ؛ لـكننى و إن ظفرت بطلبتى قد أسلمتك إلى ربى وأنا غير مغتبط بمـا فعلت ، لاعتقادى بأنى احتفظت بهديتى أطول ما استطعت ، ولم أفارقها إلا لأمنعها أن تقع فى يد غيرى من الناس . وأرجو أن تصدقينى إذا قلت لك إنى لم أطلب إليك دخول الدير رغبة منى فى سعادتك ؛ ذلك أنى زججت بك فيه زج العدو الذى يتلف مالا يستطيع أن يفر به ؛ ومع هذا فقد كنت تسمعين حديثى بحنان ، وتقاطعيننى أحيانا بالدمع تذرفينه من عينيك ، وتطلبين إلىّ أن أدلك على أحسن الأديرة وأجلها قدرا لدىّ . ولشدما استراح قلبى حين رأيتك تعتزلين العالم ، فقد اطمأنت بذلك نفسى ، واغتبطت إذ أدركت أنك لم تظلى على ظهر الأرض بعد الـكارثة التى نزلت بى ، وأنك لن تعودى إليها بعد ذلك اليوم .

غير أنى رغم ذلك كله كانت تساورنى الظنون ، فقد كنت أتصور أن النساء لا يستطعن الثبات على ما اعتزمنه إلا إذا اضطررن إلى ذلك بما يقسمن من أيمان ، ومن أجل هذا طلبت أن تقسمى هذه الأيمان ، وطلبتُ أن تشهدى الله عليها حتى لا أسيء بك الظن فيما بعد .

فيا أيتها الدور المقدسة والملاجئ الحرام ! ما أكثر ما آمنت خيفتى وخفضت جأشى . إن الدِّين والتقوى يضربان الآن نطاقا من حديد حول أبوابك وجدرانك ، وما أكثر ما يطمئن إلى ذلك القلب الغيور ؛ وما كان أقل اصطبارى وأنا أسعى إلى هذه الغاية .

لقد كنتُ أذهب فى كل يوم وأنا خائف وجل لأحضك على أن تعجلى بهذه التضحية ، ولقد أعجبت وقتئذ بسنا جمالك الذى لم أشاهده من قبل ، والذى لم أجرؤ على ذكره فى ذلك الوقت . وسواء كان هذا هو نضرة الفضيلة التى انبعثت وقتئذ فى قلبك ، أو الخسارة الفادحة التى كنتُ وقتئذ أتوقعها ، فإنى لم أشأ أن أبحث عن السبب بل تعجلت بداية رهبنتك ، وأشركت رئيسة الدير فى ذنبى برشوة آثمة قدمتها إليها ، واشتريت بها حقى فى أن أواريك التراب بعد موتك . ورشوت كذلك زميلاتك فى الدير فأخفين عنك ، إجابة لطلبى ، كل ما سرى فى أنفسهن من وساوس وريب ، ولم أترك شيئاً صغيراً كان أو كبيرا إلا فعلته . ولو أنك أفلت يومئذ من شراكى لما نكصت على عقبى ، فقد اعتزمت فى تلك الساعة أن أتبعك فى كل مكان تذهبين إليه ، وأن أقتفى خطاك ، وأن أبعث الاضطراب فى نفسك والرعب فى قلبك ؛ وكان فى ذلك ما يرضينى ويشبع رغبتى .

ولكنى أحمد الله إذ اعتزمت أن تقسمى اليمين . ثم صحبتك إلى أسفل المذبح ، فلما مددت يدك ولمست الستار المقدس سمعتك فى وضوح تنطقين بتلك الألفاظ الرهيبة التى فرقت بينى وبينك أبد الدهر . وكنت أظن حتى ذلك الوقت أن شبابك الغض وجمالك الرائع سيحبطان عملى ويعيدانك على الرغم منك إلى هذا العالم . ولم لا ؟ أليس فيه من المغريات ما كان حريا أن يثبط من عزمك ؟ وهل فى طاقة الإنسان أن يُخرج نفسه منه ولما يتجاوز الثانية والعشرين من عمره ؟ وهل فى مقدورك أن تظنى أن العالم غير جدير بعنايتك وأنت فى السن التى يطلب فيها الإنسان لنفسه أقصى ما يستطيع أن يناله من الحرية ؟ ما أشد ما ظلمتك وما أكثر ما ظننته فيك من أسباب الضعف ! لقد كنت أتصورك رعناء متقلبة ، وهل لا تفكر المرأة فى تلك الساعة الرهيبة فى إنسان ما ؟ كنت ألاحظ عينيك ، وأرقب

حركاتك ، وأتفرس فى ملامحك ؛ ولقد اقشعر بدنى لـكل شىء ، ولست ألومك إن سميت هذا السلوك الأنانى خيانة وغدراً وقتلا . إن حبّاً كهذا ، شديد الشبه بالـكره ، يجب أن يثير فى النفس أقصى درجات الغضب والاحتقار .

وهل يصح أن تعرفى أنى فى اللحظة التى اقتنعت فيها بإخلاصك ، ورأيت فيها أنك جديرة بكل حبى ، تصورت أنى لا أستطيع أن أحبك بعدها ، وفكرت أن قد حان الوقت الذى يجب أن أنقطع فيه عن إظهار دلائل حبى ، واعتقدت أنك بعد أن لبست ثياب الراهبات أصبحت فى رعاية الله ، ولم تبق زوجة لى أشغل نفسى بأمرها ، و بدا لى وقتئذ أن نيران الغيرة خمدت فى قلبى ؟ ذلك أنه إذا كان الله وحده هو الذى ينافس الإنسان فى حبه ، فإنه لا يوجس من هذه المنافسة خيفة فى نفسه . وحينئذ تمتعت من الهدوء بما لم أتمتع به من قبل ، و بلغ من أمرى أن جرؤت على أن أدعو الله أن يباعد بينى و بينك .

ولـكن الوقت لم يكن وقت هـذه الأدعية الطائشة ، ولم يكن إيمانى بحيث يطمئننى بأن الله سوف يستجيب دعائى . ذلك أن الضرورة الماسة واليأس الشديد هما اللذان ألجآنى إلى أن أفعل ما فعلت . فلم يكن ما قدمت قربانا إلى الله بل اجتراء عليه جل شأنه ، ومن أجل هذا لم يتقبل الله قربانى ، ورد علىّ دعائى ، وظل يؤاخذنى على ما جنيت بأن سمح لى أن ألج فى غلواء حبى ، فأنا بذلك أحمل وزر أيمانك ووزر عاطفتى التى سبقت هذه الأيمان ؛ ومن أجل هذا سوف يدوم عذابى ما دامت فىّ الحياة .

و إذا كان الله قد تجلى إليك فتحدث إلى قلبك كما يتحدث إلى القديسين الأبرار الذين يطلبون إليه الغفران ، فإن ذلك يريح بالى و يسرى همى . أما أن نرى نفسينا ضحيتى حب آثم ، وأن ننتهك بهذا الحب حرمة ثيابنا الدينية ، ونفسد به إخلاصنا لله ، فإن ذلك مما ترتعد فرائصى منه فرقا ، و يستطير له لبى روعا . فهل ترين أن هذا استهجان لحالنا ، أو أنه عاقبة الإيغال الطويل فى الحب الدنس ؟

وليس فى وسعنا أن نقول إن الحب سم قاتل وخمر مسكر إلا بعد أن تستنير بصائرنا بنور الله القدسى . فإلى أن يحين ذلك الوقت يكفينا أن نقر أن الشر كل الشر كامن فى الاسترسال فيه . فإذا كنا لا نزال نلج فى هذا الخطأ فإن أول خطوة نصلح بها أحوالنا هى أن ندرك ما نحن فيه من بؤس وشقاء . وهل منا من لا يعرف أن الله جل جلاله إنما يرحم الإنسان

لضعفه لا لأنه خليق بهذه الرحمة ؟ فإذا ما كشف لنا عن هذا الضعف وتألمت منه نفوسنا ، أمدنا بعدئذ بعونه ، ونفخ فينا من روحه . وعلينا الآن أن نقول راحة لضمائرنا إن ما نحن فيه من عذاب ليس إلا من تلك الشدائد التى يبتلى الله بها الصالحين من عباده .

والله يتجلى للناس متى شاء ليخفف من بلواهم ، وقد أراد لك الخير فدخلت الدير ليقر بك من رحمته . ولقد شاهدتُ عينيك وأنت تودعيننى الوداع الأخير لا تتحولان عن الصليب ، ومضى على ذلك أكثر من ستة شهور قبل أن تكتبى إلىّ خطابا ، ولم تصلنى طوال هذه المدة كلها كلمة منك ؛ وأعجبنى هذا الصمت الذى لم أجرؤ على لومك عليه ، ولكنى لم أستطع محاكاته ، فكتبت إليك ولم تردى علىّ . لأنك أقفلت قلبك دونى فلما تفتح قلبك لزوجك خرج منه نور الله وتركك بمفردك . وكان تركه إياك امتحانا لك ، فتوسلى إليه مرة أخرى أن يعمر قلبك ، فإنا لا نستطيع أن نحطم الأغلال التى تقيدنا إلا إذا استعنا عليها الله . إن حبنا القديم مسيطر علينا لا نستطيع الخلاص منه وحدنا .

لقد تسربت حماقتنا إلى الأماكن المقدسة ، ودنس حبنا البلاد كلها من أقصاها إلى أقصاها ، وأخذ الناس كلهم يقرءون أخبارنا ويعجبون بها ، وكان الحب الذى بعثها هو الذى جعل الناس يصفونها ويتحدثون بها ، وأصبحت حالنا عزاء للشباب عما يرتكبونه من ذنوب ويخفف بها من يخطئون من بعدنا أوزارهم . إننا آثمان أبطأنا فى التوبة ، فلتكن إذن توبتنا صادقة ، ولنكفر بأكثر ما نستطيع عما جنيناه ، ولنجعل فرنسا كلها التى شهدت جرائمنا تدهش لتوبتنا . ولنستنزل غضب الله على كل من يرتكب جريمتنا ، ولنكن فى جانب الله على أنفسنا فنتقى بذلك غضبه علينا .

وليس ثمة ما يكفر عن زلتنا الماضية إلا الدموع والخجل والحزن ، فلنقدم هذه الضحايا من قلوبنا ، ولنخجل ، ولنبك ، وإذا لم تكن قلوبنا كلها لك يا رب من تلك البداية الضئيلة فلنشعرها على الأقل بأنها يجب أن تكون لك .

ولتتطهرى ياهلواز من كل ما بقى فيك من العاطفة الآثمة التى تأصلت فى قلبك ، ولتذكرى أن أقل تفكير فى غير الله فسق وضلال . ولو أنك رأيتنى هنا ، وأبصرت وجهى الشاحب ومنظرى الحزين ، ومن حولى الرهبان لا ينفكون عن اضطهادى ، وقد روعهم ما اتصفت به من العلم ، وأزعجهم جسمى النحيل ، كأنى قد جئت إليهم لأردهم عن دينهم ، لو رأيتنى

على هذه الحال فماذا كنت تقولين عن أناتى الحقيرة ، وعن تلك الدموع التى لا طائل منها ، والتى أخدع بها هؤلاء الرجال السذّج ؟ ويل لى إنى لا أذل نفسى لله بل أذلها للحب ، فارحمينى ونجى نفسك ، وإذا كانت رهبانيتك من عملى كما تقولين فلا تحرمينى بقلقك الدائم مما لى من فضل فى هذا العمل .

وقولى إنك ستصونين كرامة هذا اللباس الذى يغطى جسمك بالتخلى عما يشغلك من شئون هذا العالم ، وأشعرى قلبك خشية الله لكى تتغلبى على ضعفك ، وأحبيه لكى يرشدك إلى طريق الفضيلة ، ولا تكونى فى الدير قلقة مضطربة لأن الدير مأمن القديسيين ، وتقبلى قيودك هادئة صابرة فسوف يعينك الله عليها إذا رضيت بها فى خشوع وذلة .

ولا تسترسلى فى عاطفتك التى لا تزال تملأ قلبك ، بل اتخذى من بؤسك عونا على إنقاذ الضعيفات من أخواتك ، وأشفقى عليهن حين تفكرين فى خطاياك ، وإذا ألحت عليك أفكار هذه الدنيا ففرّى إلى المحراب ، واستغفرى الله ، واطلبى إليه الرحمة ، واعلمى أن جراحك لم تلتئم بعد فتضرعى إلى الله أن يداويها ، ولا تكونى ، وأنت على رأس جماعة دينية ، أمة إلا لله وحده ، وابدئى بحكم نفسك وقد أصبحت حاكمة على من كنّ صاحبات التيجان ، واذكرى أننا ونحن أمام المذبح قد نُقدم القربان للأرواح الخبيثة ، وأن لا شىء يسر هذه الأرواح ويطربها أكثر من العاطفة الأرضية التى لا تزال نارها تتقد فى قلوب راهبات الدير . وإذا كنت وأنت مقيمة فى عالم الناس قد تعودت روحك الحب ، فليكن حبها الآن خالصا لله وحده ، واندمى على كل ما ضيعت من حياتك فى هذا العالم وفى مسراته ، وطالبينى أنا بهذه الأيام التى أضعتها فى هذا العبث ، فأنا الذى انتهبتها منك ، وليكن لك من الشجاعة ما تنحى علىّ باللائمة من أجلها .

لست أنكر أننى كنت معلمك ، ولكنى لم أعلمك إلا الخطايا ؛ وتقولين إنى أبوك ولكنى قبل أن أكون جديراً بهذا اللقب قد قتلت ابنتى ، وإنى أخوك ولكن صلة الخطيئة هى التى تخلع علىّ هذا الوصف ؛ ويقولون إنى زوجك ، ولكنى لم أكن زوجا إلا بعد أن افتضح أمرى أمام الناس .

وإذا كنتِ قد دنستِ كثيراً من الألفاظ التى طويت عليها خطابك لكى ترفعى بها من شأنى وتعظمى من عاطفتك فلا تُبْقى على شىء منها ، وضعى فى مكانها ألفاظ القاتل

والنذل والعدو الذى ائتمر على تلويث شرفك و إقلاق راحتك وتدنيس طهرك ؛ ولولا رحمة لم تكن منتظرة أسقطتنى فى منتصف طريقى لكى تنجيك من البلاء المحقق لهلكتِ بسببى .

هذا ما يجب أن تذكريه عن ذلك الآبق الذى يزيده أن يقضى على كل أمل لك فى رؤيته . ولكن ليس أصعب على الإنسان من أن يعتزم الخلاص من الحب إذا كان صادقا مخلصاً فيه . ذلك أن الخلاص من العالم أسهل ألف مرة من الخلاص من الحب فى مثل هذه الأحوال . إنى أمقت هذا العالم المخادع الغادر ولا أفكر فيه الآن مطلقاً ، ولكن قلبى المضطرب لا يزال يبحث عنك على الدوام ، ولا يزال الألم يحز فيه لفقدك رغم ما لعقلى على هذا القلب من سلطان . ولتسمحى لى بألا أعرض نفسى عليك إلا فى هذه الصورة الأخيرة ، وإن كنت أرى أن من الجبن حقا أن أرجع إعما قرأته لى قبل ذلك فى هذه الرسالة .

واذكرى أن آخر مابذلتُ من جهود فى شئون هذه الدنيا كان كله موجها إلى غوايتك ، وأنك هلكت على يدىّ وهلكت أنا معك ، وابتلعتنا الأمواج سويا ، وترقبنا الموت بلا وجل ؛ ولو متنا وقتئذ لكان جزاؤنا فى الآخرة واحداً ، ولكن الله أنجانا من هذه العاقبة وألقت مصائبنا بكل منا فى ملجأ أمين . إن من الناس من يكفر الله عنهم سيئاتهم بآلامهم ، فلتكن نجاتى من ثمار صلواتكِ ، ودينًا أدين به لعبراتك وقداستك . إن قلبى يا إلهى لا يزال يفيض بحب إنسان من خلقك ، ولكنك قادر إذا شئت أن تطهره من كل حب غير حبك .

ولن يكون حبى هلواز حبا صادقا إلا إذا تركتها فى هذا الهدوء الشامل الذى لا تناله إلا عن طريق العزلة والفضيلة ؛ لقد عقدت على ذلك عزمى وسيكون هذا الخطاب آخر ذنوبى . أستودعكِ الله .

و إذا متُّ فى هذا المكان فسآمر أن تنقل رفاتى إلى بيت بركليت[1] ، وستشاهديني بعينك جثة هامدة ؛ ولست أقصد بذلك أن تبكى علىّ فلن يفيدنى البكاء وقتئذ ، بل ابكى علىّ الآن وأطفئى بدموعك النار المتأججة فى قلبى .

---

(١) Paraclete

ستريننى ليهولك منظر رفاتى فيزيدك صلاحا وتقى ، وليكن موتى عظة بالغة لك تعرفين منه ما تلقينه إذا أحببت الرجال ؛ وأرجو إذا جاء أجلك ألا تضنى علىّ بأن تُدفنى بقربى . لا حاجة لك بأن تخشى وقتئذ شيئا على رفاتك ، أما قبرى فسينال بذلك شرفا وفضلا.

* * *

وأخذ أبلار وهلواز فيما تبادلا من الرسائل بعد هاتين الرسالتين يعنيان بالأمور الفلسفية والدينية . وكتب أبلار يعتذر عن تأخره فى الرد على رسالة هلواز ، ويقول إن تأخره « لم يكن ناشئا من نقص فى العناية برسالتها ، بل كان سببه ثقته بعظمتها وعلمها وتقواها وإخلاصها ، ويقينه بأنها فى غير حاجة إلى من يرشدها أو يواسيها ... » . وحوت رسائله الأخيرة عبارات وفقرات طويلة اقتبسها من رسائلها الأولى وأشاد فيها « بحكمة الله ورحمته » ودعا لها كثيراً .

وأجابته هلواز بأن طلبت إليه أن « يضع بعض القواعد لهداية الراهبات وإرشاد الناس إلى أسلوب فى الحياة خاص بالنساء وحدهن . . . لأن الآباء الذين جاءوا من قبله لم يفعلوا هذا » . ثم تلت هذه الرسالة رسائل أخرى احتوت كثيراً من الأسئلة وكثيراً من الأجوبة فى تفاصيل العقائد الدينية . وقد عنى أبلار بالفعل بأن يجعل آخر خطاب له رسالة فى الرهبنة والعفة والزهد والسكون .

ومات أبلار فى السادسة والستين من عمره مضطهداً معذبا محروما من الأصدقاء . وأسلمت جثته إلى هلواز لتدفنها ؛ وبعد اثنتين وعشرين سنة من موته دفنت هلواز إلى جانبه ، ولا يزالان حتى الآن يرقدان جنبا إلى جنب فى مقبرة پير — لاشيز[1] فى باريس ، وقد كتب على قبر هذين العاشقين اللذين سارت بذكرهما الركبان العبارة الخالدة الآتية :

« هنا تحت حجر واحد يرقد مؤسس هذا الدير الأب أبلار ، ورئيسته الأولى هلواز ، وهما اللذان جمع بينهما الدرس والعبقرية والحب والزواج المشئوم والتوبة وما نرجوه لهما الآن من سعادة . مات پيتر فى ٢١ إبريل من عام ١١٤٢ وماتت هلواز فى ٧ مايو من عام ١١٦٤ » .

---

(١) Pére-Lachaise

دانتى الجيرى يرفض العودة إلى موطنه فى فلرنس

بعد أن ظل منفيا خمسة عشر عاما

[رسالة إلى صديق]

قضى دانتى الجيرى حامل لواء الشعراء فى العصور الوسطى العشرين سنة الأخيرة من حياته منفيا عن موطنه فى فلرنس .

وقد أخذ دانتى من عام ١٢٩٥ ، ولما يتجاوز السنة الثلاثين من عمره ، يضطلع بدور جدى فى سياسة المدينة ، وكان جل أمانيه ومرمى سياسته أن تنضم المدن الإيطالية الصغرى المستقلة ، والإمارات المتفرقة ، لتكون من أشتاتها دولة رومانية مقدسة . وكان يحلم بوجود دولة عالمية تقتسم السيادة على العالم مع كنيسة عالمية ، وكان هو وأنصاره يطلبون أن يكون السلطان الأعلى فى هذه الدولة المرجوّة للإمبراطور الحاكم الزمنى ، على حين أن أنصار البابا كانوا يطلبون أن يكون هذا السلطان للبابا الحاكم الدينى .

وكان من سوء حظ دانتى أن كان هو وأنصاره أضعف الطائفتين وأقلهما عدداً ، فتغلب عليهم أنصار البابا ، ونفى الزعماء ومن بينهم دانتى نفسه من فلرنس ، فأخذ يجول فى البلاد يكرمه بعض حكامها لعبقريته ، ويتعرض للخطر كلما حل ببلد بينه و بين فلرنس صداقة أو حلف . وكان على الدوام يرجو أن يعود إلى بلده الجميل ، معززاً مكرماً ، وأوشك هذا الرجاء أن يتحقق فى مرة أو مرتين . ذلك أنه لما مات هنرى السابع ، زعيم الدعاة إلى الإمبراطورية العالمية ، فى عام١٣١٣ ، فقدت الدعوة بموته أكبر نصير لها ، ولاح أن المبادئ التى كان دانتى وأتباعه ينادون بها أصبحت غير ذات خطر كبير . ومن أجل ذلك صدر عفو عام عن المنفيين من أنصارها بعد ثلاث سنين من موت هنرى ، وأخذ أصدقاء دانتى يلحون عليه فى أن يستفيد من هذا العفو الشامل .

لكنه لم يكن عفواً بالمعنى الصحيح . ذلك أن الشروط التى تضمنها كانت شروطا مذلة لمن كان مثل دانتى أبيا عزيز النفس . فقد اشتُرط لعودته أن يدفع مبلغاً كبيراً من

المال ، وأن يضع على رأسه قلنسوة من الورق ، وأن يسير بهذا الزى فى موكب يطوف بالمدينة ليعلن فيها توبته .

ولم يكن دانتى يطيق أن تمس كرامته على هذا النحو أو غيره ، فبعث بالرسالة التالية إلى صديق له غير معروف كان هو الذى دعاه إلى قبول هذه الشروط .

— ١٨ —

« أليس فى وسعى حيث حللت أن أنظر الى وجه الشمس والنجوم ؟ »

[١٣١٦]

تلقيت رسالتك التى حلت منى مكان الحب والإجلال ، ودرستها بعناية ، فتبين لى أن عودتى إلى فلرنس كانت شغلك الشاغل وموضع تفكيرك . وأنا شاكر لك هذه العناية ، ويزيد من شكرى لك علمى بأن من ينفى من بلده قلما يجد لنفسه صديقاً . وجوابى على رسالتك هو أن أرجو منك وألح فى الرجاء أن تقرأ هذا الرد بروية وإمعان قبل أن تصدر حكمك عليه ، وإن لم تجد فيه ما يرغب فيه بعض الجبناء منخوبى القلوب .

لقد تبين لى من خطاب ابن أخى وأخيك ، ومن رسائل بعض الأصدقاء الآخرين ، أن المرسوم الذى أذيع أخيراً فى فلرنس خاصا بالعفو عن المنفيين يجيز العفو عنى وعودتى فى الحال إلى وطنى على شريطة أن أؤدى مبلغاً من المال وأن أتقبل الإهانة المزرية بالشرف ، وهما يا أبى شرطان فيهما من السخف بقدر ما فيهما من سوء النصيحة ، أقصد سوء النصيحة من جانب من بعثوا إلىّ بهما لأن رسالتك أنت قد كتبت بحذر وحكمة فلم ترد فيها إشارة إلى هذين الشرطين .

هذه إذن هى الدعوة الجميلة التى وجهت إلى دانتى ألچيرى[1] ليرجع إلى بلده بعد أن ذاق الأمرين فى المنفى قرابة خمسة عشر عاما . وهذا هو جزاء الإخلاص الذى عرفه القاصى والدانى ، والكدح الدائم والدرس الطويل ! حرام على دارس الفلسفة أن يفعل هذه الفعلة الذميمة التى تنكس الأبصار وتجلل صاحبها العار ، فيرضى لنفسه أن يُعرض فى الطرقات كالمجرم المقيد بالأغلال ، كما ارتضى ذلك كيولو[2] وغيره من التعساء الأوغاد . حرام على

(١) Dante Aleghieri ، (٢) Ciolo

الخطيب الذى يدعو إلى العدالة ، بعد أن نزل به الظلم والعدوان ، أن يدفع شيئا من ماله إلى من اعتدوا عليه وظلموه ، كأنهم قد أحسنوا إليه فيجزيهم إحساناً بإحسان .

لا يا أبى ! لن أعود إلى بلدى من هذا الطريق ، فإذا كان ثمة طريق آخر ، وجدته أنت نفسك ، ثم وجده بعد ذلك غيرك ، لا يثلم شرف دانتى ولا يشين سمعته ، فإنى لا أتردد فى أن أسلكه ثابت الخطا . أما إذا لم يكن لفلرنس مثل هـذا الطريق ، فإنى لن أدخل فلرنس أبدا . و يلكم ! أليس فى وسعى أينما حللت أن أنظر إلى وجه الشمس والنجوم ؟ أليس فى وسعى أن أفكر تحت أى سماء فى أعظم الحقائق وأجلها قدراً دون أن أعود قبل ذلك التفكير إلى فلرنس ذليلاً مهيناً محقرا فى أعين مواطنىّ ؟ وهل أعدم القوت فى أى مكان ما حييت ؟

* * *

ولم يأت من فلرنس رد على العبارات البليغة التى احتوتها الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة . ولما كان دانتى قد رفض العودة بالشروط التى فرضت عليه ، فقد ظل أمر النفى قائما حتى ألغاه لورنزو العظيم[1] بعد موته بمائتى عام تقريباً . ومن أجل هذا لم يتم دانتى قصيدته الخالدة « الملهاة الإلهية »[2] فى فلرنس بل أتمها فى راڤنا[3] ، فلقد بدأ هذه القصيدة بعد أن مات هنرى السابع ، و بعد أن فقد هو آماله السياسية . ولعل جو فلرنس كان أجدر الجواء بأن يوحى إلى دانتى ختام وصف الجنة فى ملهاته . ولـكن ذلك لم يكن .

ومات دانتى فى السنة الخامسة والستين من عمره معذبا فى « جحيم » دنيوى لا يقل هولاً عن الجحيم الذى وصفه فى الملهاة .

---

(١) Lorenzo the Magnificent (٢) The Divine Comedy

انظر وصف هـذه الملهاة وما بينها وبين الفردوس المفقود لملتن من أوجه الشبه فى مقال مكولى عن ملتن أو فى ترجمتنا العربية له .

(٣) Ravenna

پترارك[١] يصعد إلى قمة جبل ڤنتو[٢]

ويفكر فى عظمة الروح الإنسانية

[رسالة إلى دينيسو ربتى[٣]]

وصف بعضهم دانتى بأنه « كوكب صباح النهضة » ، ولكن هذا الوصف أكثر انطباقاً على پترارك منه على دانتى . ذلك أن دانتى كان خير من عبر عن روح العصور الوسطى .

وكان پترارك وقت أن مات دانتى فى راڤنا طالباً فى منپلييه فى السابعة عشرة من عمره ، يعجب أشد الإعجاب بشيشرون وڤرچل[٤] ، ويدرك أنه هو نفسه أداة انتقال فى عصر من عصور الانتقال . ويدل كل عمل من أعماله على ثنائية طبعه ، ويظهر ذلك حتى فى حياته الخاصة . فقد كان يتردد بين العزلة الطويلة والتجوال من غير قصد ، يحب أن يستمتع بمزايا الوحدة ويولع بالمجتمعات الراقية فى أڤنيون[٥] وروما وميلان . ويصف رينان پترارك بأنه « أول رجال العصر الحديث » ، وليس الذى يميزه من غيره أنه كان مغرماً بآداب رومة القديمة إلى حد الجنون ، فإن له فى هذا الحب شركاء كثيرين ، ولكن الذى يميزه أنه ينظر إلى هذه الآداب بعين الناقد الذى يحاول أن يدرك ما كان لها من أثر فى حياة رجل القرن الرابع عشر ، فكان بذلك ممثلا لروح عصر النهضة أصدق تمثيل . هذا إلى أن پترارك لم يقنع بدراسة اللغة والآداب اللاتينية ، بل كان مغرماً بالآداب اليونانية يدرسها عن طريق تراجمها اللاتينية . وقد اشترى مخطوطات هوميروس وأفلاطون ، ولكنه لم يقرأها لأنه لم يجد من يعلمه قراءتها . وكان فوق هذا كله باحثاً منقباً عن آثار الأقدمين ، معجباً بها أشد الإعجاب .

وفى السادس والعشرين من شهر إبريل عام ١٣٣٦ ، صعد پترارك هو وأخوه جراردو[٦] جبل ڤنتو وهو قمة بالقرب من أڤنيون يبلغ ارتفاعها ٦٤٠٠ قدم . ولم يكن قصده من تسلقها إلا المتعة والرغبة فى المعرفة . وكان الناس فى العصور الوسطى يتسلقون الجبال فى

---

(١) Petrarch
(٢) Mount Ventoux
(٣) Dioniso Robeti
(٤) Virgil
(٥) Avignon
(٦) Gherardo

انتقالهم من مكان إلى مكان ، ولكنها كانت تروق لهم « ما داموا ينظرون إليها من بعيد ، على حد قول رسكن[١] . ومن أجل هذا نرى أن وصف بترارك لصعوده فوق الجبل يعد من بعض الوجوه انقلابا فى التفكير فى ذلك العصر .

— ١٩ —

« . . . ورأيت السحب تحت قدمى »

[فى ٢٦ ابريل سنة ١٣٣٦]

لقد صعدت اليوم أعلى جبل فى هذا الإقليم ، وهم يسمونه بحق جبل فنتو (الريح) . وكان يدفعنى إلى تسلق هذا الطود الشامخ مجرد الرغبة فى هذا الصعود . وكانت الرحلة تشغل بالى من عدة سنين ؛ فقد كنت من عهد الطفولة أتردد على هذا المكان ، تدفعنى إلى ذلك الأقدار التى لها فى شئون البشر نصيب كبير . هذا إلى أن منظر الجبل من المناظر التى لا تكاد تفارق العين فى هذا المكان . وأخيراً دفعنى دافع قوى إلى القيام بالعمل الذى طالما فكرت فيه — وزادنى شوقا إليه أننى وأنا أعيد قراءة كتاب ليفى[٢] فى تاريخ الرومان وصلت بالأمس إلى الفقرة التى يصف فيها هذا المؤرخ صعود فليپ ملك مقدونيا الذى حارب رومة — جبل هيمس[٣] فى تساليا[٤] ، وهو الجبل الذى يُرى من قمته البحران الأدرياوى والأسود كما يقولون — ولست أعرف هل صحيح هذا أو غير صحيح ، لأن هذا الجبل يبعد عن ديارنا ، ولأن الكتاب يختلفون فيما بينهم فى هذه المسألة .

وحسبى أن أذكر أن المؤرخ پمپونيس ميلا[٥] لا يتردد قط فى إثبات هذا القول ، على حين أن ليفى يكذبه . وإذا استطعت أن أرتاد هذا الجبل القريب فلن تبقى هذه المسألة موضعا للشك والجدل زمنا طويلا .

ولنعد بعد هذا الاستطراد إلى موضوعنا فنقول إنى ظننت أن ما لا يلام ملك مسن على فعله لا يلام عليه أيضا شاب يفعله فى حياته الخاصة .

لكن من العجب أنى حين فكرت فى الرفيق لم أجد من بين أصدقائى من يصلح

---

(١) Ruskin (٢) Livy (٣) Haemus

(٤) Thessaly (٥) Pomponius Mela

كل الصلاح لهذا الغرض . ذلك أن الإنسان قلما يجد حتى بين أحب الناس إليه من يتفقون معه كل الاتفاق فى تفكيره وعاداته ؛ فنهم من رأيته متوجسا قلقا ، ومنهم من كان خاملا كسولا ، هذا مسرف فى البطء وذاك مفرط فى السرعة ، وخامس شديد الاكتئاب وسادس كثير المرح — وقصارى القول أن بعضهم كان أكثر حمقا والبعض الآخر أشد حذراً مما كنت أريد . وكان صمت هذا وقحة ذاك ، ولحم هذا وشحمه وهزال ذاك وضعفه ، مما عاقنى عن المضى فيما اعتزمت . ورفضت بعض من تقدم إلى لنقص فى تَشَوُّفه ، ورفضت البعض الآخر لاهتمامه فوق ما ينبغى بشئون نفسه . وتلك كلها عيوب قد يطيقها الإنسان فى بلده مهما يكن لها من خطر لأن المحب يتغاضى فيه عن عيوب حبيبه ، ولأن الصديق يتحمل فيه جميع أعباء صديقه . أما فى الرحلات فإنها تصبح جد خطيرة ، ومن أجل هذا لم أر على نفسى حرجا فى أن أرضى ما فى طبعى من غريزة التريث والتشدد ، فتلفت من حولى ، ووزنت كل ما فى أخلاق الناس من فضائل ومعايب ، واستبعدت فى غير جلبة ، ومن غير أن أفقد صداقة أحد ، كل ما ظننت أنه قد يسبب لى شيئا من المتاعب فى رحلتى المنتظرة ، وأخيراً — ولعلك حزرت ما سأقول — وجهت وجهى نحو أسرتى أستعينها على مقصدى ، وعرضت الأمر على أخى الذى لا أخ لى غيره ، وهو أصغر منى سنا ، وأنت تعرفه حق المعرفة . وسره كل السرور أن يجيبنى إلى رغبتى ، واغتبط إذ وقع اختيارى عليه ليضطلع فى هذا العمل بدور الصديق ودور الأخ معا .

وخرجنا من منزلنا فى اليوم المعين ، ووصلنا فى مطلع الفجر إلى ملوسين[1] عند سفح الجبل من الناحية الشمالية ، وأقمنا هناك يوما ثم اصطحب كل منا خادما وتسلقنا قمة الجبل فى هذا اليوم الذى أكتب لك فيه ، ولقينا فى ذلك عناء كبيرا . والقمة كتلة ضخمة من الصخر الأصم ، وعرة المنحدر صعبة المنال ، ولكن الجد كفيل بالتغلب على الصعاب مهما استعصت . وكان النهار طويلا والجو جميلا ؛ وكنا جميعاً نمتاز بقوة العقل ونشاط الجسم ، ولم يكن أمامنا من العوائق إلا صعوبة المرتقى وانعدام المسالك . والتقينا عند طيات الجبل السفلى براع طاعن فى السن ، استنفذ ما فى وسعه لكى يثنينا عن عزمنا ، وقال إنه من خمسين سنة دفعته حماسة الشباب كما دفعتنا نحن إلى تسلق الجبل حتى بلغ القمة ، ولكنه لم يجن من وراء ذلك

(١) Malaucène .

إلا التعب والندم ، وإلا كدمات جسمه وتمزق ثيابه من كثرة ما اشتبكت بالصخور والأشواك . وقال إنه لم يسمع لا قبل ذلك الوقت ولا بعده أن إنسانا أقبل على ما نحن مقبلون عليه .

وبينا هو يضج ويصخب كانت رغبتنا تشتد كلما حاول أن يثنينا عن مقصدنا ، ذلك أن من عادة الشبان ألا يستمعوا لمثل هذا التحذير . ولما رأى الشيخ أن جهوده كلها قد ذهبت أدراج الرياح ، سار معنا قليلا ، ثم أرشدنا إلى طريق مُعْوِر بين الشعاب ، وأسدى إلينا بعض النصح ، ولم ينقطع عن نصحه وإرشاده حتى بعد أن افترقنا . وقبل أن نفترق تركنا معه ما كان يعوق حركتنا من الثياب والأدوات التى لم تكن لنا بها حاجة ماسة ، وأخذنا نجاهد فى تسنم الجبل فى حماسة شديدة ، ولكن هذه الجهود الجبارة ما لبثت أن أعقبها تعب شديد كما هى العادة ، فلم نر بدأ من الجلوس فى مكان قريب لنستريح ونجدد نشاطنا .

ثم واصلنا السير على مهل ، فسرت أنا فى الطريق الجبلى متباطئاً ، أما أخى فاتخذ إلى القمة طريقا أقصر من طريقى إذ تسلق منحدرات القلة نفسها ، ولم يتخذ الطريق المائل الذى اتخذته أنا لما كنت أشعر به من الضعف . ولما نادانى وأشار إلى الطريق المستقيم ، أجبته بأنى أرجو أن أعثر على مسلك خير منه فى الناحية الأخرى ، وأنى لا أخشى السير فى طريق أطول إذا كان الصعود فيه أسهل . ولم يكن هذا فى الحقيقة إلا حجة تذرعت بها للتباطؤ . واستبقنى الصحاب إلى ذروة الجبل ، وبقيت أنا أجول فى أنحائه أبحث فيها عن طريق سهل فلا أجده . وطالت الشقة وزاد طولها تعبى الذى لم أجن من ورائه نفعاً .

ولما خارت قواى ومللت هذا التجوال الذى لا هدف له ، شرعت أتسلق القلة التى أمامى مباشرة ؛ ولما التقيت بأخى وأنا مضطرب مكدود ألفيته ينتظرنى ، وقد عاد إليه نشاطه بعد راحة طويلة ، فسرنا بعض الوقت جنباً إلى جنب . ولكنا بعد أن صعدنا هذه القلة ، نسيت ماقاسيته من قبل حين افترقنا ، وانحدرت إلى أرض منخفضة وأخذت أجوس خلال الوديان متتبعاً طرقات الأودية السهلة حتى حاق بى الخطر مرة أخرى . والحق أنى كنت فيما أفعل إنما أحاول الفرار من الصعود فى الجبل ، ولكن الإنسان مهما أوتى من الذكاء لا يستطيع تغيير طبيعة الأشياء ، وليس فى مقدور الجسم المادى أن يتسنم المرتفعات بالانحدار إلى أسافلها .

ولـكن هـذا هو الذى حدث لى ثلاث مرات أو أربعاً فى بضع ساعات وسخر منه أخى وتألمت أنا منه .

و بعد أن خُدعت أو خدعت نفسى بهذه الطريقة أكثر من مرة جلست فى مطمئن من الأرض . وهنا انتقلت أفـكارى من الأمور المادية إلى الروحية فخاطبك نفسى قائلا : « ثق أن ما قاسيته اليوم فى تسنم القلل الشواهق تقاسيه أنت و يقاسيه كثيرون غيرك ممن يسـعون وراء الحياة الصالحة . ولـكن الناس لا يدركون هذا حق الإدراك لأن حركات الجسم تحدث فى خارجه ، أما حركات الروح فخافية عن الأعين . والحق أن الحياة الصالحة كما نسميها نحن تقوم على قلة ساحقة ، والطريق إليها ضيق تعترضه ربًى كثيرة ، ولابد للوصول إليهـا من أن يتنقل الإنسان من فضيلة إلى فضيلة كما يرقى الدرج العظيمة ، حتى يبلغ القمة وهى غاية كل شىء والهدف الذى تحط عنده الرحال . والناس كلهم يرغبون فى الوصول إلى هذه الغاية . ولـكن الرغبة لا تـكفى بل يجب أن أن يصحبها الاشتياق والحرص على بلوغ الغاية كما يقول أوفد[1] ، وما من شك فى أن لديك الاشتياق والحرص ، إلا إذا كنت تخادع نفسك فى هذا كما تخادعها فى كثير من الأشياء . وما الذى يقف فى سبيلك ؟ لا شىء مطلقا إلا الطريق السهل طريق الشهوات المنحطة الأرضية الذى يبدو لأول وهلة أنه أسهل الطرق . على أنك بعد طول التجوال لابد لك إما أن تتسنم الذروة مقتحما المتاعب بعد كثرة التسويف ، فتصل إلى الحياة الصالحة ، وإما أن تظل خاملا مستلقيا فى وادى الخطايا والذنوب . وقد يدركك الموت وظلمات القبر ، فتقضى ليلا أبديا فى عذاب مقيم » .

ومن عجب أن هـذا التفكير قد بعث القوة والنشاط فى جسمى وعقلى ، وأعاننى على إنجاز ما كان باقياً على ، وأرجو أن يوفقنى الله إلى إتمام ذلك العمل الروحى الذى تتلهف نفسى شوقا إليه بالليل والنهار ، كما أعاننى على تذليل ما اعترض قدمى من العقبات فى هذه الرحلة . ويخيل إلى أن العمل الذى تقوم به الروح الخالدة الرقيقة فى لمح البصر ، من غير أن تتحرك له حركة فى الفضاء ، أسهل بطبيعته من ذلك الذى يتحتم على الجسم الفانى الضعيف أن يقوم به على مهل ، وهو يرزح تحت عبء أعضائه الثقال .

---

(١) Ovid

ولنعد بعد هذا إلى رحلتنا الجبلية فنقول إن أعلى قلل هـذا الجبل هى القلة التى يطلق عليها الحطابون اسم « الابن الأصغر » . ولست أدرى لم يسمونها بهذا الاسم ، ولعل ذلك من قبيل تسمية الأشياء بأضدادها ، فهى فى نظرى أم القلل المجاورة لها كلها . وتنتهى هذه القلة ببقعة صغيرة منبسطة ، جلسنا عليها آخر الأمر لنستريح بعد مالاقينا من عناء . و بعد أن استمعتَ يا أبى إلى ما يجيش فى صدر المصعد فى الجبال من متاعب ، استمع أيضا إلى ما سأحدثك عنه بعد ، وأعرنى من وقتك ساعة تقرأ فيهـا ما فعلته فى يوم واحد من أيام حياتى . لقد أحسست بالنشاط يدب فى جسمى بفعل الهواء النقى والمنظر الفسيح ، فوقفت مشدوها ونظرت إلى الوراء ، فرأيت السحب تحت قدمى . و يبدو لى الآن أن القصص التى تروى عن جبلى آثوس وأليمپس[1] غير مبالغ فيها كثيرا ، لأنى أشاهد من فوق هذا الجبل الذى لا يدانيهما فى الشهرة كل ما قرأته وسمعته من قبل عن هذين الجبلين . ثم وليت وجهى شطر إيطاليا أحب البلاد إلى قلبى ، فأبصرت بعينى جبـال الألب يتوجها الثلج و يكتنفها الجليد ، وهى الجبال التى اجتازها عدو الرومان المتوحش الممقوت[2] ، بعد أن شق له طريقاً فى الثلوج بإذابتها بالخل (إذا صدقنا القصة المشهورة التى يرويها الناس عن هذه الحرب) . و بدت هذه الجبال قريبة منى و إن كانت فى الواقع بعيدة كل البعد عنى . ولست أنكر أنى حننت وقتئذ إلى إيطاليا وسمائها الصافية التى تصورتها وقتئذ فى عقلى ، و إن لم أرها بعينى . وتملكنى شوق لم أقو على دفعه لرؤية بلدى وأصدقائى ، ولـكنى لمت نفسى على هذا الضعف الذى لا يليق بالرجال و إن كنت أستطيع أن أجد لهذا الشعور ما يبرره من أقوال كبار الـكتاب . ثم لاحت لى فـكرة جديدة نقلتنى فى التو من المناظر الحاضرة إلى الأزمان الغابرة ، فقلت فى نفسى : «إن هذا اليوم هو ختام السنة العاشرة التى مرت عليك مذ غادرت مدينة بولونيا[3] ، وتركت عهد الصبا والدرس ، (رباه ! أنت الحى القيوم السرمدى ما أجل حكمتك!) . وما أعظم ماحدث فى أخلاقك من تغيير وتبديل فى هذه السنين العشر» . سأغفل فى هذه الرسالة أشياء لا حصر لها لأنى لم أصـل بعد إلى الميناء ، حيث أستطيع أن أذكر وأنا هادئ آمن ما مر بى فى رحلتى من أعاصير ولعل

---

(١) Olympus ، Athos (٢) يريد هانيبال (٣) Balogna

الأيام تتيح لى فرصة أذكر فيها أحداث هذه الرحلة كلها مرتبة حسب أزمانها ، فأقول كما قال أوغسطين : « أحب أن أذكر أقذارى الماضية وما اعترى روحى من فساد جثمانى ، وليس ذلك حبا فى ذكرها بل طمعا فى أن أحبك يا إلهى ! » .

إن أمامى كفاحا شاقا غير مأمون العواقب ! ولست أحب الآن ما كنت أحبه من قبل — لا ، إنى لا أقول الحق ، إنى أحب ولكنى أكثر مما كنت ندما على هذا الحب ، وإن يكن أكثر من حبى الماضى اعتدالا واحتباساً فى النفس .

وهأنذا قد نطقت الآن بالحق . إنى أحب ما لا أود أن أحبه ، وما أشتاق إلى كرهه ! إنى أحب مكرها مرغماً ، وذلك الحب هو منبع أحزانى وآلامى ، ويصدق علىّ قول القائل « لو استطعت لأبغضت ، أما وأنا لا أستطيع فإنى أحب مكرها » .

ولم تنقض بعد السنة الثالثة على ذلك الوقت الذى قام فيها عدو يناوئ تلك الشهوة الجامحة الخبيثة التى كانت تتملكنى وقتئذ وتسيطر وحدها على قلبى ، ولا يزال الكفاح الشديد قائما بين هذين العدوين فى ميدان أفكارى ، ولا تزال عاقبة الكفاح فى ذمة المستقبل .

وهكذا استعدت فى ذاكرتى أحداث تلك السنين العشر ، ثم انتقلت إلى المستقبل وسألت نفسى : « إذا قدر لك أن تطول بك هذه الحياة الفانية عشر سنين أخرى يقربك الله فيها من الفضيلة بقدر ما أبعدك فى السنتين الأخيرتين عن ضلالك القديم على أثر ما قام من النزاع بين إرادتك القديمة والحديثة ، ألا يكون فى وسعك أن تستقبل الموت فى سن الأربعين ، وأنت على ثقة من نفسك أو على الأقل وأنت راج عفو ربك ، وأن تنتظر فى هدوء أيام الحياة المقبلة التى تدنيك من الشيخوخة ؟ » .

كانت هذه الأفكار وأمثالها يا أبت تتعاقب على ، ولقد ابتهجت لصلاح حالى ، وحزنت لتقصيرى ، وأسفت على ما فى أخلاق الناس من ضعف ، وغرقت فى بحار الفكر ، فنسيت أين أنا ، وكيف يرانى غيرى ، وما كنت أبغيه من مجيئى إلى ذلك المكان . ثم أخليت ذهنى من متاعبى وكان أجدر بها ألا تشغلنى فى ذلك الوقت ، ونظرت حولى فأبصرت ما جئت لأبصره . وذكرت وقتئذ أن الوقت قد حان للعودة لأن الشمس أشرفت على المغيب واستطالت ظلال الجبل ، فالتفت كمن استيقظ من النوم ، ووليت وجهى نحو الغرب .

ولم تكن جبال البرانس وهى الحد الفاصل بين فرنسا وأسبانيا تُرى من ذلك الموضع . وليس سبب ذلك — على ما أعلم — أن حاجزاً طبيعيا يمنع هـذه الرؤية ، بل سببه ضعف قدرة الإنسان على الإبصار . لـكننا استطعنا أن نرى عن يميننا جبال ولاية ليون ، وعن شمالنا خليج مرسيلية فى جلاء ووضوح ، و إن كان بيننا و بينهما مسيرة عدة أيام . و بينا أنا معجب بهذا الشيء تارة وذاك تارة أخرى ، فحينا تقع عينى على شيء من متاع الدنيا ، وحينا تسمو روحى إلى حيث كان جسمى من قبل ، بدا لى أن أفتح كتاب « اعترافات أوغسطين[1] » وهو الذى أهديته أنت إلى تذكارا لحبك ، والذى لا أنساه مطلقا ، بل أحتفظ به أينما كنت اعترافا منى بفضل كاتبه ومهديه . وفتحت الـكتاب الصغير الحجم الجليل القدر لأقرأ فيه أول ما تقع عينى عليه ، لأن العين لا تقع فيه إلا على ما يوحى بالتقى والصـلاح . فتحته مصادفة عند الـكتاب العاشر ، وكأن أخى واقفاً يترقب ، وهو يظن أن سيستمع إلى أوغسطين يتحدث إليه بلسانى . وأشهد الله وأشهد سامعى على أن هذه الألفاظ هى التى وقعت عينى عليها ! « يخرج الناس من ديارهم ليمتعوا أبصارهم بمناظر الجبال الشامخة ، والأمواج المتلاطمة ومجارى الأنهار الطويلة المتعرجة ، مستعينين ببوصلة البحر ومواقع النجوم ، ويهملون أنفسهم » .

وأقسم أن قد ذهلت ، ورجوت أخى —وكان يتوق إلى أن أواصل القراءة— أن يكف عن مضايقتى ؛ ثم طويت الـكتاب وأنا ألوم نفسى أشد اللوم على أننى فى هذه الساعة بعينها كنت أعجب بالأشياء الأرضية ، وكان حقا علىَّ أن أعرف من زمن طويل من كتب الـكفار من الفلاسفة ، إن لم أكن عرفت من غيرهم ، أن لا شيء فى العالم جدير بالإعجاب غير الروح ، وهى فى ذاتها عظيمة إلى حد لا يجعل لغيرها إلى العظمة سبيلا . وقلت لنفسى حسبى ما رأيت من الجبل ، وأخذت أنظر إلى خبيئة نفسى ، وصمتُّ فلم أنبس ببنت شفة حتى نزلت إلى الحضيض[2] .

وقد حوت هذه الفقرة ما حملنى على التفكير العميق ، ولم أكن لأعتقد أنى قد وقعت عليها مصادفة ، وذكرت أن شيئا من هذا الاعتقاد قد خامر عقل أوغسطين نفسه إذ يحدثنا أنه كان يقرأ فى سفر الرسل فوقعت عينه على العبارة الآتية : « لا تحكموا شهوة الجسد ... . وأعمال الجسد الظاهرة... هى زنا ، عهارة ، نجاسة ، دعاره ... عداوة ، خصام ، غيرة ، سخط ،

---

(١) Augustine's Confessions . (٢) الحضيض هو القرار من الأرض عند أصل الجبل .

تخريب ، شقاق... ولـكن الذين هم للمسيح قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات » . وحدث هذا بعينه من قبل ذلك لأنطونيوس (مار أنطونيوس المصرى) حين سمع تلك الفقرة من الإنجيل : « إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء » . واعتقد أنطونيوس كما يقول اثناسيس[1] كاتب سيرته أن هذا القول موجه إليه فصدع بالأمر لساعته .

وكما أن أنطونيوس لم يطلب شيئا بعد ما سمع هذه العبارة ، وكما أن أوغسطين لم يذهب بعد أن قرأ هذه الفقرة إلى أبعد مما ذهب إليه ، كذلك حدث لى ، فكانت تلك العبارة آخر ما قرأت . وأخذت أفكر فى حقارة أغراض بنى الإنسان الذين يتركون عمدا نبل ما فيهم ويبحثون فى خارجهم عما يستطيعون أن يجدوه فى نفوسهم ، ويصرفون وقتهم فى أشياء لا حصر لها ، ويبددون جهودهم فى المظاهر الفارغة . وأخذت أفكر وأنا مندهش ذاهل فى عظمة الروح البشرية ، وهى عظمة تلازمها إلا إذا خرجت عن طبيعتها الأولى واستبدلت بما وهبها الله من مجد خزيا وعارا . وكثيراً ما وقفت فى ذلك اليوم وأنا عائد إلى بيتى ونظرت إلى قلة ذلك الجبل ، فخلتها لا تزيد على قيراط واحد إذا قيست إلى عظمة الأفـكار البشرية ، إلا إذا كانت هذه الأفـكار قد انغمست فى حمأة الأقذار الأرضية .

وقلت لنفسى أيضا فى كل خطوة خطوتها : إذا كنا نكدّ ونكدح طائعين لنقرب الجسم قليلا من جنة الخلد فأى عذاب أوسجن أو ألم يحول بين الروح و بين التقرب إلى الله ، والتسامى عن الـكبرياء وعدم المبالاة بالموت ؟ ولم أجد إلا القليل من الناس الذين لا يتنكبون عن هذا الطريق خوفا من الصعاب أو التماسا للراحة . وما أسعد من يسلـكه إذا كان فى الناس أحد يسلـكه ، أولئك هم الذين قيل فيهم بحق :

ما أسعـــد الرجل الذى   أخذ الدروس عن الطبيعه

لم يعنُ خوف الموت أو   قدر يهـــدد بالفجيعه

كلا ولم يخش الجحيم

وما أحرانا بأن نجدَّ ونسعى ، لا لنقف فوق الربى على ظهر الأرض ، بل لنطأ بأقدامنا الشهوات التى تنبعث من الدوافع الأرضية !

وعدت إلى المنزل الصغـير الذى بدأت منه رحلتى قبل مطلع الفجر ، وأنا لا أحس

---

(١) Athanasius

بوعورة الطريق ، وكانت تجيش فى نفسى هذه العواطف المنبعثة من العواصف الثائرة فى قلبى ، وكنا نهتدى فى سيرنا بالبدر فى كبد السماء . وبينا كان الخدم يعدون لنا العشاء انتحيت ناحية منعزلة فى الدار لأسجل فيها هذه الأفكار ، فقد كنت أخشى إن أنا لم أسجلها فى وقتها أن تفتر عزيمتى عن تسجيلها ، بعد أن يتغير مزاجى بتغير مكانى ... واعلم يا أبت العزيز أنى لا حب أن أخفى عنك شيئا مما فى نفسى ، بل إنى شديد الحرص على أن أكشف لك عن حياتى عامة وعن أفكارى متفرقة . وأرجو أن تتاح لهذه الأفكار التى ظلت أمداً طويلا حائرة غير مستقرة ، فرصة قريبة للاستقرار والثبات ، وأن توجه كلها إلى طريق الخير الحق الخالد الذى لا يتزعزع ، بعد أن وُجهت زمنا طويلا وجهات متفرقة وإلى غير غاية معروفة .

والسلام

* * *

ويأخذ بعضهم على پترارك أنه أفسد على نفسه جمال المنظر الذى رآه من قمة جبل ڤنتو بتفكيره المقبض فى الروح ، ولكن أولئك النقاد ينسون أن پترارك من رجال العصور الوسطى ، عصور التدين والتقشف ، وأن تلمس مخايل الأمور من كتاب أوغسطين أقرب إلى طبيعته من تسنم الجبل طلبا للمتعة واللذة ؛ وهم ينسون أن كثيرا من الشعراء فى عصر الإحساس المرهف قد كانوا وهم فوق السحاب ينظرون إلى نفوسهم النظرة المكتئبة التى نظرها پترارك إلى نفسه ؛ وهم ينسون أن پترارك كان وقتئذ غارقا فى حب آثم سجله فيما بعد فى كثير من الأغانى الجميلة ؛ وهم ينسون أخيرا أن پترارك كان يكتب إلى رجل من رجال الدين هو الراهب ديونيسيو ربرتى ، وأن ما ورد فى هذه الرسالة من بحث فى الروح وطبيعتها هو النغمة التى تلائم رجال الدين ، وخاصة إذا كان الراهب نفسه هو الذى أوصى پترارك بقراءة اعترافات أوغسطين ليصلح بها من شأنه ويقوى بها روحه . وفضلا عن هذا كله فإن كثيرين من القراء قد أثر فى نفوسهم هذا التحول الفجائى ، إذ يرون پترارك وقد ضاقت نفسه يلجأ إلى اعترافات أوغسطين فيفرج بها عن كربه . وما أجمل ما قاله فى ذلك جون أدنجتن سيمندس :

« قلّ أن تجد فى تاريخ الأدب ما هو أعظم أثرا فى النفس من هذه الزمالة الروحية ، حين يمسك پترارك بيد أوغسطين متخطيا بذلك تسعة قرون كاملة ، فترى آخر رجال العصر القديم وأول رجال العصر الحديث تمتزج نفساهما وتتلاقى عواطفهما » .

چان دارك تأمر الإنجليز أن يستسلموا قبل موقعة أورليان

فتاة أمية فى السابعة عشرة من عمرها تسير إلى شينون[١] فى فرنسا وتغير بسيرها هذا مجرى تاريخ هذه البلاد . اشتهرت چان دارك فى بلدتها دمريمى من أعمال اللورين ببراعتها فى حلب البقر وحرث الأرض وخياطة الملابس ، كما اشتهرت بالرؤى التى كانت تنظرها ، و « الأصوات » التى كانت تسمعها من سنت كترين وميكائيل ومرجرجت بل ومن جبريل نفسه . وجاءت چان إلى شارل ولى عهد فرنسا إطاعة لهذه الأصوات تعرض عليه خطتها التى رسمتها لطرد الإنجليز من الأقاليم الواسعة التى كانوا يحتلونها وقتئذ فى فرنسا ، ولإخضاع البرغنديين أحلاف الإنجليز .

ترى أية فتاة كانت چان دارك ؟ ذلك ما اختلف فيه الكتاب . فأما ڤلتير فيراها بطلة وإن كانت لا تسلم من بعض العيوب الخلقية ، وأما شلر فقد وصفها بأنها فتاة جميلة عنيفة ثائرة غريبة الأطوار ، وأما أناتول فرانس فيصورها فى صورة أداة طيعة فى يد كنيسة العصور الوسطى وقواد جيش شارل . وتخيلها مارك توين عذراء طاهرة جميلة عفيفة شريفة . وجاء برنرد شو[٢] بعد هؤلاء كلهم فجعلها أول امرأة عصرية . ولعل أقرب وصف لأخلاقها أنها جمعت القليل من هذا كله ، فكانت فتاة قوية الشكيمة ، مجازفة واسعة الحيلة فى القتال ، مستمسكة بأهداب الدين . فأما أنها كانت جميلة غريبة الأطوار فذلك من نسج الخيال ، وأما أنها طاهرة عفيفة فلم يشك فى هذا أحد من معاصريها حتى قضاتها أنفسهم .

وإذا تصورنا ما كانت عليه فرنسا فى أيام شارل السابع الخامل الضعيف الإرادة ، لم نعجب من استجابة الفرنسيين لنداء هذه الفتاة الريفية القوية الشكيمة . . وسارت چان يصحبها مشهورو الفرسان أمثال دونوا[٣] وجيل ده ريه[٤] لترفع الحصار عن أورليان ، وكان رفعه عنها هدفها الأول . ولعلها لم تكن تعلم وقتئذ أنها بعملها هذا تبث فى فرنسا روحا قومية ، ونزعة وطنية لن تقف عند حد طرد الإنجليز من البلاد ، بل ستدفع فرنسا إلى بسط سيادتها على أقاليم واسعة تمتد إلى جبال الألب .

---

(١) Chinon (٢) انظر رواية شو « چان دارك » فى سلسلة عيون الأدب الغربى للجنة التأليف .
(٣) Dunois (٤) Gille de Rais

واستفاضت الأخبار عن الجيش الصغير ، تقوده فتاة غريبة ، فى ملابس بيضاء ، تمتطى صهوة جواد أدهم ، تمسك فى يدها فأساً ، ولكنها تهزم الأبطال بدعائها وصلاتها . فاستسلمت لها القرى دون قتال ، وقبل أن ترفع الحصار عن أورليان أملت الرسالة التالية ، تطلب فيها إلى الإنجليز الذين كانوا يحاصرون المدينة أن يستسلموا لها . واتُّخذت هذه الرسالة فيما بعد دليلا من الأدلة التى قدمت لقضاتها لإثبات زيغها وكفرها .

— ٢٠ —

« لقد بعث بى الى هنا الله ملك السموات . . . . »

† المسيح ومريم †

ياملك الإنجليز ! وأنت يا دوق بدفورد[١] ، يا من تسمى نفسك نائب الملك فى فرنسا ، وأنت يا وليم ده لاپول[٢] ويا إرل سفلك[٣] ويا جون تابلت[٤] وأنت يا تومس[٥] ويا لورد اسكيلز[٦] يا من يسمون أنفسهم نوابا عن بدفورد هذا —

اخضعوا لملك السماء ، وقدموا إلى الفتاة التى أرسلها الله مفاتيح المدن العامرة التى استوليتم عليها وانتهكتم حرمتها فى بلاد فرنسا . لقد جاءت بأمر الله لتعيد الدم الملكى إلى البلاد ، وهى على استعداد للصلح إذا خضعتم واستسلمتم ، على شريطة أن تغادروا فرنسا وتؤدوا ثمن ما اغتصبتم منها . وأنتم أيها الرماة والأسياد والجند على اختلاف درجاتكم ، يا من تحاصرون أورليان ، أستحلفكم بالله أن ترحلوا إلى بلادكم ، فإذا أبيتم فعما قليل ترون الفتاة التى سيحل بكم على يديها الدمار .

أما أنت يا ملك إنجلترا فإذا لم تجب طلبى فاعلم أننى زعيمة عسكرية ، وأن رجالك أينما واجهتهم فى أرض فرنسا سيفرون من أمامى أرادوا ذلك أولم يريدوه ، فإن عصوا أمرى فسآمر بقتلهم . لقد أرسلنى الله ملك السموات إلى هذا المكان لألقاهم وجها لوجه ، وأخرجهم من أرض فرنسا ، فإذا استسلموا فسأعفو عنهم ، لا يخالجنك فى هذا شك . ولن يهبك الله

---

(١) Duke of Bedford
(٢) William de la Pole
(٣) Earl of Suffolk
(٤) John Talbot
(٥) Thomas
(٦) Lord Scales

مَلِكُ السموات مُلْكَ فرنسا ، بل سيكون هذا الملك لشارل وارثه الشرعى ، لأن الله يريد هذا ، وقد أوصى له به على لسان الفتاة ، وسيدخل باريس فى موكب عظيم .

فإذا لم تؤمن بهذه الأنباء التى أرسلها إليك الله والفتاة ، فسنقضى عليكم أينما وجدناكم ، وإذا لم تستسلموا فسنجعلكم عبرة لم تر فرنسا مثلها منذ ألف سنة . واعلم أن الله سيهب الفتاة قوّة تعجزون معها عن ملاقاتها هى وجنودها الأبطال .

وأما أنت يا دوق بدفورد فإن الفتاة ترجو منك وتطلب إليك ألا تسعى إلى حتفك بظلفك ، فإذا لبيت نداءها استطعت أن تنضم إلى رجالها حيث ترى الفرنسيين يعملون للمسيحية أعمالا لم تشهد مثلها من قبل . أجب من فورك هل تقبل الصلح فى مدينة أورليان أولا تقبله ؟ فإن كانت الثانية فستذكر قولى هذا وأنت تعض بنان الندم .

* * *

وسخر الإنجليز من چان واتهموها بأنها ساحرة ، ولكن سخريتهم لم تفدهم شيئاً ، فقد هزمتهم بجيشها الصغير وبددت شملهم . وعلل دوق بدفورد هذه الهزيمة المنكرة بقوله : « لقد كان سببها دون شك أن ولية الشيطان التى يسمونها الفتاة استعانت علينا بفنون السحر » .

وبعد ثلاثة أشهر من ذلك الوقت أى فى السابع عشر من شهر يوليو سنة ١٤٢٩ توجت چان شارل ولى العهد ملكا على فرنسا فى ريمز . ولكن حفلات التتويج أمكنت الإنجليز من أن يلموا شعثهم ، ويحصنوا باريس ، ويستقدموا المدد من بلادهم ، ويعززوا مواقفهم . فلما سارت چان إليهم بعد ذلك كانت تسير إلى الهزيمة . وفى شهر مايو من عام ١٤٣٠ قبض عليها البرغنديون أحلاف الإنجليز فى كمبنى . وغدر بها شارل السابع بعد أن توجته ملكا على فرنسا ولم يعد له حاجة بها ، فلم يعمل شيئاً لخلاصها . وباعها البرغنديون للإنجليز بعشرة آلاف قطعة من الذهب . وأسلمها هؤلاء إلى أسقف بوقيه[1] واتهموها بأنها كافرة وساحرة .

وجيء بها أمام جماعة من القضاة ورجال الدين يتراوح عددهم بين خمسين وستين ،

---

(١) Beauvais

ووجهت إليها سبعون تهمة منها سماع الأصوات ، ورؤية الأشباح ، والتزيي بزى الرجال ، ووضع اسم المسيح ومريم على رسائلها ، والطعن فى دين الله . وحاكموها وثبتت عليها اثنتا عشرة تهمة أنكرتها جميعاً ، غير أنها وُجدت بعد بضعة أَيام تلبس ملابس الرجال فحكم عليها بالإعدام .

ووضع على رأسها صليب كبير من الورق كتبت عليه هذه العبارة : « الكافرة التى عادت إلى المعصية ، المرتدة ، عابدة الأوثان » ، وأحرقت حية فى ٣٠ مايو سنة ١٤٣١ ، وأخرجت جثتها المحترقة من اللهب بعد أن احترقت ملابسها ، وعرضت على الناس ليتبينوا أنها امرأة حقا . ولما تم حرقها أُخذ رمادها وُبعثر فى نهر السين حتى لا تعود روحها فتنفذ مرة أخرى إلى أَرض فرنسا . ولكنهم قدروا فأخطأوا التقدير .

صورة من أخلاق بابوات النهضة يصورها واحد منهم

البابا پيس الثانى يقول لردريجو بورچيا

إن الكردينال يجب أن يكون مبرأً من العيوب

كان پيس الثانى رجلا عبقريًّا يجمع بين كثير من المتناقضات ، اشتهر قبل أن يرقى إلى منصب البابوية بعلمه وذكائه وفكاهته العذبة وبراعته السياسية . ألف رواية ومسرحية خالدتين . ولما انخرط فى سلك رجال الدين فى عام ١٤٤٦ فعل ذلك وهو يتطلع إلى مايستطيع أن يرقى إليه من مناصب فى الكنيسة لا حباً فى الحياة الدينية . ولم يبد منه فى حياته الجديدة أى حرص على إصلاح أمره والرجوع عن غوايته ؛ وكان يميل تارة إلى البابا وتارة إلى الإمبراطور فى النزاع القائم بينهما على سيادة العالم . وبهذه الوسيلة وأمثالها أصبح كردينالا وأميراً من أمراء الدولة الرومانية الشرقية ولما يمض عليه فى مناصب الكنيسة الصغرى أكثر من عشر سنين .

وكان إينياس سلفيس[١] وردريجو بورچيا[٢] زميلين من عهد الصبا ، وكان كلكستس الثالث عم ردريجو هو الذى رقى الاثنين إلى مرتبة الكردينالية . ولما مات كلكستس أخذ الرجلان يحيكان الدسائس ويأتمران حتى صار سلفيس بابا فى الثانية والخمسين من عمره .

وكان إينياس سلفيس لا يعبأ كثيراً بشئون الدين ، ويتحلل من جميع أوامره ونواهيه . فلما جلس على كرسى البابوية تبدلت حاله فأصبح مسيحيا متزمتا ، لا يتسامح فى صغيرة ولا كبيرة . وقد كتب بعد سنتين من جلوسه على كرسى البابوية الرسالة التالية إلى صديقه وزميله فى عبثه ردريجو بورچيا :

---

(١) Aeneas Sylvius اسم بيس الثانى قبل أن يرقى الى كرسى البابوية .
(٢) Rodrigo Borgia

— ٢١ —

« . . . إن الناس لا يتحدثون إلا عن غرورك . . . »

بتريولو[١] فى ١١ يونيه سنة ١٤٦٠

ولدى العزيز

ترامى إلى أنك قد نسيت ما يفرضه عليك منصبك السامى ، فبقيت من أربعة أيام فى حدائق چون ده بيشى[٢] من الساعة السابعة عشرة إلى الساعة الثانية والعشرين فى صحبة عدد من نساء سينا[٣] ، وهن نساء بعن أنفسهن لآثام هذه الدنيا ومغرياتها . وكان رفيقك فى هذا العبث زميلا لك كان خليقا بسنه ، بله كرامة منصبه ، أن تذكره بواجباته . وقد سمعنا أنكما أو غلتما فى الرقص فلم تتورعا فيه عن شىء ، ولم ينقصكما فى حفلكما شىء من مغريات الحب وغواياته ، وأنكما سلكتما فى ليلتكما مسلكا دنيويا أبعد ما يكون عما يفرضه الدين . إن الحياء يمنعنى أن أذكر ما حدث فى تلك الليلة ، فليس هو وحده مما لا يليق بكرامة منصبك ، بل إن مجرد ذكر اسمه مما يزرى بهذه الكرامة . ولقد أردت أن تطلق لفجورك وفسقك العنان ، فلم تَدْعُ إلى الحفل أحداً من أقارب النساء والفتيات اللاتى كن معك أو أزواجهن أو آبائهن أو إخوتهن . وكنت أنت وعدد قليل من الخدم زعماء هذه الفضائح والموحين بها .

وهم يقولون إن الناس لا يتحدثون فى سينا إلا عنك وعن فسادك الذى أصبح موضع سخرية الناس كافة . والذى لا شك فيه أن اسمك تلوكه الألسنة كلها فى هذه الحمامات حيث يكثر رجال الدين والدنيا .

وليس فى مقدورى أن أعبر لك عن مبلغ غضبى من فعالك ، فإن سلوكك هذا قد جلل بالعار منصبك وجلبب بالدنيئة دولتنا المقدسة . وسوف يقول الناس إنهم يعظموننا ويزيدون ثراءنا ، ولكننا لا نستعين بهذا الثراء وهذه العظمة على أن نعيش عيشة فاضلة مبرأة من العيوب ، بل نتخذها وسيلة لإشباع شهواتنا . ومن أجل هذا يزدرينا الأمراء وذوو السلطان ،

---

(١) Petriolo

(٢) John de Bichis

(٣) Siena

ويسخر منا رجال الدنيا . ومن أجله نرى الذين نلومهم على خطاياهم يجابهوننا بأساليب حياتنا . وإذا كان من يرتكب هذه الدنايا جديراً بالاحتقار ، فأجدر منه الرئيس الديني الذي يراها ويتغاضى عنها .

وأنت ياولدى العزيز قد وكل إليك أمر أبرشية بلنسية أعظم أبرشيات أسبانيا ، ثم إنك فوق هذا ذو منصب سام فى الكنيسة ، وإن وجودك بين الكرادلة مستشارى السدة الرسولية ليجعل سلوكك فى أعين الناس أكثر إجراما وشناعة . وفى وسعك أنت نفسك أن تحكم هل يليق بكرامتك أن تغازل الفتيات ، وأن ترسل إلى من تحبهن الفاكهة والخمر ، وأن تقضى اليوم كله لا تفكر إلا فى شهواتك الجسمية ؟ إن الناس يحقروننا بسببك ، وقد سربلت بالعار تلك الذكرى الطيبة ذكرى عمك كلكستس ، وما أكثر من يقولون إنه أخطأ حين منحك ما منحك من ألقاب الشرف الكثيرة . وإذا حاولت أن تعتذر بشبابك عن سىء أعمالك فأعلم أنك لست من الصغر بحيث يخفى عنك ما يفرضه عليك منصبك .

إن الكردينال يجب أن يكون مبرأً من العيوب ، ويجب أن يكون مثالا يحتذى فى الحياة الصالحة أمام أعين الناس جميعاً ، فإذا فعلنا هذا كان لنا ما يبرر استياءنا حين يصفنا الأمراء الزمنيون بما لا يرضينا ، وحين ينازعوننا أملاكنا ، ويرغموننا على الخضوع لإرادتهم . والحق أننا بأفعالنا هذه نطوق أنفسنا العار ، وأننا سبب ما نحن فيه من شقاء ؛ فسلوكنا هو الذى ينقص كل يوم من سلطان الكنيسة ، ويجر علينا التحقير والمهانة فى هذه الدنيا والعذاب الذى نحن خليقون به فى الآخرة .

فلعل حكمتك أن تردك عن طيشك ، ولعلك لا تغفل قط عن كرامتك ؛ فإذا فعلت فلن يلقبك أحد بالعابث المستهتر زير النساء . أما إذا لم تقلع عن غيك فستضطرنا بعملك إلى أن نعلن إلى الناس أنك تعصى أوامرنا وأنك تُمِر بفعالك عيشنا . فإذا فعلنا ذلك فسيكون سبة باقية لك فى الأعقاب .

لقد كنا على الدوام نحبك ونعتقد أنك أهل لحمايتنا ، وأنك رجل جد وتواضع ؛ فاسلك من الآن سبيلا يحقق ظننا فيك ، ويجعلك مثالا للحياة الصالحة المتزنة . ولست أنت بالأصم الذى لا يستمع إلى داعى الإصلاح ، ومن أجل هذا نحذرك تحذير الآباء .

* * *

ولم يفد هذا اللوم والتقريع الكردينال بورچيا فى شىء ، وظل سادراً فى غوايته ، يحيا حياة شهوانية طليقة . وقد وصفه بعضهم فى ذلك الوقت بأنه « وسيم الخلْق ، جميل الوجه ، طلق المحيا ، تخضع له النساء بنظرة واحدة ، يجذبهن إليه جذب المغنطيس للحديد » . ولما ارتقى عرش البابوية بعد ثلاثين سنة من ذلك الوقت باسم البابا اسكندر السادس لم يفقد وهو فى سن الستين شيئاً من جمال منظره وفخامته ، ولم يقلع عن عبثه وفجوره ، بل لعل سلطانه الجديد قد هيأ له جميع أسباب الفسق والفجور حتى صار فيهما مضرب المثل فيهما .

أما بيس الثانى فلم يكن عجزه عن إصلاح الكنيسة ليقل عن عجزه عن إصلاح صديقه بورچيا ؛ وتملكته فى آخر أيامه فكرة الدعوة إلى حرب صليبية يشنها على الأتراك الذين استولوا على القسطنطينية فى عام ١٤٥٣ ؛ ولكن أحداً لم يستجب لندائه ، فجمع شرذمة قليلة العدد من الجنود المرتزقة ، وهمّ أن يسافر بهم لمحاربة الترك ، ولكن المنية عاجلته فأنجته من الخيبة والمذلة .

كرستوف كولمب يصف شعوره

حين وقعت عينه على أرض أمريكا

رسالته إلى جبريل سانشيه وزير مالية فردنند ملك أسپانيا

كتب كرستوف كولمب وصفا مطولا لرحلته العظيمة على رق متين ، ولفها لفًّا محكما فى قماش لا ينفذ فيه الماء ، ثم وضعها فى صندوق عليه إطار من حديد وألقى بها فى أمواج المحيط الصاخبة .

وليس هذا الوصف بطبيعة الحال هو الذى تحتويه الرسالة التالية ، بل إنها تحتوى وصفاً آخر لكشفه العظيم بعث به إلى جبريل سانشيه[١] وزير المالية فى حكومة الملك فردنند . ويقول المستر لول[٢] مدير جامعة هارڤرد بأمريكا : « لم يكن كولمب حين بدأ رحلته يعرف أين هو ذاهب ، ولما وصل إلى نهايتها لم يكن يعرف أين وصل ، ولما رجع لم يكن يعرف أين كان ، ولكنه رغم هذا كله كشف أمريكا » .

وتدل آخر الأبحاث عن شخصية كولمب أنه كان من يهود أسپانيا ، وأن أسلافه لجأوا إلى جنوا فرارا من محكمة التفتيش . وقد أرسلت جامعة هارڤرد من وقت قريب بعثة علمية سارت فى الطريق الذى سار فيه كولمب ، لتعرف هل كان كاشف أمريكا بحارا بحق أو كان رجلا من عامة الناس تملكته فكرة غريبة عن « وجود شىء غير الحيوانات المهولة وراء أفق المحيط الأطلنطى » .

وكانت البعثة مؤلفة من ثمانية من البحارة المدربين ورئيسهم فى سفينتين ، فسافرت من كادز[٣] فى أسپانيا إلى جزائر مديرا وكنارى (الخالدات) ، ثم إلى ترنداد[٤] ، وسارت بعدئذ بإزاء أمريكا الوسطى . وقضت فى ذلك أكثر من أربعة أشهر وهى توازن بين ما تشاهده ، و بين ما كتبه كولمب فى مذكراته اليومية وما كتبه ابنه . ولما أتمت عملها أعلن

---

(١) Gabril Sanchez

(٢) Lowell

(٣) Cadiz

(٤) Trinidad

رئيسها الدكتور مرسن[١] أن كولمب « كان من كبار الملاحين ، وأنه كان فضلا عن ذلك رجلا قوى الملاحظة ثاقب الرأى قوى الإحساس بالجمال » .

ويرى بعض المؤرخين أن رجلا من أهل جزيرة أيسلندا[٢] يدعى بجارنى هرچلفسن[٤] كشف أمريكا فى عام ٩٨٧ م قبل أن يولد كولمب بأكثر من أربعمائة وخمسين عاما . ولعل رجلاً آخر من أهل أيسلندا أيضاً قد وطئت قدماه أرض أمريكا فى عام ١٠٠٠ ق.م. أما كولمب نفسه فلم ينزل بأرض أمريكا الشمالية أوالجنوبية ، ومات ولم يعرف أنه كشف عالما جديداً . وجدير بنا أن نذكر بهذه المناسبة أن اسم كولمب الحقيقى لم يكن كولمب أو كولمبس بل كرستوبال كولون[٣] .

ويصف كولمب فى الرسالة التالية التى كتبها إلى الملك فردنند الجزائر التى كشفها «فى البحر الهندى وراء الكنج » كما كان يعتقد هو . وفيها يجد القارئ وصفاً لأمريكا « كما خلقها الله » ، بقلم شاهد عيان . وقد نشرت الرسالة باللغة الأسپانية فى مدينة برشلونة فى شهر إبريل من عام ١٤٩٣ ، وفيها أقدم المعلومات عن هذا الحادث الهام الذى افتتح عالماً جديدا .

وقد استغرقت رحلة كولمب نفسها مائتين وأربعة وعشرين يوما من ٣ أغسطس سنة ١٤٩٢ إلى ١٥ مارس سنة ١٤٩٣ . فنى اليوم الأول أقلع من مدينة پالوس[٥] على شاطئ أسپانيا الجنوبى فى السنة الواحدة والأربعين من عمره ومعه ثلاث سفن صغيرة هى : سانتاماريا ، وپنتا ، ونينا[٦] . وفى اليوم الأخير عاد إلى هذا الثغر نفسه بسفينة واحدة . ولايزال المؤرخون يقولون إن كولمب حين رسا على ساحل جزيرة وتلنج[٧] إحدى جزائر بهاما[٨] فى اليوم الثانى عشر من اكتوبر عام ١٤٩٢ كان يعتقد أنه بالقرب من سپنجو[٩] أى اليابان . ولكن سيرته التى كتبها سلڤدور ده مدرياجو[١٠] بعد درس وتمحيص دقيق ، وهى آخر ما كتب عن سير هذا الرحالة ، تدل على أنه حين غادر أسپانيا لم يكن يقصد إلا أن يقلع بسفنه ويسير غربا حتى يعثر على شىء ، سواء أكان هذا الشىء هو سپنجو أم

---

(١) Dr Morison
(٢) Iceland
(٣) Bjarni Herjulfsson.
(٤) Christobal. Colon
(٥) Paloo
(٦) Nina, Pinta, Santa Maria
(٧) Watling
(٨) Bahamas
(٩) Cipango
(١٠) Salvador de Madariago

جزيرة من آلاف الجزائر التى كان يعتقد كما يعتقد غيره من معاصريه أن الغرب المجهول حافل بها » . ومهما يكن من هذا الأمر فإن فى الرسالة التالية وصفاً كتبه كولمب نفسه لما شاهده بعينيه بعد أن عاد إلى بلاده فى اليوم الثانى عشر من أكتوبر عام ١٤٩٢ :

— ٢٢ —

« ذلك وصف موجز لما عملناه »

إنى لأعلم بعد أن أفلحت فيما أردت القيام به أن عملى هذا سيسرك ، ولذلك اعتزمت أن أقص قصته عليك حتى تكون على علم بكل ما فعلنا وما كشفنا فى رحلتنا .

فى اليوم الثالث والثلاثين بعد سفرنا من قادز وصلتُ إلى بحر الهند فوجدت فيه جزائر كثيرة تسكنها خلائق لا يحصى عددها ، فاستوليت عليها جميعاً لتكون ملكا لملكنا السعيد ، ورفعت عليها الأعلام ، وأعلن ذلك المنادون ، ولم يعترض أحد على هذا العمل . وأطلقت على أولى هذه الجزائر اسم منقذنا الأمين[١] الذى أعاننى على الوصول إليها وإلى غيرها من الجزائر . والهنود يسمونها جوانا هانى[٢] ؛ وكذلك سميت كل جزيرة أخرى باسم جديد ، فسميت واحدة سانتا ماريا[٣] وسميت أخرى فرننديا[٤] وأسميت ثالثة إزبلا[٥] ورابعة جوانا[٦] ، وفعلت مثل هذا فى سائر الجزائر .

ولم نكد نصل إلى تلك الجزيرة الأخيرة التى قلت تواً إنى أسميتها جوانا حتى سرت بجوار ساحلها نحو الغرب مسافة ما فوجدتها كبيرة ، ولم أر لها نهاية حتى ظننت أنها ليست جزيرة بل البلاد الواسعة المعروفة باسم كاثاى[٧] . على أنى لم أر على سواحلها بلداناً أو مدناً كبيرة ، بل شاهدت قرى ومزارع صغيرة لم أستطع التحدث مع أهلها لأنهم حين أبصرونى ولوا الأدبار .

---

(١) بالأسبانية San Salvador واختلف الناس فى أمرها ، ولكن الكثرة الغالبة من الجغرافيين تعتقد أنها جزيرة وتلنج .

(٢) Guanahany — (٣) Santa Maria

(٤) Fernandina — (٥) Isabella

وهذه الجزائر الخمس مختلف فيها .

(٦) أما جوانا Juana فهى جزيرة كوبا المعروفة . — (٧) الصين

ثم واصلت السير لعلى أجد مدينة أو دارا كبيرة ، ولما رأيت أننا قد سرنا طويلا دون أن نظفر بشىء منها ، وأن طريقنا أخذ يتجه شمالا ، — وهو ما لم أكن أرغب فيه ، لأنا كنا فى الشتاء ولأن وجهتى كانت نحو الجنوب — ولما وجدت فضلا عن هذا أن الريح أخذت تعصف عصفا شديداً ، أيقنت أن لا فائدة من مواصلة السير ، فعدت إلى خليج كنت شاهدته من قبل ، و بعثت منه اثنين من رجالى إلى داخل الجزيرة ليعرفا هل فيها ملك أو مدن . وسار الرجلان ثلاثة أيام وشاهدا دوراً ومدناً لا عديد لها ، ولكنها كلها صغيرة وليست لها حكومة ، فرجعا إلىّ . . . .

وتحيط بالجزيرة كلها موان واسعة آمنة لا يفضلها قط ميناء من الموانى التى شاهدتها طوال حياتى ، وتجرى فيها أنهار عظيمة طيبة المياه ، وفيها كثير من الجبال الشاهقة ، والجزائر كلها جميلة المنظر تمتاز بخصائص متباينة ، فالوصول إليها يسير ، وأشجارها كثيرة مختلفة الأنواع ، عالية تناطح السحاب ، ولا أظن أنها تتعرى من أوراقها فى فصل من فصول العام ، لأنى وجدتها خضراء مورقة كأشجار أسپانيا فى شهر مايو ، ورأيت معظمها مزهراً ، و بعضها مثمراً ، وكلها نامية حسب أجناسها الخاصة . ورأيت حين ذهبت لارتيادها البلابل وغيرها من الطيور المغردة التى لا حصر لها تغرد فوق الأشجار فى شهر نوفمبر .

وفى جزيرة چوانا فضلا عن هذا كله سبعة أنواع من النخيل أو ثمانية ، تفوق نخيل بلادنا فى ارتفاعها وجمالها ، شأنها فى ذلك شأن سائر أشجار الجزيرة وأعشابها وثمارها . وفيها أيضاً طائفة من أشجار الصنوبر الجميلة ، وتتخللها السهول والمراعى ، وتكثر فيها الطيور المختلفة ونحل العسل والمعادن عدا الحديد ؛ وفى الجزيرة المسماة هسپانا[١] جبال عالية جميلة المنظر ، وحقول واسعة ، وغياض وسهول خصبة تصلح للحرث والزرع و بناء المساكن .

وليس فى وسع الإنسان أن يدرك سهولة الوصول إلى موانى الجزيرة أو كثرة ما بها من الأنهار التى يطيب بها الهواء و يصح بها الجسم إلا إذا رأى ذلك كله بعينيه . وتختلف أشجارها ومراعيها وفاكهتها عن مثيلاتها فى چوانا وهى إلى ذلك غنية بأنواع التوابل المختلفة و بالذهب وغيره من المعادن .

---

(١) Hispana

والناس فى هذه الجزيرة وفى سائر الجزائر التى رأيتها أو عرفت أحوالها يسيرون عُراة كما ولدتهم أمهاتهم رجالا كانوا أو نساءً ، لا يستثنى منهم إلا بعض النساء اللاتى يسترن عوراتهن بورقة أو ببعض أوراق من الشجر ، أو بقطعة من نسيج القطن ينسجنها لهذا الغرض .

وليس لدى هؤلاء الناس كلهم ، كما قلت من قبل ، شىء من الحديد على اختلاف أنواعه ، وليست لديهم أسلحة ، فهم لا يعرفونها ولا يستطيعون استعمالها . على أن هذا لا يرجع إلى نقص فى أجسامهم ، فهم كلهم أقوياء أصحاء ، بل يرجع إلى خوفهم وضعف قلوبهم . غير أنهم يتخذون لهم أسلحة من الغاب المجفف فى الشمس ، يثبتون فى أطرافها السفلى سهاما من الخشب المجفف المدبب ، ولكنهم لا يجرؤون على استخدام هذه الأسلحة على الدوام ، فكثيرا ما حدث حين أرسلت اثنين أو ثلاثة من رجالى إلى بعض قراهم ليتحدثوا إلى سكانها أن كانت تخرج طائفة كبيرة من الهنود فى صفوف متراصة ، حتى إذا رأوا رجالنا مقبلين ولوا الأدبار ، يدفع الآباء منهم أبناءهم والأبناء آباءهم . ولم يكن ذلك لأن واحدا منهم قد أوذى أو أسىء إليه ، لأنى أعطيت كل من زرته وكل من استطعت أن أتحدث إليه منهم شيئاً مما لدى ، قماشا كان أو غيره من الأشياء الكثيرة التى كانت معى ، ولم آخذ منهم فى نظيرها شيئاً ؛ بل كان سبب خوفهم أنهم بطبيعتهم وجلون هيابون . على أنهم إذا رأوا أنهم آمنون اطرحوا خوفهم ، وتبين الإنسان أنهم طيبو القلب يُركن إليهم ، وكرماء لا يضنون على أحد بما لديهم ، بل إنهم هم أنفسهم كانوا يدعوننا إلى أن نطلب ما نريده منهم . وهم يظهرون من الحب لغيرهم أكثر مما يظهرون لأنفسهم ، ويعطون ما لديهم من أشياء عظيمة القيمة نظير أشياء تافهة ، ويقنعون بالقليل الذى نقدمه لهم ، بل كانوا أحيانا يرضون بغير عوض . على أنى قد أمرت ألا يعطى لهم من الأشياء ما كان صغيرا تافها ، كقطع الصحاف والأطباق والزجاج والمفاتيح وأربطة الأحذية ، وإن خيل إليهم حين كانوا يُعطون هذه الأشياء أنهم نالوا أجمل جواهر العالم . . .

وليس ثمة فرق بين ملامح الناس فى هذه الجزائر كلها ولا فى لغاتهم ، فكلهم يفهم بعضهم بعضاً ، وهو أمر له خطره فى الغرض الذى أرى أن مليكنا العظيم يحرص على تحقيقه ، وهو نشر دين المسيح بينهم ، ومبلغ علمى أنهم مستعدون إلى ذلك راغبون فيه . . .

ولقد عرفت أن الرجل فى هذه الجزائر كلها يقنع بزوجة واحدة ، لا يستثنى من ذلك

إلا الأمراء والملوك ، فهؤلاء يسمح للواحد منهم بعشرين زوجة ؛ ويبدو أن النساء يعملن أكثر من الرجال . ولم أتبين على وجه التحقيق هل يسرى نظام الملكية الفردية بينهم ، فقد رأيت رجلا واحداً منهم يقوم بتوزيع الحاجيات على غيره ، وبخاصة المرطبات والطعام وما ماثلهما من الأشياء . . .

فما أعظم هذا وأعجبه ! إنه لا يماثل تقاليدنا نحن بل ينطبق على تقاليد المسيحية المقدسة وعلى دين ملوكنا وتقواهم ؛ ولا غرابة فى هذا فإن ما لا تدركه العقول البشرية تهبه للخلق العناية الإلهية ، لأن الله يستجيب إلى دعاء عبيده الذين يحبون شريعته ولو طلبوا المستحيل ، كما حدث لنا نحن فى حالتنا الراهنة إذ بلغنا ما لم يبلغه قبلنا أحد من بنى الإنسان .

ذلك أنه إذا كان أحد قد كتب شيئاً عن هذه الجزائر أو تحدث بشىء عنها ، فإن ذلك كله كان حدساً وكلاماً مبهما غامضاً ، ولم يدّع أحد أنه رآها ؛ ولذلك كانت هذه الأقوال أشبه بالخرافات والأوهام . ومن أجل هذا يجدر بالملك والملكة ، وبالأمراء وسكان ممالكهم السعيدة ، وغيرهم من سكان الأقطار المسيحية جميعها ، أن يحمدوا الله الذى خصنا بهذا النصر العظيم ، فلنُقِم الاحتفالات الدينية والأعياد المقدسة ، ولننصب التيجان على الكنائس ، وليغتبط المسيح فى الأرض كما يغتبط فى السماء حين يرى تلك الآلاف المؤلفة من الأرواح البشرية قد نجت من الضلال ، ولنبتهج نحن أيضاً بالنصر الذى ناله ديننا ، وبالخير الذى سيعود علينا فى دنيانا ، وهو الخير الذى لن تختص به أسپانيا بل سيشاركها فيه العالم المسيحى بأجمعه . وبعد فذلك وصف موجز لما عملناه والسلام .

لشبونة فى اليوم السابق لمنتصف شهر مارس[1]

كرستفر كولمبس أمير أسطول المحيط

***

وقام كولمب بعد هذه الرحلة بثلاث رحلات أخرى إلى أمريكا كان آخرها عام ١٥٠٣ . وقد عين حاكما على بعض المستعمرات الأسپانية ، ولكن أيامه الأخيرة كانت كلها بؤساً وخيبة ، فقد عاد من رحلته الثانية إلى أسپانيا ذليلاً وضيعاً ، وعاد من رحلته الثالثة مكبلا بالأغلال . ولما عين فى آخر الأمر حاكما على إحدى المستعمرات الأسپانية عجز عن إدارتها عجزاً تاما وجوزى على ظفره وعجزه جزاء سنمار .

(١) من عام ١٤٩٣ .

ليوناردو داڤنشي يطلب إلى دوق ميلان

أن يكل إليه عملا

كان ليوناردو داڤنشي من أشهر الشخصيات فى عصر النهضة العظيم . و إن ما يذكره فى رسالته التالية من قدرة على كثير من الأعمال المختلفة لما يثير الدهشة حقا ، ولكنه كان فى وسعه أن يضيف إلى سلسلة الكفايات المتنوعة التى ذكرها فى هذه الرسالة طائفة غيرها من الكفايات . كان فى وسعه أن يضيف إليها أنه عالم فى طبقات الأرض ، وفى النبات والحيوان ، وبارع فى كثير من الفنون والعلوم .

وكان مولد ليوناردو داڤنشي على بعد أميال قليلة من مدينة فلرنس فى عام ١٤٥٢ . ولسنا نريد أن نكتب سيرته فى هذه العجالة ، وحسبنا أن نقول عنه إنه كان يعتقد أن الطيران فى مقدور الإنسان ، و إنه وضع بالفعل نموذجا لطيارة . واشتهر ليوناردو فوق هذا بصوره البديعة وهواياته المتعددة ، وبكثرة ما كتب ، كما يشتهر بعمق أفكاره واتزانها . وكان ليوناردو فى السنة المتممة للثلاثين من عمره حين ضاق ذرعا بحياته فى فلرنس التى دب فيها الضعف فى عهد آل مديشى ، فغادرها إلى ميلان التى تألق نجمها فى عهد لدڤيكو اسفورزا ، وهو الذى كتب إليه الرسالة التالية يطلب إليه فيها أن يكل إليه عملا :

— ٢٣ —

« . . . بعض أسرارى »

لقد شهدتُ يا مولاى التجارب التى أجراها كل من يدعون أنهم برعوا فى اختراع آلات القتال ، وفكرتُ فيها فوجدت أنها جميعا لا تختلف عما يستخدمه الناس جميعا . ولذلك جرؤت دون أن أسىء بذلك إلى أحد قط أن ألتمس من فخامتك موعداً أحدثك فيه عن بعض أسرارى .

١ — فنى استطاعتى أن أصنع قناطر خفيفة قوية سهلة الحمل لا يصعب على حاملها أن يطارد العدو ويهزمه ؛ وفى وسعى أن أصنع قناطر غيرها أكثر منها صلابة لا تؤثر فيها النيران

ولا غارات الأعداء ، ولـكنها مع ذلك لا يصعب نقلها ووضعها فى أماكنها ؛ وفى مقدورى فضلا عن ذلك أن أحرق جسور العدو وأدمرها .

٢ — وأستطيع فى الحصار أن أمنع الماء عن الخنادق ، وأن أصنع جسورا عوامة وسلالم لتسلق الجدران وما إلى هذه وتلك من المخترعات .

٣ — وإذا استحال تدمير مكان بالقنابل لارتفاعه أو منعته فإن فى طاقتى أن أدمر كل حصن إذا لم تكن قواعده مقامة على الحجر الصلد .

٤ — وأستطيع أن أصنع مدفعا خفيفا سهل الحمل ، يرمى بالحجارة كالبرد ، ويرعب دخانه الأعداء ، وينزل بهم الخراب والدمار ، ويشيع فى صفوفهم الذعر والاضطراب .

٥ — وأستطيع أن أنشئ من غير ضوضاء ممرات تحت الأرض توصل إلى أى مكان أريد ، سواء كانت هذه الممرات مستقيمة أو ملتوية ، وتمر إذا دعت الضرورة تحت الخنادق والأنهار .

٦ — وأستطيع صنع عربات مسلحة تحمل المدافع ، وتخترق صفوف الأعداء المتراصة الـكثيفة ، وتشق طريقاً آمنا إلى مشاته .

٧ — وأستطيع إذا دعت الضرورة أن أصنع مدافع ضخمة كبيرة ، وأخرى خفيفة تمتاز بجمال الصنع وعظيم النفع ، وتختلف عن المدافع المألوفة فى هذه الأيام .

٨ — وفى وسعى ، حيث لا يستطاع استخدام المدافع ، أن أستعيض عنها بمجانيق وقذافات وما إليها من الأدوات العجيبة الصنع العظيمة الأثر التى لا تستخدم فى وقتنا الحاضر . وقصارى القول أنى أستطيع إذا جد الجد أن أصنع ما لا يحصى من أسلحة الهجوم والدفاع .

٩ — وإذا دارت رحى الحرب فوق متن البحار أستطيع أن أصنع من الآلات الـكثيرة ما يصلح للهجوم والدفاع ، وأبنى السفن التى تقاوم نيران أثقل المدافع والبارود وسائر الأسلحة .

١٠ — ويقينى أنى قادر فى وقت السلم على أن أنال من رضاك ما يستطيع أى إنسان آخر أن يناله ، بمـا أشيده من المبانى العامة والخاصة ، وبإجراء الماء من مكان إلى مكان .

وفى مقدورى بعد هذا كله أن أصنع التمـاثيل من الرخام والبرنز والصلصال ، ولا تقل

براعتي في النقش عن براعة أي إنسان غيري لا أستثني من ذلك أحدا .

وفي استطاعتي أن أصنع الحصان البرنزي الذي سيخلد مجد أبيك وذكراه الطيبة ، ومجد سفرزا[١] العظيم أبد الدهر . وإذا بدا لإنسان ما أن شيئا مما قلته مستحيل أو عديم النفع فإني على استعداد لأن أجرب ذلك بنفسي في بستانك أو في غيره من الأمكنة التي ترتضيها فخامتكم ، وترونني الآن طوع أمركم ورهين إشارتكم .

* * *

وقد نال ليوناردو بغيته وعين في بلاط دوق ميلان ، وظل في خدمته ستة عشر عاما حتى غزا الفرنسيون المدينة ، وقبضوا على الدوق . . . . ومات ليوناردو في فرنسا في عام ١٥١٩ في السابعة والستين من عمره ، وهو يعد من العباقرة ذوي الكفايات المتنوعة ، ولكنه هو نفسه كان يرى أن أعظم مشروعاته العلمية لم تحقق على يديه ، وأنه لم ينجح في بلوغ ما كان يصبو إليه من براعة في الفن .

---

(١) Sforza

ميكل أنجلو يفاوض قداسة البابا

رسالته إلى جليانو مهندس الڤاتيكان

ولد ميكل أنجلو بونارتى[١] فى عام ١٤٧٥ ، ولم يكد يبلغ الحادية والعشرين من عمره حتى اشتهر بابتكاره الجرىء وبراعته المنقطعة النظير فى الرسم والنحت ، ودعاه البابا يوليوس[٢] الثانى إلى رومة ، وكان البابا رجلا عظيم المطامع ، قاسى القلب ، جاهلا بأصول الفن . وكان يريد من الفنان العظيم أن ينشىء له قبرا يليق بمقامه السامى . وكان المشروع الذى عرضه ميكل على البابا مشروعا ضخما يتطلب إقامة صرح كبير من ثلاث طبقات يحتوى أربعين تمثالا كبيراً من البرنز والرخام .

ويقال إن البابا أمر بهدم جزء كبير من كنيسة القديس بطرس ليفسح مكانا لقبره الضخم . على أن المشروع لم يسر سيرا هادئاً عادياً . ذلك أن برمنتى[٣] كبير مهندسى البابا أراد أن يستبدل بميكل أنجلو رفئيل الأربينوى[٤] ابن أخيه ، فسمم عقل البابا بالمكائد التى أخذ ينصبها لميكل ، حتى اضطر إلى الفرار غضبان إلى فلرنس ، ومنها كتب الرسالة التالية إلى چليانو دا سان جلو[٥] أحد مهندسى البابا ، ردا على دعوة البابا إياه بأن يعود إلى رومة ليتم القبر .

— ٢٤ —

« . . . . . سيكون عملا لا مثيل له فى العالم كله . . . . . »

فلرنس فى اليوم الثانى من شهر مايو سنة ١٥٠٦ .

إلى الأستاذ چليانو مهندس البابا .

علمت يا چوليانو من خطاب أرسلته إلىَّ أن البابا غاضب من سفرى ، وأنه يرغب فى أن يضع المال رهن تصرفى ، وأن ينفذ ما كنا قد اتفقنا عليه ، وأن أعود ولا أخشى شيئاً .

---

(١) Michelangelo Buonarroti

(٢) julius II

(٣) Bramanti

(٤) Raphael of Urbino

(٥) Guiliano da San Gallo

فأما سفرى فحقيقته أننى سمعت البابا يوم السبت المقدس يتحدث على مائدة الطعام مع أحد تجار الجواهر ومع رئيس التشريفات ، ويقول إنه لا يريد أن ينفق شيئاً من المال فى شراء الحجارة ، صغيرة كانت أو كبيرة ، فأدهشنى هـذا أعظم دهشة . على أننى مع ذلك طلبت إليه قبل سفرى بعض ما أحتاجه من المال لمواصلة عملى ، فـكان جواب قداسته أن طلب إلىّ أن أعود إليه فى يوم الاثنين ؛ وجئته يوم الاثنين ويوم الثلاثاء ويوم الأربعاء ويوم الخميس — بناءً على رغبته . وأخيرا جئت إليه صباح يوم الجمعة فأخرجت من عنده ، أى طردت ، وقال لى الشخص الذى طردنى إنه يعرف من أنا وإنه ينفذ ما لديه من أمر . وكنت قد سمعت هذه الألفاظ بعينها فى يوم السبت ، ورأيتها بعدئذ تخرج من حيز القول إلى حيز الفعل ، فاستولى على اليأس . على أن هذا وحده لم يكن سبب سفرى ، بل هناك سبب آخر لا أريد أن أكتب عنه شيئاً ، وحسبى أن أقول إنه جعلنى أفـكر فى أنى لو بقيت فى رومة لأعد لى قبرى قبل أن يعد قبر البابا . ذلك هو سبب سفرى المفاجئ .

والآن تـكتب إلىّ على لسان البابا ، وجوابى أن عليك أيضاً أن تنوب عنى فى قراءة رسالتى هذه عليه . وأفهِم قداسته . . . . . أنه إذا كان جادا فى أن يُشَيَّد له قبر فإنه يجدر به أن يترك لى وحدى أمر اختيار المـكان الذى يؤدى فيـه العمل ، على شريطة أن يتم بناء القبر فى الخمس السنين التى اتفقنا عليها ، فى كنيسة القديس بطرس ، وفى الناحية التى يختارها منها ، وأن يكون قبراً جميل المنظر كما وعدته . ولست أشك فى أنه إذا تم سيكون عملا لا مثيل له فى العالم كله .

فإذا أراد قداسته أن يسير العمل هذا النحو ، فليودع المـال المطلوب هنا فى فلرنس عند شخص سأبعث إليك باسمه . . . . ، وليأخذ علىّ قداسته من المواثيق ما يراه ، وسأقدم له فى فلرنس من الضمانات ما يرى هو أنه فى حاجة إليه ، وله أن يختار ما يشاء منها ، وعلىّ أن أقدمها كلها له ولو طلب مدينة فلرنس بقضها وقضيضها . بقى أمر واحـد لا بد لى أن أضيفه إلى ما قلت . ذلك أن العمل السالف الذكر لا يمكن أن يتم فى رومة بالنفقات التى قدرتها له ، ولـكنه يمكن إتمامه فى هذه المدينة لما نجده فيها من الظروف المواتية التى لا نجد مثلها فى

رومة . . . . . ورجائى أن يصلنى رد على رسالتى هذه ، وأن يصلنى سريعاً ، وليس لدى ما أضيفه إلى ما قلت .

المخلص
ميكل أنجلو
المثال فى فلرنس

وتطلبت عودة ميكل أنجلو إلى رومة ثلاثة أوامر بابوية ، وإنذارا بالحرب إلى جمهورية فلرنس . فلما جاءها لم يسمح له بمواصلة العمل فى قبر البابا ، بل كلف بدلا من هذا بعدة أعمال تافهة ، ثم أمر أن ينقش سقف كنيسة سستينى [1] . وظل أربعة أعوام لا فرق بينه وبين السجين ، يكدح فى هذا العمل كدحا ، وهو مستلق على ظهره فوق محالة عالية ، لينقش صورة خلق الإنسان وسقوطه .

ثم مات يوليوس الثانى بعد أن تم هذا العمل بسنة واحدة ، واضطر ميكل أنجلو بعد موته أن يعدل مشروعه الأول مشروع بناء القبر خمس مرات . وكان تمثال موسى هو كل ما أثمرته جهوده المضنيـة فى أربعين عاما كاملة . ثم ألغى البابا بولس الثالث ما كان بين المثال وبين يوليوس من تعاقد ، وأمره أن يرسم صورة « يوم القيامة » على جدار كنيسة سستينى ، وهى الصورة التى يصفها كثيرون من النقاد بأنها « خير ما أبدعته يد فنان فى جميع العصور » .

(١) Sistine

بابر أول الأباطرة « المغول » يصف محاولة قتله مسموماً ونجاته من هذه المحاولة

[رسالة إلى صديق له]

كتب بابر هذه الرسالة إلى صديق له يصف بها محاولة قتله بالسم ونجاته من هذه المحاولة . وهى رسالة ليس لها ما يماثلها من الرسائل التاريخية إلا القليل . ذلك أن الشخص الذى يدس له السم يقضى نحبه فى الغالب فلا يعيش ليحدثنا بنفسه عن نجاته . وكان بابر يعيش فى أوائل القرن السادس عشر ، وهو ينتسب إلى تيمورلنك من جهة أبيه ، وإلى جنكيز خان من جهة أمه . وقبل أن يتم السنة التاسعة والثلاثين من عمره أخضع لسلطانه التركستان والأفغانستان . على أن النصر لم يكن دائما حليفه ، فقد خسر عرشه أكثر من مرة ، وكثيرا ما عاش فترات من حياته طريداً مهدر الدم . وفى عام ١٥٢٥ انقض على الهند بجيش صغير لا يتناسب مطلقا مع عظم هذه المغامرة ، ولكنه استطاع فى أقل من أربع سنين أن يشيد لنفسه ملكا يمتد من نهر جيحون إلى حدود بنغال ، ومن جبال هملايا إلى جنوب ولاية أجرا.

وأصبح هذا الإقليم فيما بعد نواة الدولة التى يطلق عليها خطأ اسم « الدولة المغولية » والتى يجب أن تسمى الدولة « التركية » . لأن بابر تركى لا مغولى .

وكان طبيعيا أن يصبح لرجل هذا شأنه كثير من الأعداء ، وقد حاول بعضهم أن يثأروا لأنفسهم منه بطرق مختلفة ، ومن هذه الطرق أن سيدة من أقارب أحد الأقيال الذين قضى عليهم أفلحت فى أن ترشو طاهيه ، فدس له السم فى الطعام .

— ٢٥ —

« وأهمل الذائقون فلم يقوموا بواجبهم . . . »

إليك تفاصيل هذا الحادث المشئوم الذى وقع فى يوم الجمعة سادس عشر ربيع الأول سنة ٩٣٣ (٢١ ديسمبر سنة ١٥٢٦) :

سمعت عجوز الشؤم أم إبراهيم أنى أتناول الطعام من أيدى الهنود . وحقيقة الأمر أنى

كنت قد قضيت زمناً لا آكل الطعام الهندى ، فأمرت قبل وقوع تلك الحادثة بثلاثة شهور أو أربعة أن يؤتى لى بطهاة إبراهيم ، وكان عددهم يتراوح بين خمسين وستين ، فاستبقيت منهم أربعة ، وسمعت هى بذلك فطلبت إلى عطوة أن يرسل لها أحمد ذائق الطعام ، فلما جاءها ناولت إحدى الجوارى جرعة من السم ملفوفة فى ورقة لتعطيه إياها . وأعطى أحمد الطهاة الهنود الذين فى مطبخى هذا السم وأغراهم بالمال على أن يدسوه لى فى الطعام .

وأرسلت العجوز المشئومة جارية أخرى وراء الجارية الأولى لتعرف هل أوصلت السم الذى أعطتها إياه إلى يد أحمد . وكان من حسن الحظ أن أحمد لم يضع السم فى إناء الطهى بل وضعه فى صحفة من الصحاف ، وذلك لأنى كنت قد أصدرت أوامر مشددة لذائقى الطعام تقضى بأن يذوق كل هندى ما يقدمه لى منه إذا كان حاضراً طهيه . وأهمل الذائقون فلم يقوموا بواجبهم حين وضع الطعام فى الصحاف ، ووضعت قطع رقيقة من الخبز فى صفحة من الخزف ، ورش عليها نصف ما تحتويه ورقة السم ، ثم وضعت فوقها شطائر من العيش مغطاة بالزبد . ولو أن السم كله قد رش على هذه الشطائر ، أو وضع فى إناء الطهى ، لكانت العاقبة وبالاً علىّ ، ولكن الرجل اضطرب ، فألقى الجزء الأكبر منه فى النار .

ولما قضيت الصلاة من يوم الجمعة ، جئ بالطعام ، فأكلت قطعة كبيرة من أرنب ، وقدراً كبيراً من الجزر المقلى ، ثم تناولت لقمتين من الطعام الهندى المسموم دون أن أجد له طعما كريها . وأكلت أيضاً قطعة أو قطعتين من اللحم المشوى ، فشعرت لساعتى بالدوار ، لكننى كنت قد تناولت فى اليوم السابق بعض اللحم المشوى ولم أستسغ طعمه ، فظننت أنه فى هذه المرة أيضاً سبب هذا الدوار ، وجشأت نفسى مرتين أو ثلاث مرات ، وكدت أتقايأ على غطاء المائدة ، فلم أجد بدا من النهوض . وحدث لى مثل هذا وأنا فى طريقى إلى المرحاض ، فلما وصلته تقايأت كثيرا ، ولم يحدث قبل هذه المرة أن تقايأت عقب الطعام ، بل إنى لم أتقايأ قط حتى بعد الشراب .

وكان لابد أن يداخلنى الشك فأمرت أن تفرض الرقابة على الطهاة ، وأن يعطى بعض القئ إلى أحد الكلاب ، وأن يراقب هذا الكلب مراقبة دقيقة . وفى اليوم التالى قبيل انتهاء نوبة الرقابة الأولى ، لوحظ عليه شئ من الانحراف ، ثم انتفخ بطنه ولم يتحرك من

مكانه ، رغم ما قذف به من الحجارة ، وكثرة ما قلبه الناس بأيديهم . و بقى كذلك حتى منتصف النهار ثم قام ونجا من الموت . وحدث أن أميرا أوأميرين من أمراء القبائل الهندية الذين أكلوا من الطعام معى بقاياأ أيضاً عدة مرات فى اليوم التالى ، وساءت حال أحدهما كثيرا غير أنهما شفيا جميعا .

وكانت كارثة من أشد الكوارث التى حلت بنا ، ولكننا نجونا منها ووهبنا الله حياة جديدة ، وكأنما جئت أنا من عالم الأموات ، أوكأن أمى ولدتنى فى هذا اليوم . إننى مريض ، ولكنى حى أرزق ، وقد عرفت اليوم بفضل العناية الإلهية قيمة الحياة .

وأمرت محمدا الصراف أن يراقب الطباخ ، ولما سيق ليلقى جزاءه قص علىّ الحقائق السالفة الذكر واحدة بعد أخرى .

وكان يوم الاثنين يوم الاستقبال الرسمى ، فأمرت بدعوة عظماء الدولة وأعيانها وأمرائها ووزرائها ، وجيء بالرجلين والمرأتين ليسألوا عما جنت أيديهم ، فقصوا القصة بأجمعها . فأما ذواق الطعام فقد قطعت أوصاله ، وأما الطباخ فقد سلخ جلده حيا ، وأما النساء فقد ألقيت إحداهن تحت أرجل فيل من الفيلة ، وأعدمت الثانية رميا بالرصاص ، ولا تزال المرأة العجوز تحت الحراسة ، وستلقى جزاء ما جنت يداها .

وفى يوم السبت شربت قدحين من اللبن ، وشربت فى يوم الأحد عرقا أذيب فيه بعض الصلصال ، وفى يوم الاثنين شربت لبناً مذابا فيه صلصال وترياقا من أحسن الأنواع ، وهو مسهل قوى الأثر ، وخرج منى فى أول يوم وهو يوم السبت ما يشبه الصفراء الجافة .

ولم أصب بأذى والحمد لله . ولم أكن أعرف قبل الآن أن الحياة حلوة ، وأدركت حينئذ معنى القول المأثور : « لا يعرف قدر الحياة إلا من كان على حافة القبر » .

ولا أزال كلما ذكرت هذه الحادثة المروعة أضطرب على الرغم منى . وما من شك فى أن عناية الله هى التى وهبت لى الحياة من جديد ، و إنى لعاجز عن أن أجد من الألفاظ ما أشكر به الله جل شأنه .

هأنذا قد قصصت كل ما جرى ، و إن كان هول الحادثة أعظم من أن تمثله الألفاظ . ولقد حرصت على أن أذكر تفاصيله وظروفه لأنى قلت لنفسى : « يجب ألا تظل قلوبهم

قلقة ! » ، وإنى لأحمد الله أن لا تزال أمامى من العمر أيام أشهد فيها هذا العالم . لقد مر الحادث كله بسلام فلا تخشوا شيئا ولا تشغلوا بأمرى .

* * *

والمأثور عن بابر أنه كان رجلا مثقفا رحيما على الرغم مما أظهره من القسوة فى عقاب خدمه . وكان فوق ذلك ناقداً وأديبا ؛ كتب بالفارسية ، وهى اللغة الدولية فى وسط آسية فى أيامه ، مقطوعات غنائية جميلة ، وكتب بالتركية لغته الأصلية كتابات نثرية جزلة اللفظ واضحة المعنى . والرسالة التى أثبتناها هنا مأخوذة من مذكراته المعروفة باسم بابر نامه .

ويقال إن بابر كان يحب ولده همايون حبًّا جعله فى اعتقاد بعضهم يضحى بحياته من أجله . ذلك أن ابنه مرض حتى أشرف على الموت ، فدعا بابر الله أن يشفى ولده وأن تصيبه العلة بدله ، واستجاب الله دعاءه ، فأخذ ابنه يتماثل للشفاء ، وأخذت صحة بابر تعتل حتى مات .

هنرى الثامن وآن بولين يتبادلان الرسائل والتوسل

تزوج هنرى الثامن ملك إنجلترا بكترين أميرة أرجن[١] ، وعاش معها ثمانى سنين ، ثم أحب آن بولين[٢] ، وكانت من أجمل وصيفات الملكة كترين ، وظل إحدى عشرة سنة يبذل من الجهود أقصاها ليطلق زوجته ويتزوج بها ، حتى تم له فى آخر الأمر ما أراد ، وكان من نتائج عمله هذا أن خرجت إنجلترا نهائيا عن سلطان البابا فى عام ١٥٣٣ ، وبذلك حصلت آن على ما كانت تطمع فيه من الجلوس على عرش إنجلترا ، ولكنها لم تنج بذلك من المقصلة ، بل لعل هذا الزواج هو الذى قادها إليها .

وكانت آن بولين فتاة فاسدة . . . . وقعت فى شرك رجل ضعيف عاجز ، شأنها فى ذلك شأن مارى أنتوانت . وقد حباها الملك فى الست السنين التى أقامها معها بما كانت تصبو إليه من جواهر وألقاب ، ومال وتاج ، ولم يكن ينقصها إلا مكانة الزوجة الحقة التى يخلص لها زوجها . وإلى القارئ رسالة من رسائل الحب التى كتبها الملك المزواج إلى آن بولين .

— ٢٦ —

« . . . . نار الحب المضطرمة فى قلبى . . . . »

حبيبتى :

أكتب هذا إليك لأشرح لك ما ألاقيه من الوحدة فى هذا المكان بعد غيابك عنى ، ولأؤكد لك أن الوقت الذى انقضى بعد سفرك قد طال حتى كأنه أسبوعان . ويقينى أن السر فى هذا هو عطفك علىّ ونار الحب المضطرمة فى قلبى ، ولولا هذا لما بعثَتْ هذه الفترة القصيرة ما بعثته فىّ من الحزن . غير أنى أحس الآن وأنا قادم إليك أن آلامى قد زال نصفها ، وأن ماشعرت به من الراحة قدأ مكننى من أن أقطع مرحلة كبيرة فى كتابى ، فصرفت اليوم فى كتابته أكثر من ثلاث ساعات . ومن أجل هذا كانت رسالتى لك قصيرة ، فإنى

---

(١) Catherine of Aragon

(٢) Anne Baleyn.

أحس الآن بآلام فى رأسى ، لا يزيلها إلا وجودى بين ذراعيك وقبلاتى التى أرجو أن أطبعها قريباً على ثدييك .

خطته يد المحب الذى كان وما زال وسيظل خاضعاً لك بإرادته .

هـ . ر .

***

وبعد ثلاث سنين من ذلك الوقت مل هنرى الثامن آن بولين ، فرماها بتهم شنيعة ، وأمر باعتقالها فى برج لندن . وقد كتبت إليه من سجنها الرسالة التالية تحاول بها أن «تمحو وصمة عن زوجة من أكثر الزوجات وفاء ...»

— ٢٧ —

«...... ما من أمير كانت له زوجة أكثر وفاء ......»

مولاى :

إن غضب جلالتك علىّ وسجنى لمن أعجب الأشياء ، ولهذا فإنى لا أعرف ماذا أكتب أو عن أى شىء أعتذر ، لأنى أجهل كل شىء . ولكنك تطلب إلىّ على لسان شخص تعرف أنت أنه ألد أعدائى أن «أعترف بالحقيقة لأنال بذلك الاعتراف رضاك» . وما كدت أتسلم الرسالة من يده حتى أدركت ما تقصد إليه ، فإذا كان قول الحق ينقذنى من الموت فإنى سأطيع أمرك راضية .

ولكنى أرجو ألا تتصور يا صاحب الجلالة أن زوجتك المسكينة ستقر بذنب لم ترتكبه بل لم تفكر فيه قط . والحق يا مولاى أنه ما من أمير كانت له زوجة أكثر وفاء وإخلاصا ، وأصدق حباً ، مما وجدته فى « آن بولين » . وكان يسرنى أن أقنع بهذا الاسم وحده لو شاء الله ورضيت أنت . وثق أنى لم أنس قط نفسى حين رفعت من شأنى وجعلتنى ملكة ، بل إنى كنت أفكر على الدوام فى هذا اليوم الذى تتبدل فيه حالى كما تبدلت الآن ، وذلك لأن الأساس الذى يقوم عليه مجدى لم يكن إلا هوى جلالتك ؛ وكنت أعرف أن أقل تبدل فيه يكفى لأن يحول قلبك عنى إلى غيرى . لقد أخذتنى من طبقة وضيعة وجعلتنى ملكتك ، ورفيقة حياتك ، فرفعت منزلتى بغير رغبتى أكثر مما أستحق . فإذا كنت

يا صاحب الجلالة قد وجدتنى خليقة بهذا الشرف ، فلا تجعل لتقلب الأهواء أو لمشيرى السوء من أعدائى أثراً فى تحويل رضاك الملكى عنى . ولا تسمح لهذه الوصمة — وصمة عدم الوفاء لجلالتك — أن تدنس عرض أوفى الزوجات وعرض ابنتك الأميرة الصغيرة .

حاكمنى أيها الملك الصالح ، ولكن هب لى محاكمة قانونية ، ولا تجعل ألد أعدائى خصومى وقضاتى . لتكن محاكمتى علنية ، فأنا لا أخشى أن يلحقنى العار جهرة . وسترانى وقد ثبتت براءتى ، وزال الشك من نفسك ، وارتاح ضميرك ، وقطعت ألسنة السوء عنى ، أو أعلنت جريمتى للملأ . ومهما يكن حكم الله أو حكمك علىّ ، فستنجو جلالتك من لوم الناس لك جهرة . وإذا أثبت القانون أنى قد اقترفت ذنبا كان من حقك أمام الله وأمام الناس أن تنفذ فىّ ما أستحق من العقاب على خيانتى لزوجى ، وأن تخص بحبك تلك التى أعانى من أجلها ما أعانى ، والتى كان فى وسعى من زمن بعيد أن أذكر اسمها ، ولم تكن أنت يا مولاى بجاهل ما كان يساورنى من الظنون فى هذه الناحية .

أما إذا كنت قد حكمت على ، وكنت لا تنال ما تبغى من سعادة إلا بموتى وتسوىء سمعتى ، فإنى أرجو الله أن يغفر لك هذا الذنب العظيم ، وأن يغفر كذلك ذنوب أعدائى الذين كانوا سبب بلائى ، وألا يحاسبك حسابا عسيراً على قسوتك التى لا تليق بأمثالك من الملوك ، يوم ندعى أنا وأنت أمامه فتظهر براءتى مهما كان ظن العالم فىّ .

وآخر ما أرجوه منك ألا يصيب غضب جلالتك أحداً من الناس غيرى ، وألا تمس بسوء تلك الأرواح البريئة التى قيل لى إنها ملقاة فى السجن من أجلى . فإذا كانت عيناك قد سرّهما يوما ما أن ترياني ، وإذا كانت أذناك قد طربتا يوما ما لسماع اسم آن بولين ، فلتجب هذا الرجاء . وبهذا أختم رسالتى حتى لا أضايقك أكثر مما فعلت ، وأدعو ربى أن يحفظ جلالتك من كل سوء ، وأن يهديك فى كل أعمالك سبيل الرشاد .

من سجنى الموحش فى البرج فى اليوم السادس من مايو

زوجتك الوفية المخلصة

آن بولين

* * *

غير أن هذه الضراعة لم تجد آن بولين نفعاً ، فبينا كان الملك يعد العدة لزواج چين سيمور[١] ، أعدمت آن بولين . غير أن ابنتها إلزبث هي التي أصبحت فيما بعد ملكة إنجلترا . أما چين سيمور فقد ماتت بعد أن وضعت ولدا هو الذي اعتلى العرش باسم إدورد السادس . ولكن زوجها لم يلبث أن هجرها وفر من أحضانها إلى آن كليفز[١] ، ثم إلى كترين هورد[٢] ، ثم إلى كترين پار[٣] . وكانت هذه قد تزوجت قبله برجلين غير أنها بقيت زوجة له حتى مات ، ثم اتخذت لها زوجا آخر من بعده .

(١) Jane Seymour

(٢) Anne Cleves.

(٣) Catherine Howard.

(٤) Catherine Parr.

الملكة إلزبث ترسل صورتها وتحياتها إلى ميرى ملكة اسكتلندة

ثم تأمر بقتلها بعد بضعة أشهر

كان بين إلزبث وميرى قسط كبير من الغيرة والحسد ، ولكن لعل المؤرخين قد بالغوا فى هذا كثيراً ، ولعل حسد إلزبث كان منشؤه أن ميرى تنال كثيرا من الحظوة عند الرجال ، فقد كانت إلزبث امرأة كسائر النساء . ولكن الذى كان يقلق إلزبث أشد القلق أنها لم يكن لها وارث من نسلها ، وكان لا يزال فى إنجلترا حزب قوى يرغب فى عودة الكنيسة الكاثوليكية ، ويرى أن ميرى الكاثوليكية هى الملكة التى تستطيع أن تحقق هذه الرغبة . ولكن إلزبث لم تختر ميرى لتخلفها على عرش إنجلترا ، ولو أنها فعلت هذا لقضت فى الغالب على حياتها بنفسها .

غير أن الملكتين رغم هذا كله كثيراً ما تبادلتا الهدايا دليلا على « ما بينهما من حب متبادل » . وقد حدث قبيل فرار ميرى إلى إنجلترا أن كتبت إلى إلزبث تقول : « هأنذا أعيد إلى الملكة الجوهرة التى أهدتها لى ووعدتنى معها بمعونتها وصداقتها» .

وكانت هذه الجوهرة ماسة فى صورة قلب أهدتها إلزبث « لأختها العزيزة » .

وبينا كانت ميرى أسيرة عند إلزبث لم تنقطع الملكتان عن تبادل رسائل « الود والصداقة » .

وقبل أن تأمر إلزبث بإعدام « أختها العزيزة » بسنة تقريبا أرسلت إليها صورتها ومعها الرسالة التالية :

— ٢٨ —

« قد يخجلنى أنه أعرضه عليك وجرى »

[١٥٨٦]

كما أن الرجل الغنى يضيف فى كل يوم غنى إلى غناه ، ويضع بدرة جديدة فوق بدرات ماله ، ولا ينقطع عن ذلك أبداً ، فكذلك تفعلين أنت يا صاحبة الجلالة ، فلا تقنعين

بما كان لك علىّ قبل الآن من أياد ، وما أظهرته نحوى من دلائل اللطف والمودة ، بل أردت أن تتوجي هذا كله فطلبت — وكان من حقك أن تأمرى — شيئا غير جدير فى ذاته بأن تطلبيه وترغبي فيه ، ولكنه علا شأنه إذ طلبتِه يا صاحبة الجلالة . أقصد بذلك صورتى . ولو كنت أستطيع أن أكشف عما يكنه القلب فى داخله من خالص الحب لجلالتك كما تكشف عنه ملامح الوجه الخارجية ، لما اكتفيت بالمبادرة إلى تلبية أمرك ، بل لعجلت بإرسال صورتى إليك قبل أن تطلبيها ، ولما كنت آخر من يحقق رغبتك ، بل لكنت أول من يعرض هذه الرغبة عليك . ولست أنكر أنى قد يخجلنى أن أعرض عليك وجهى ، أما قلبى فلست أستنكف أن أهديه إليك . ذلك أن ألوان الصورة قد تزول بفعل الزمن ، وقد تنصل بفعل الجو ، وقد تلوث عرضا ومصادفة ، أما القلب فلا يحول على مرّ الزمن السريع ، ولا يفسده سحاب أو ضباب ، ولا تؤثر فيه صروف الدهر ولا نوب الزمان .

ولست الآن فى حال تمكننى من أن أثبت هذا بالدليل القاطع ، ولكن الأمور مرهونة بأوقاتها ، وقد يحين الوقت الذى أستطيع أن أثبت فيه بالعمل ما أعلنه إليك الآن بالقول . وفوق هذا فإنى أتقدم إلى جلالتك فى خضوع متوسلة إليك ، حين تنظرين إلى صورتى ، أن توقنى بأنى كنت أتمنى من صميم قلبى أن أكون بنفسى أكثر مثولا فى حضرتك ، لا أن يكون خيال جسمى هو القريب منك . ولما كان وجود خيالى أو جسمى إلى جانبك لا يتيح لك من السعادة بقدر ما يتيحه لى من النعمى ، ولما كان الوقت لم يحن بعد لأن أُمتَّع أنا بهذا القرب ، فإنى سأتمثل بقول هوراس : إن الوحوش لاتلام إن كانت عاجزة .

والآن أختم رسالتى (وأخشى أن أكون قد أطلت على جلالتك فأتعبتك) بتقديم أعظم فروض الشكر والخضوع ، وأدعو الله أن يطيل فى حياتك لتشرف بك الحياة ، ولتهنئى ، ولتنال الدولة الخير على يديك ، ولأسعد أنا بك .

من هاتفيلد[١] فى أول يوم من شهر مايو

أختك الخاضعة وخادمتك المطيعة

إلزبث

* * *

(١) Hatfield.

الملكة إلزبث تقول لچيمس السادس ملك اسكتلندة

إنها لم تكن لها يد فى « الحادث المشئوم » الذى وقع لأمه

لم تقض ميرى حياتها فى السجن ساكنة هادئة تتجرع الغُصة وتُطرف على المضض، بل كانت تتلظى غيظاً وتقسم أنها ستنتقم أشد انتقام من كل من كانت له يد فى إيذائها، وإن كان أقرب الناس إليها . ويقال إنها هى التى حرضت على قتل أخيها، وإنها رتبت معاشاً لقاتله . وكم من مرة دبرت الوسائل لفرارها من سجنها، ولكن عيون إلزبث كانوا لها بالمرصاد، يحبطون تدبيرها . وكثيراً ما أرسلت الرسائل إلى خارج البلاد تدعو الأسپانيين إلى غزو إنجلترا، وكثيرا ما عملت على إثارة الفتنة فى البلاد لإعادة المذهب الكاثوليكى إليها، ثم دبرت بعد هذا كله المؤامرة التى انتهت بإعدامها . ذلك أنها اتفقت مع صديق لها يدعى أنتنى بابنجتن[1] على قتل إلزبث وعلى الفرار من السجن، غير أن المؤامرة كشفت فى الوقت المناسب، وحوكمت ميرى فى فذرنجاى[2]، ودافعت عن نفسها دفاعا قويا، وادعت أن رسائل بابنجتن مزورة . ولكن هذا الدفاع لم يجدها نفعاً، فاتهمت بالخيانة العظمى، وحكم عليها بالإعدام . وكانت إلزبث نفسها ترتاب فى عدالة محاكمة ملكة وإدانتها، ولكن الخطر الذى كان يتهدد حياتها قضى على ما كان لديها من ريب فأقرت الحكم .

وتلقت ميرى نبأ الحكم عليها برباطة جأش، وتهيأت للخاتمة المحتومة بأن كتبت وصيتها إلى المخلصين من أصدقائها، لم تنس منهم أحدا، فنال كل منهم نصيبه من هباتها مهما قل . وبينا كان القس يتلو عليها الصلاة بالإنجليزية قبل تنفيذ الحكم فيها، إذ رفعت ميرى صوتها وأخذت تتلو الصلاة باللاتينية، حتى إذا فرغت منها ركعت وأحنت رأسها وتلقت الضربة القاضية .

وكانت إلزبث — وهى المرائية على الدوام — قد وقعت قبل تنفيذ الحكم أمرا بالعفو عنها، ولكن الأمر وصل متأخراً — ولعل ذلك كان عن قصد وتدبير، كما كان يحدث كثيراً فى ذلك الوقت .

وبعد بضعة أيام من تنفيذه أرسلت إلزبث إلى چيمس السادس ملك اسكتلندة وابن ميرى الرسالة التالية تقص عليه قصة مقتل والدته وتتنصل من تبعة قتلها .

---

(١) Antony Babington (٢) Fotheringay

— ٢٩ —

« والله يشهد ...... أنى بريئة مما حدث ...... »

فى ١٤ فبراير سنة ١٥٨٧

أخى العزيز

ليتك تعرف (ولا تؤلم قلبك) ذلك الحزن الذى أضرم قلبى وأقضّ مضجعى بسبب الحادث المشئوم الذى حدث (على الرغم منى) . ولقد أرسلت إليك الآن رسولا من أقاربى ، تفضلت قبل الآن فشملته بعطفك ، ليحدثك حديث الصدق عن تلك الفاجعة التى يشق علىّ أن أصفها لك بقلمى . والله يشهد وكثير من الناس يعلمون أنى بريئة مما حدث ؛ وثق أنى لو كنت أمرت بشىء لما تنصلت منه . ذلك أنى لست من الانحطاط بحيث يمنعنى الخوف من مخلوق أو أمير أن أفعل ما أراه عدلا أو أعترف به إن فعلته .

كلا — إنى لم أصل إلى هذه الدرجة من ضعة الأصل أو لؤم الطبع . ولما كان الرياء لا يليق بالملوك فإنى لا أرائى فى أعمالى ، بل أعلنها على حقيقتها وكما أردته منها . ولهذا فإنى أؤكد لك أنى و إن كنت أعلم أن هذا الجزاء كان من جنس العمل ، لم تكن نفسى لترضى أن أحمّل أحدا تبعته لو أننى فعلته . ولست أحب أن أظلم نفسى بقولى إنه قد جال بخاطرى . فأرجو أن تتفضل بالاستفسار عن ظروف الحادث من حامل هذه الرسالة . أما من حيث شخصك فاعلم أنك ليس لك فى هذا العالم من بين أقاربك من هو أكثر حبا لك منى ، ومن هو أكثر منى عناية بأمرك وحرصا على سلامتك . و إذا كان فى الناس من يقول لك غير هذا فاعلم أنه أكثر حبا لغيرك منه إليك . ولست أريد أن أطيل عليك ، ولهذا أختم رسالتى على عجل ، وأنا أدعو الله أن يطيل عهدك .

أختك وقريبتك التى تحبك أعظم حب
إلزبث

* * *

لقد جمعت إلزبث فى أخلاقها بين المتناقضات التى لا يكاد يصدقها عقل . جمعت بين البطولة والأثرة ، و بين النذالة والعظمة ؛ ولكن الشىء الوحيد الذى يغطى على ما فى أخلاقها من رذائل أن حبها إنجلترا كان أعظم من حبها نفسها مهما يكن هذا الحب عظيما .

چيمس السادس ملك اسكتلندة يمتدح

سلوك إلزبث النبيل

واستشاط أهل اسكتلندة غضبا حين علموا بمقتل ميرى ، بل إن أعداء ميرى أنفسهم قد غضبوا من جرأة الملكة الإنجليزية على قتل الملكة الاسكتلندية ، ولكن چيمس السادس ، وكان وقتئذ فى الحادية والعشرين من عمره ، تلقى النبأ الذى أرسلته إليه إلزبث بهدوء ، ولعله قد تلقاه بشىء من الرضا . ذلك أن موت أمه قد جعله الوارث الشرعى لعرش إنجلترا ، ولهذا غفر لإلزبث فعلتها .

— ٣٠ —

« . . . . وما كان ينطوى عليه قلبك من زمن طويل من إخلاص لوالدتى المتوفاة »

سيدتى وأختى العزيزة

بما أنك تبرئين نفسك من هذا الحادث المشئوم برسالتك و بلسان حاملها ربرت كارى[1] خادمك وسفيرك ، و بما أنى لا أجرؤ على أن أظلمك فأتهمك بأنك قد لوثت يدك الشريفة بهذا العمل الذى تأباه عليك أنوثتك وجلال قدرك ، كما يأباه ما بينك و بين المتوفاه من وشائج القربى ، وما كان ينطوى عليه قلبك من زمن طويل من إخلاص لوالدتى المتوفاة ، وما هنالك من أدلة تشهد من زمن طويل بطهرك و براءتك ، لهذا كله أرجو أن يكون فى مسلكك الشريف فى المستقبل ما لا يترك للعالم سبيلا إلى الشك فى هذا الطهر وتلك البراءة .

أما الذى أنتظره أنا منك فهو — أن تقدمى إلىَّ فى هذا الوقت من الأدلة القوية الشاملة ما أستطيع أن أجمع به شتات هذه الجزيرة ، وأزيد به قوتها ، وأحفظ به الدِّين الحق ، وأثبِّت به دعائمه ؛ وما يوجب على أن أكون كما كنت من قبل أكثر الناس حبًّا لك .

[من غير توقيع]

---

(١) Robert Carey

سيقول لك حامل هذه الرسالة شيئا بالنيابة عنى ، ولستُ فى حاجة إلى أن أرجو منك أن تصدقى ما سيقوله لك ، فأنت تعلمين أنى أحبه .

* * *

وحكمت إلزبث إنجلترا حتى عام ١٦٠٣ ، ولما توفيت خلفها على العرش چيمس السادس ملك اسكتلندة ، فأصبح چيمس الأول ملك إنجلترا . ولكن تاج المملكتين لم يوحد رسمياً إلا بعد مائة عام من ذلك الوقت .

الملكة إلزبث تنذر أسقفاً متغطرساً

رسالة إلى الدكتور رتشرد فكس[١]

اتهم هنرى الثامن زوجته الثانية آن بولين بالخيانة الزوجية ، وكان لهذه التهمة أثرها فى مركز ابنتهما إلزبث . فهل كانت ابنة له شرعية أو غير شرعية ؟ وظلت هذه حالها حتى اعترف آخر الأمر بأنها ابنته حقا ، وكان هذا بعد أن أعدمت آن بولين بزمن طويل .

وكان أكثر ما حذت فيه إلزبث حذو أبيها هو معاملتها لرجال الدين الذى أقامه فى إنجلترا ، فاستباحت أملاك الكنيسة كما استباح هنرى أملاك الأديرة ، فكانت تعد أموال كنيسة إنجلترا كأنها أموالها الخاصة ، ولم يتردد معظم الأساقفة فى الخضوع لها و إطاعة أوامرها . وكانت تهب القصور والدور التى تمتلكها الكنيسة فى المدن والريف ، والأملاك الزراعية التابعة للأبرشيات ، لمن تشاء من أنصارها والمقربين إليها فى أى وقت تشاء .

وحدث فى عام ١٥٧٥ أن طلب سير كرستفرهتن[٢] إلى رتشرد فكس أسقف إيلى[٣] أن ينزل له عن بيته فى لندن نظير أجر اسمى . وكان سير كرستفر رجلا وسيما ، وكان من عشاق الملكة إلزبث إذا صدقنا ما قالته عنه ميرى ملكة اسكتلندة . وكان للقصر حدائق اشتهرت بما فيها من الورد والزعفران والفاكهة ، وكان سير كرستفر يحبها و يعجب بها . ورفض الأسقف أن يخلى القصر لأن الملكة قد وهبت الكثير من أملاكه قبل ذلك الوقت لأنصارها والمقربين إليها . فلجأ هتن إلى الملكة فبعثت إلى الأسقف بالرسالة الآتية :

— ٣١ —

« . . . أقسم بالله . . . لأجردنك »

[١٥٧٣]

أيها الأسقف المتغطرس

---

(١) Dr. Richard Fox

(٢) Sir christopher Hatton

(٣) Ely

إنك لتعرف ماذا كنت ، قبل أن أجعلك كما أنت ، وأقسم بالله إن لم تذعن لطلبي لأجردنك

* * *

وأذعن أسقف إيلى لساعته ، وكان فى إنجلترا كثيرون ممن لا تعجبهم نزعته الدينيـة ، وحرصه على المال الذى لا يقل عن حرص أحد من المقربين إلى الملـكة . ولما رأى أنه لا يستطيع مقاومة أتباعها استقال من منصبه الدينى ومات بعد استقالته بزمن قليل .

السير ولتر رالى يودع زوجته

عشية اليوم الذى كان محدداً لإعدامه

ولد السير ولتر رالى[١] فى عام ١٥٢٢ ، وصار فى سن مبكرة من أخصاء الملكة إلزبث ملكة إنجلترا الشهيرة . وكان نموذجا لرجل البلاط ، وللمؤرخ والمستكشف والمغامر الجرىء . وهو معروف فى عالمى القصص والتاريخ بالشهامة وبأعماله الكثيرة فى ميدان الكشف والاستعمار ، وهو الذى أدخل عادة التدخين إلى العالم المتمدين . ولكن الملكة غضبت عليه فى آخر الأمر وأحلت مكانه إيرل إسكس[٢] ، فغادر إنجلترا إلى إيرلندة ، ثم رضيت عنه فأرجعته إلى بلاطها ، ولكنها غضبت عليه مرة أخرى فأبعدته عنها . وانتهز أعداؤه بعد غضبها عليه فشله فى إحدى رحلاته الاستعمارية إلى أمريكا الجنوبية ، فأخذوا يكيدون له ويتهمونه بالتآمر على التاج حتى قدم للمحاكمة وحكم عليه بالسجن فى قلعة لندن عام ١٦٠٣ فى عهد جيمس الأول . وكتب وهو فى السجن كتابه المشهور فى «تاريخ العالم» وهو الذى يحتوى على خطابه المأثور الذى يخاطب به الموت . ونحن نورد فقرات منه هنا لأنه يمس موضوع رسالته . قال :

« وإذن فالموت وحده هو الذى يعرّف الإنسان فجاءة بقدر نفسه ، فهو يحدث المتكبر المتغطرس بمهانته ، ويُذله لساعته ، ويرغمه على البكاء والشكوى والندم ، بل إنه ليرغمه على أن يكره ما مر به من سعادة .

« وهو يثبت للثرىّ أنه متسول مسكين لا يهمه شىء إلا الثرى الذى يملأ به فاه . وهو يمسك بمرآة أمام أجمل الغانيات فترى فيها قبحها وفسادها ، ولا تستطيع أن تنكر منهما شيئاً .

« ألا ما أفصحك أيها الموت وما أقواك وأعدلك ! لقد أقنعت من لا يقبل النصح ، وفعلت ما لا يجرؤ على فعله إنسان ، وأخرجت وحدك من هذه الدنيا من كان العالم كله يتملقه ، وجمعت ما للإنسان من مجد وكبرياء وقسوة ومطامع ، وبسطت عليها كلها هذين اللفظين : هنا قبر ... »

---

(١) Sir Walter Raleigh (٢) Earl Essex

— ٣٢ —

« . . . لست إلا ترابا »

[١٦٠٣]

زوجتى العزيزة

ستكون هذه السطور آخر ما أكتبه إليك . أرسل إليك حبى لتحتفظى به بعد موتى ، ونصحى لتذكريه حين لا تجدينني . ولست أريد يا عزيزتى أن أحمِّلك أحزانى بإرادتى ، فلتذهب هـذه الأحزان معى إلى قبرى ، ولتدفن فى الثرى معى . وإذا كانت إرادة الله قد اقتضت ألا أراك فى حياتى بعد الآن ، فاصبرى على هذه البلوى وكونى كما عهدتك قوية القلب ثابتة الجنان .

أرسل إليك أولاً مايفيض به قلبى ، وماتستطيع أن تحمله ألفاظى ، من شكر لما بذلتِ فى سبيلى من جهد ، وما أحطتنى به من عناية . إن لك فى عنقى ديناً لا أستطيع أن أوفيه فى هذا العالم ، ولا ينتقص منه أن ما بذلتِ من جهد لأجلى لم يثمر الثمرة التى كنت تشتهينها .

وأرجو منك بحق حبى الذى كان يملأ قلبك وأنا بين الأحياء ألا يطول اعتكافك ، بل حاولى ما استطعت أن تتحملى آلامك القاسية ، وأن تعنى بشئون طفلك المسكين ؛ ذلك أن أحزانك لن تفيدنى شيئاً إذ لستُ إلا ترابا . وعليك بعد ذلك أن تعلمى أنى نزلتُ إلى طفلى عن كل ما أملك من عقار ، وقد كتبتُ بذلك عقداً فى أواسط الصيف منذ اثنى عشر شهراً ، كما يستطيع صديقى برت[1] أن يشهد بذلك ، وكما يذكره أيضاً دلبرى[2] . ولعل دمى المراق سيطفئ غل من قسوا على وأهدروا دمى ، ولعل هؤلاء لا يعملون على قتلك أنت وطفلك بإلقائك بين مخالب الفاقة . ولست أدرى أى صديق أوجهه إليك بعد موتى ، لأن من كان لى من الأصدقاء قد تخلوا عنى فى محنتى ؛ ويقينى أن موتى كان مقرراً من أول يوم . ويعلم الله أنى شديد الألم لأنى فوجئت بهذا الموت مفاجأة ، فلم أستطع أن

(١) Brett (٢) Dolberry

أتركك فى حال خير من الحـال التى تركتك عليها . ويشهد الله أنى كنت أحب أن أترك لك كل ما لدى من النبيذ ، أو كل ما كنت أستطيع أن أشتريه بثمنه ، لو أننى استطعت بيعه ، ونصف ما لدى من المال وكل ما لدىَّ من الجواهر إلا بعضها كنت أُحب أن أوصى به لولدى ؛ ولـكن الله لم يعنى على تنفيذ ما اعتزمته ، فهو يدبر الأمر وحده ؛ وما دمت غنية عن الناس فلا تحزنى ، لأن ما عدا ذلك لا يفيد إلا الغرور والـكبرياء . أَحبى الله وخذى من هذه الساعة فى الاعتماد عليه ، وستجدين لديه عز وجل الغنى الدائم والراحة التى لا تنقطع أَسبابها . فلا تجهدى جسمك وعقلك فلن يصيبَك من هذا كله إلا الحزن الشديد . وعلمى ابنك من صغره أَن يحب الله ويخافه حتى تتمكن خشيته من قلبه فى كبره ، وحتى يصبح الله لك زوجا ، ولابنك أباً ، وسيكون زوجاً وأباً لا يستطيع أحد أَن يحرمكما منه .

بيلى[١] مدين لى بمائتى جنيه وأدريان جلبرت[٢] بستمائة ، وفى جرسى[٣] كثيرون غيرهما لى عليهما ديون . أما ما علىّ من ديون فيمكن أداؤه من متأخر ثمن النبيذ ، وإذا أردت أن تتصدقى بشىء على روحى فتصدقى به على الفقراء .

وسيسعى إليك كثيرون من الناس بعد موتى لأن العالم يظن أنى كنت واسع الثراء ؛ ولـكن إياكِ أن يخدعك مايدعيه الرجال ، وما يتظاهرون به من الحب ، لأن الحب لا يدوم إلا فى قلوب الأشراف الأوفياء ، واعلمى أن أكبر ما يمكن أن يصيبك من الشقاء فى هذه الحياة أن يُغرَّر بك ثم تصبحى بعد ذلك محتقرة مهينة .

وأشهد أنى لا أقول هـذا لأمنعك من الزواج ، فإنى أعلم أن الزواج خير لك دنيا وأخرى . أما أنا فلست لك بعد الآن ولست لى ، فقد فرق الموت بينى وبينك ، وأبعدنى الله عن هذه الدنيا وأبعدكِ عنى .

واذكرى طفلك المسكين إكراماً لوالده الذى اختاركِ وأحبك فى أسعد أيامه . واحصلى إن استطعت على الرسائل التى كتبتها للنبلاء أطلب إليهم فيها إنقاذ حياتى . والله يعـلم أنى ما رغبت فى الحياة إلا من أجلك ومن أجل طفلك ، ولـكنى أصدقك أنى قد احتقرت

---

(١) Baily
(٢) Adrian Gilbert
(٣) Jersey

نفسى إذ حرصت على الحياة . واعلمى أيتها الزوجة العزيزة أن ابنك ابن رجل حق ، رجل عزيز النفس يحتقر الموت فى أبشع صوره وأرذلها .

ليس فى مقدورى أن أطيل الرسالة ، فإنى علم الله أسترق هذه اللحظات وغيرى نائم ، وقد آن الوقت الذى يجب على فيه أن أنتزع أفكارى من هذا العالم — اسأليهم بعد موتى أن يعطوك جثتى التى منعوها عنك فى حياتى ، وادفنيها فى شربورن[1] إذا بقيت الأرض لنا ، أو فى كنيسة إكستر[2] بجانب أبى وأمى . هذا كل ما أستطيع أن أكتبه إليك فالوقت والموت ينادياننى .

وإنى لأدعو الله الباقى القوى الذى لا تحيط به العقول ، القادر المقتدر ، العلى الأعلى ، الرحمن الرحيم ، واهب الحياة والنور ، أن يحفظك ويحفظ ولدك .

ربِّ هب لى منك رحمة ، وعلمنى أن أعفو عمن آساءوا إلىّ واتهمونى بالباطل ، واجمعنى اللهم بهم فى جنتك .

أستودعك الله يا زوجتى العزيزة ، وبارك اللهم فى ولدى المسكين . ادعى الله لى ، وتضرعى إليه أن يشملكما بعنايته .

كتبه بيده قبيل الموت من كان فى وقت من الأوقات زوجك ثم فرق الدهر بينه وبينك .

من كان لك ثم أصبح لا يملك من أمره شيئاً .

ولتر رالى

* * *

ولم ينفذ حكم الإعدام فى السير ولتر رالى صباح اليوم التالى ، بل بقى سجينا فى قلعة لندن ، وسجنت معه زوجته حتى عام ١٦١٦ . وفى تلك السنة سمح له أن يقوم برحلة إلى نهر أرنوكو[3] للبحث عن الذهب . ولكن هذه لم تكن إلا مهلة ، ثم أعدم أخيرا فى عام ١٦١٨ فى بهو القلعة الذى شهد فيه يوما من الأيام مقتل عدوه الألد إيرل إسكس .

---

(١) Sherburne
(٢) Exter church
(٣) نهر Orinoco فى أمريكا الجنوبية .

كتب فرنسس بيكن من برج قلعة لندن

يستعطف الملك جيمس الأول

وصف بعضهم بارون ڤريلم وڤيكونت سنت أولبنز الشهير باسم فرنسس بيكن[١] بأنه صاحب أقوى عقل فى جميع العصور . ولقد أوشك بيكن أن يحقق المثل الأفلطونى الأعلى للحاكم الصالح وهو « الملك — الفيلسوف » ، فقد كان المرشد والناصح لاثنين من الملوك الذين تعاقبوا على عرش إنجلترا :

وكان بيكن نفسه من نسل أسرة عريقة فى المجد ، وكان عالما طبيعيا ومشرعا وفيلسوفا وسياسيا . وأصبح بفضل هذه الكفايات النادرة مستشار الملكة إلزبث ، كما كان فى عهد خلفها جيمس الأول مدعيا عموميا وحامل أختام الملك ووزيرا للمالية .

ولد بيكن فى عام ١٥٦١ ومات عام ١٦٢٦ ، واتهم أمام مجلس الأعيان الإنجليزى بالرشوة حين كان يحكم فى بعض القضايا الهامة ، واعترف أمام المجلس بالارتشاء والإهمال ، ولكنه أنكر أنه حاد عن طريق العدالة . ويشتهر بيكن بمقالاته التى تحتوى على طائفة كبيرة من الحكم والأمثال والمعانى العميقة ، التى لا يزال لها من الأثر فى عقول الناس ما كان لها فى أيامه ؛ ولكن كاتبها نفسه كان رجلا متلافاً قبض عليه مرتين لعجزه عن أداء ديونه ، كما كان سياسيا دساساً كثير المطامع ، غدر مرتين بصديقه الذى أحسن إليه وهو إيرل إسكس ، وكان سببا فى إعدامه ، ونال على هذه الخيانة المنقطعة النظير ألفا ومائتى جنيه من الملكة إلزبث ، فنجا بذلك من أزماته المالية الناشئة من بذخه ، وبدأ يرقى مدارج النعمة والصولة . ويصفه الشاعر الإنجليزى پوپ[٢] بأنه « أعقل بنى الإنسان وأذكاهم وأحقرهم[٣] » .

وكان بيكن متعطشا إلى تقدم العلوم ولكنه لم يهمل قط العمل لتقدمه هو .

وبلغ ذروة مجده فى سن الخمسين من عمره ، ثم أفل نجمه حين اتهم بالرشوة ، وحكم

---

(١) Baron Verulam, Viscount st. Albans. Francis Bacon. (٢) Pope

(٣) انظر هذا الوصف فى مقال پوپ عن الإنسان Essay on Man ، وانظر حياة بيكن فى مقال مكولى عنه ، واقرأ بعض مقالاته فى كتابنا « مقالات مختارة من الأدب الإنجليزى » .

عليه بغرامة قدرها أربعون ألف جنيه ، ثم عزل من منصبه وسجن فى قلعة لندن لا يبرحها إلا إذا شاء الملك ، وفيها كتب الرسالة التالية إلى الملك يستعطفه .

— ٣٣ —

« . . . . هذا الشقاء الذى أعانيه . . . . »

سيدى صاحب الجلالة

إن هذا الشقاء الذى أعانيه لا يخففه أمل أرتجيه ، وإنما تخففه ذكرى السعادة التى كنت أنعم بها ؛ فأكبر سلوتى فيه أن أذكر ... أن الحظ قد أسعدنى يوما ما بأن خدماتى الحقيرة نالت رضاء جلالتك ، وأنها كانت موضع عطفك ... ذلك أنى كنت على الدوام أستمد من فضلك وأغترف من معينك الفياض الذى لا ينضب . وقد أعقب تلك النعمة التى ظللت أتمتع بها فى الرخاء تسعة عشر عاما نعمة أخرى من نوعها تمتعت بها حتى فى أشد أوقات محنتى ، وتلك هى أن التهم التى وُجِّهت إلىّ لم تكن من بينها تهمة واحدة ذات صلة خاصة بجلالتك ... ، وإنى لأعلم علم اليقين أن أفكار جلالة الملك خالصة نقية نحو خادمه الخاضع الذليل .

والحق يا صاحب الجلالة أن العناء الذى أقاسيه عناء مضن لا يحتاج إلى ما يزيده . لقد رفعت قدرى يا صاحب الجلالة بما خصصتنى به من فضل عظيم لست جديرا به ، إذ جعلتنى أكبر عامل فى مملكتك . لقد كنت تضع ذراعك فوق ذراعى فى المجلس حين كنت ترأس جلساته ، إذ كان مجلسى فيه إلى جوار مجلسك . ولقد حملت صورة جلالتك المعدنية ، ولكنى حملت صورة أخرى لك فى قلبى . ولم يحدث فى التسعة عشر عاما التى قمت فيها بخدمة جلالتك أن سمعت منك كلمة واحدة جافة ... ولكن أى فائدة ترجى من هذه الأشياء التى انقضى عهدها ؟ إن كل ما يفيده هذا هو توكيد سقوطى من عليائى .

ذلك ما وصل إليه أمرى . لقد مضى علىّ فى بؤسى هذا عام ونصف عام وإن كنت أقر أنى لا أزال أتمتع بفضلك ورحمتك ، لأنى لا أستطيع أن أصدق أن من كنت تحبه يوما ما يمكن أن يكون شقيا بائسا .

أما ثروتى فقد أصبحت بفضل تبذيرى ضئيلة لا تزيد على ما خلفه لى والدى .

... وإنى لواثق يامولاى من أن معجزة سوف تحدث ، وأنا أكثر من هذا ثقة بإحسانك

وبأن جلالتك لن تسمح بأن يشوه اسم خادمك المسكين ذلك التشويه كله ، وأن يمحى إلى الأبد من سجلاتك ، وقد كنت من قبل تغدق عليه كل يوم دلائل جديدة من الإكرام والتبجيل .

وإنى لعظيم الرجاء فى أن الله جل وعلا سيبعث الرحمة بى فى قلبك ، وهو أكثر القلوب استعداداً لها . وقد حبانى الله فى شدتى ورخائى بكثير من دلائل هذه الرحمة ، وإن كان كفرى بنعمته قد حال بينى وبين التمتع بها . . . وأرجو أن يأذن مولاى لخادمه الخاضع أن يختم هذه الرسالة بتلك الكلمات التى تمليها علىّ الضرورة القصوى : أعنِّى يا مولاى وسيدى وارحمنى حتى لا أضطر بعد أن حملت أختامك أن أحمل الأثقال فى هذه السن ، أو أن أرغم على العمل لكسب عيشى وأنا الذى كنت أعيش للدرس والعمل . . . وقاك الله السوء يا صاحب الجلالة ، وبارك فيك ، وأفاض عليك من نعمته .

خادمك وناصحك القديم المسكين

فرنسس سنت أولبنز

* * *

ويشك بعضهم فى أن الرسالة وصلت إلى يد الملك فعلا ، ولكن كاتبها نفسه كان يرجو أن تصل إلى يديه هى وغيرها من الرسائل التى بعث بها إليه . وسواء وصلته أو لم تصله فإن الملك قد أشفق على « خادمه وناصحه القديم المسكين » وأمر بإطلاق سراحه بعد أن قضى فى السجن أربعة أيام لا أكثر .

ثم خفض جيمس الغرامة التى فرضت عليه . وكتب بيكن بعد محنته واعتزاله الحياة العامة أهم كتاباته الفلسفية : فأخرج عدة رسائل قيمة فى العلوم وفيما وراء الطبيعة وفى الأدب . على أن أهم ما يشتهر به بيكن مقالاته القصيرة القوية اللفظ والمعنى التى نشرها فى السنة السادسة والثلاثين من عمره ، ثم كتابه العظيم « الأداة الجديدة » Novum Organum وهو من أهم ما كتب فى تاريخ الفلسفة إلى هذا اليوم .

جلليو يبصر أشياء عجيبة فى السماء

[رسالته إلى بلساريو ڤنتا](١)

ولد جلليو أكبر علماء عصره فى الخامس عشر من شهر فبراير سنة ١٥٦٤ قبل موت ميكل أنجلو أعظم فنان فى عصره بثلاثة أيام . واضطره أبوه ڤنسنزو(٢) أن يدرس الطب ولكنه عدل عنه إلى الرياضة والطبيعة ، وأظهر فيهما من النبوغ ما أمكنه أن يُدَرِّسهما ويحاضر فيهما فى جامعة بيزا . وفى هذه الجامعة أجرى التجربة التى أثارت عليه غضب ولاة الأمور فى الجامعة والكنيسة ، إذ أسقط من برج بيزا المائل ثلاثة أثقال ، وأثبت أنها وإن اختلفت كتلتها تصل إلى الأرض فى وقت واحد ، على عكس ما كان يعتقده أرسطوطاليس .

واصطدم مع ولاة الأمور مرة أخرى بعد أن صنع لنفسه مرقباً (ويحسن أن نشير هنا إلى أنه هو نفسه لم يخترع المرقب اختراعا) ، ونظر فى السماء ، ثم كتب إلى زميله الفلكى كپلر(٣) يقول : «عزيزى كپلر ، لو أنك سمعت الاعتراضات التى يوجهها إلى أكبر فيلسوف فى الجامعة لأغرقت فى الضحك . لقد أخذ هذا الفيلسوف الكبير يدلى فى حضرة الدوق فى بيزا بمحاكاته المنطقية كأنها رقى سحرية يريد بها أن يطرد الكواكب الجديدة من السماء » .

وكانت الكواكب الجديدة التى يشير إليها جلليو فى هذه الرسالة هى أقمار المشترى . وقد كتب جلليو من مدينة البندقية الرسالة التالية إلى كوزيمو الثانى(٤) دوق تسكانيا — وهو الذى أضحى بعد شهرين من ذلك الوقت نصيراً له — يصف ما شاهده بمرقبه :

— ٣٤ —

« . . . أربعة كواكب جديدة »

[فى ٣٠ يناير سنة ١٦١٠]

إنى الآن مقيم فى البندقية أعد العدة لنشر بعض نتائج أرصاد لى أجريتها بمرقب لدى على الأجرام السماوية . وكانت أرصاداً عجيبة إلى أقصى حد ، ولذلك فإنى أحمد الله جل

(١) Belisario Vinta
(٢) Vincenzo
(٣) Kepler
(٤) Cosimo

شأنه إذ من علىّ بأن جعلنى أول من شاهد هذه الأشياء العجيبة التى ظلت خافية على الناس طوال العصور الماضية . وكنت قد أثبت من قبل أن القمر جرم شديد الشبه بالأرض ، وأخبرت بذلك أميرنا العظيم ، ولكنى لم أوضحه له كل الوضوح ، لأنى لم يكن لى هذا المرقب العظيم الذى أمتلكه اليوم . وقد رأيت بهذا المرقب القمر وطائفة لا حصر لها من النجوم الثوابت لم يرها أحد من قبل ، ويبلغ عددها عشرة أمثال ما يستطيع الإنسان أن يبصره بالعين العارية . وحققت فضلا عن هذا ما كان من قبل مثاراً للجدل بين الفلاسفة وهو حقيقة المجرّة .

ولكن أعجب ما كشفته كله أربعة كواكب جديدة رصدت حركاتها فرادى ومنسوبة بعضها إلى بعض ، وما بينها و بين حركات الكواكب الأخرى من اختلاف . وهذه الكواكب الجديدة تدور حول نجم آخر عظيم الحجم جدا ، كما تدور الزهرة وعطارد —وسائر الكواكب المعروفة فى أغلب الظن— حول الشمس . وفى عزمى حين أنتهى من طبع رسالتى أن أرسلها على سبيل الإعلان إلى جميع الفلاسفة والرياضيين ، وسأبعث بنسخة منها إلى الدوق الأكبر ومعها مرقب جيد حتى يتحقق بنفسه من صدق هذه الأرصاد الجديدة .

* * *

وكتب جلليو إلى صديق له يدعى كستلى[1] ، وهو راهب من الرهبان البندكتيين[2] ، رسالة يؤكد فيها نظرية كبرنيق التى تقول إن الكواكب تدور حول الشمس ، ويعارض نظرية بطليموس والكنيسة القائلة بأن الأرض مركز الكون كله .

فاستدعى أمام محكمة التفتيش ، وأمره الكردينال بلرمين[3] كبير رجال الدين وقتئذ أن يعدل هذه النظرية ، وألا يكتب أو يقول شيئاً عن نظرياته الجديدة التى يدعى فيها أن الشمس مركز الكون وأن الأرض تدور حولها ، وهى نظريات «سخيفة باطلة يكذبها الدين وتؤدى إلى الكفر ، لأنها تناقض ما ورد فى الكتاب المقدس» . ووعده جلليو بذلك ، ولكنه أخلف هذا الوعد فى عام ١٦٣٢ حين ثار الجدل مرة أخرى حول هذا الموضوع ، فاستدعته محكمة التفتيش إلى رومة مرة ثانية ، وحاول صديقه كستلى أن يفهمهم أنهم

---

(١) Castelli

(٢) أتباع سانت بندكت

(٣) Cardinal Bellarmine

لا يستطيعون « بعد الآن أن يفعلوا شيئاً يمنع الأرض أن تدور » ، ولكن أحداً لم يستمع إليه . وكان جليلو وقتئذ شيخاً عليلا طاعناً فى السن ، بلغ الخمسين من عمره ، فخشى التعذيب الذى كان لا بد أن يلقاه إذا أصر على قوله ، فركع أمام القضاة وأنكر نظريته .

ويروى أنه بعد أن أجابهم إلى طلبهم قال بصوت خافت : « ولكنها تدور ما فى ذلك شك ! » .

وعاش جليلو طوال حياته تقريباً بعيداً عن أهله وأصدقائه ، وفرضت عليه رقابة شديدة وظل مهدداً بالسجن والعذاب إذا حاول نشر آرائه . وزاره فى إيطاليا الشاعر الكبير ملتن فى عام ١٦٣٨ ، وكان قد فقد بصره ونشر منذ قليل كتابه المسمى : « أحاديث فى عالمين جديدين» . وقال عنه ملتن فى كتابه أريوبجيتا[١] — وهو دفاع مجيد عن حرية الصحافة[٢] : « زرت جليلو الشهير فوجدته شيخاً كبيراً سجيناً بأمر محكمة التفتيش ، لأنه يرى فى علم الفلك ما لا يراه الموظفون من الفرنسيسكان والدمنيكان » .

ومات جليلو فى عام ١٦٤٢ فى السنة التى ولد فيها عالم آخر كبير واصل أبحاثه وهو سير إسحق نيوتن .

---

(١) Areopageta (٢) انظر وصف هذا اللقاء فى كتابنا عن ملتن .

بليز پسكال[1] يطلب إلى زميل له

أن يجرى تجربة لإثبات نظرية علمية

ربما بدا للقارئ أن هذه الرسالة القصيرة غير جديرة بأن تثبت فى كتاب أدبى قبل كل شيء ، ولكننا أثبتناها لأن فيها دليلا على روح البحث العلمى الحق . ذلك أن كاتبها العالم والفيلسوف والرياضى الكبير يأبى إلا أن يخضع أفكاره للتمحيص العلمى الدقيق ، ويحرص على التعاون مع زملائه العلماء وإن كانوا أقل منه درجة .

وقد ولد پسكال فى شهر يونيــة من عام ١٦٢٣ ؛ وأعظم ما يشتهر به « تأملاته[2] » التى ترجمت إلى الإنجليزية فى عام ١٨٥٠ ، ولكن شهرته العلمية ليست أقل من شهرته الفلسفية ، فهو صاحب نظرية الاحتمالات الشهيرة ، وممن لهم فضل كبير فى قياس الضغط الجوى . وقد زادت تجاربه من معلوماتنا عن هذا الضغط وعن توازن السوائل .

وبعد أن تنبأ پسكال بالحقيقة العامة البسيطة ، وهى أن ضغط الهواء على قمة الجبل يجب أن يكون أقل منه فى باطن الوادى ، رأى أن تنبؤه هذا لا يمكن إثباته أو نقضه إلا بالتجارب العلمية ، ولهذا بعث بالرسالة التالية إلى صهره فلورن پرييه[3] .

— ٣٥ —

« . . . وأن أضايقك بأسئلة فى الطبيعة . . . . »

١٥ نوفمبر سنة ١٦٤٧

لقد سمحت لنفسى بأن أقطع عليك أعمالك الرسمية اليومية ، وأن أضايقك بأسئلة فى الطبيعة ، لأنى أعلم أنها تسليك وترفه عنك فى أويقات فراغك . . . أريد أن أسألك عن شيء يتعلق بالتجربة المعروفة التى تجرى بأنبوبة تحتوى زئبقا فى أسفل الجبل مرة وعلى قمته مرة أخرى ، والتى تتكرر أكثر من مرة فى اليوم الواحد ، ليعرف بها هل يظل ارتفاع أنبوبة الزئبق واحدا فى الحالتين ، أو يختلف فى إحداهما عنه فى الأخرى ... ، وإن كنت

---

(١) Blaise Pascal (٢) Pensees (٣) Florin Perier

لا أشك فى أن الهواء فى أسفل الجبل أثقل كثيرا منه فى أعلاه .

* * *

و بعد سنة من هذا التاريخ ، أى فى ٢٢ سبتمبر سنة ١٦٤٨ ، تلقى پسكال الرد التالى من برييه :

« وأخيراً أجريت التجربة التى طالما رغبت فيها . . . فى أعلى پاى ده دوم[١] . . . ، فوجدت ارتفاع أنبوبة الزئبق ٢ر٢٣ بوصة ، على حين أن ارتفاعها فى الحديقة قد وصل إلى ٢٦٫٣٥ بوصة ، أى أن الفرق بين ارتفاع الزئبق فى الأنبوبة فى الحالتين بلغ ٣٫١٥ بوصة — ، وقد أثارت هذه النتيجة دهشتنا و إعجابنا » .

ومات پسكال فى شهر أغسطس من عام ١٦٦٢ .

(١) Puy de Dome

كرستيانيا ملكة السويد ترتد عن الدين البروتستنتى

قبل نزولها عن الملك

[رسالتها إلى پيير شانوت][١]

لم تكن كرستيانيا ملكة السويد وابنة جستاف أدلف[٢] تشبه أباها إلا فى أنفه الأقنى ، وشعره الأشقر ، وجبهته العالية ، وعينيه الزرقاوين . أما من حيث هى ملكة ، فقد بذلت جهدها فى دفع السويد إلى هوة الإفلاس ، ولكن الأقدار أسعفت البلاد بنزولها عن عرشها ، فنجت بذلك من التردى فى هذه الهوة .

جلست كرستيانيا على العرش فى الثامنة عشرة من عمرها ، بعد أن بلغت سن الرشد وتسلمت مقاليد الحكم من مجلس الوصاية ، أخذت من ذلك الحين تنفق المال جزافا ، وتمنح ألقاب الشرف بلا حساب ، وتتطفل على الفنون والعلوم ، وتستقدم إلى بلاطها الفنانين والعلماء .

واستدعت إلى بلاطها جروتيس[٣] وديكارت[٤] ، ووظفت لكليهما معاشاً حسناً . وكان ديكارت وكرستيانيا يتبادلان الرسائل على يد پيير شانوت سفير فرنسا فى السويد ، وأحد المقربين إلى الملكة ؛ وقد بلغ من أمر صداقتها هى وديكارت أن كان هذا الفيلسوف الكبير يتحدث إليها فى رسائله عن أسباب الحب وأغراضه ، وهى أمور لم يكن من عادته أن يبحث فيها . . . . على أن مقامه فى جو الشمال القاسى لم يدم طويلا ، فمات بعد قدومه إلى السويد بزمن قليل .

ولما طلب مجلس الدولة إلى الملكة أن تتزوج ، رفضت رفضاً باتا ، لأنها لم تكن تفكر مطلقاً فى أن تخضع إلى رجل واحد . وكان ردها على هذا الطلب أن أعلنت اسم من يخلفها على العرش ، واستمرت فى لهوها وفجورها .

وكانت كرستيانيا تتلقى خفية تعاليم المذهب الكاثوليكى ، كما كانت تسخر جهرة من

---

(١) Pierre Shanut (٢) Gustavus Adolphus

(٣) Grotius (٤) Descartes

مذهب لوثر الذى يدين به شعبها . وتأزمت الأمور بينها و بين الشعب إلى أقصى حد ، ولكن كرستينانيا حلت الأزمة على أهون سبيل ، بنزولها عن العرش فى السابعة والعشرين من عمرها . ذلك أنها وقد اعتزمت أن تعتنق المذهب الكاثوليكى لم تكن تتوقع أن يرضى شعبها البروتستنتى بأن تكون ملكة عليه . ويقول بعض المؤرخين (ولعل حياتها فى رومة بعد نزولها عن عرشها مما يؤيد قولهم) إنها ملت البقاء على عرش بلادها الجرداء ، و إنها كانت تتوق إلى أن تضرب للعالم مثلا رائعاً فى نزول ملكة عن عرشها فى عنفوان مجدها وقوتها . وقد كتبت الرسالة التالية إلى صديقها القديم شانوت تقول إنها تريد أن تهب حياتها للدرس .

— ٣٦ —

« لقد ملكت فى غير زهو ، ولست أجد صعوبة فى النزول عن الملك »

وستراس[١] فى الثامن والعشرين من فبراير سنة ١٦٥٤

لقد حدثتك من قبل عن الأسباب التى تضطرنى إلى الإصرار على عزمى فى النزول عن العرش ؛ وأنت تعلم أن هذه الفكرة قد تملكتنى زمناً طويلا ، وأنى لم أقرر تنفيذها إلا بعد أن ظللت أفكر فيها ثمانىَ سنين ، وقد أخبرتك برغبتى هذه من خمس سنين على الأقل ، إذ تبين لى فى ذلك الوقت أن لا شىء يحملك على مقاومة رغبتى هذه إلا عنايتك بأمرى واهتمامك بمصلحتى و إن لم تستطع دحض الحجج التى أدليت بها مهما بذلت من الجهد لتثنينى عن عزمى . ولقد سرنى أنك لم تر فى هذه الفكرة شيئا يحط من قدرى ، و إنك لتعرف ما قلته لك فى هذا الأمر حين حظيتُ بالتحدث إليك عنه . ولم يحدث خلال هذا الوقت الطويل ما يثنينى عن عزمى .

ولقد وجهت أعمالى كلها هذه الوجهة ، وأردت بها هذه الغاية ، ولست أتردد الآن فى أن أبلغ هذا الهدف وأختفى وراء الستار . ولستُ أبالى أيحمد لى الناس هذا العمل أم يلومونى عليه ، وأنا أعلم أن المناظر التى مثلت فيها دورى لم يكن من المستطاع أن تهيأ حسب القواعد المألوفة ، ولم يكن من السهل أن أدخل عليها من عنصر الرجولة والقوة ما يجعلها محببة

(١) Westeras

سارة : فليحكم عليها كل إنسان حسبما يراه فيها من خير أو شر ، فلست أستطيع أن أُضيِّق على أحد ، ولست راغبة فى هذا التضييق لو أننى استطعته . و إنى لأعلم أنى لن أجد فى الناس إلا نفراً قليلا يرضى عن تصرفى هذا ، وما من شك لدى فى أنك أنت من هذا النفر القليل . أما سائر الناس فإنهم يجهلون مزاجي والأسباب التى اضطرتنى إلى أن أسلك هذا المسلك ، وذلك لأنى لم أجهر بآرائى إلا لك ولصديق آخر له نفس عظيمة سامية يستطيع أن يحكم بها على تصرفى كما تحكم عليه أنت ، غير أن « من لم يُرْض إلا واحداً لم يرض فى واقع الأمر أحداً » .

أما غيركما من الناس فليس لهم عندى إلا الاحتقار ؛ وأعظمهم منزلة عندى من أجد فيه من السخف ما يسلينى و يضحكنى .

وما من شك فى أن الذين يحكمون على هذا العمل حسب القواعد المرعية والحِكم المأثورة العادية سيذمونه و ينكرونه علىّ ، ولكنى لن أكلف نفسى عناء الرد عليهم أو الاعتذار لهم ، ولن يبلغ بى الحمق الحد الذى يجيز لى أن أضيع شيئاً من الفراغ الذى أعد نفسى للتمتع به فى التفكير فى أمرهم ، بل سأصرف هذا الوقت فى التفكير فى حياتى الماضية و إصلاح ما ارتكبته من أخطاء ، من غير أن أدهش منها أو أندم عليها . وما أعظم ما أجده من السرور حين أذكر أنى كنت أجد اللذة فى عمل الخير إلى بنى الإنسان ، و فى إنزال العقاب بمن يستحقون العقاب . وسأجد راحة واطمئناناً فى أنى لم آخذ أحداً بذنب إلا إذا كان قد ارتكبه حقا ، وفى أنى كنت أعفو حتى عن المذنبين .

وكان لمصالح الدولة عندى المقام الأول ، فضحيت فى سبيلها بكل شىء ، وضحيت به وأنا مغتبطة أعظم الاغتباط ، ولا أعتقد أنى ارتكبت فى تصريف شئونها ما ألوم نفسى عليه .

لقد ملكت فى غير زهو ، ولست أعتقد صعوبة فى النزول عن الملك ، فلا تخش علىّ من شىء بعد هذا كله ، وأنا مطمئنة آمنة من تصاريف الأقدار ، وأنا سعيدة مهما يكن من أمرى :

« أيتها الآلهة إنى جد سعيدة ، وإن كان لا حول لى ولا قوة ، وهذا قربان منى إلى الله » .

نعم إنى أسعد الناس جميعاً وسأظل كذلك على الدوام . ولست أخشى تلك الأقدار التى تحدثنى عنها ، فكل شىء يبشر بالخير ، وليكن مصيرى كما تريده لى العناية الإلهية ، فأنا راضية بما قسم لى ، خاضعة لأحكام القدر . أما خطتى فى المستقبل فليترك أمرها لى وحدى ، وسأوَجه ما وهبنى الله من فطنة إلى إسعاد نفسى ، وسأظل سعيدة ما دمت واثقة من أننى لم أفعل شيئاً أخشى بسببه الله والناس ، وسيظل ذلك نصب عينى مادمت على قيد الحياة ، وسأقضى بقية عمرى أقوى به عزيمتى ، وأرقب من هذا المرفأ الأمين متاعب أولئك الناس الذين تقذف بهم عواصف الحياة فى لججها المضطربة ، لأن عقولهم عجزت عن التفكير فيما فكرت فيه .

ألست الآن فى حالة خليقة بأن يحسدنى الناس عليها ؟ إنى لا أشك مطلقاً فى أن الناس لو عرفوا حقيقة أمرى لحسدنى الكثيرون منهم عليها . أما أنت فإنك تحبنى حبًّا يسمو بك عن هذا الحسد ، وأعتقد أنى جديرة بهذا الحب لما فى قلبى من عواطف أنت باعثها فيه . لقد بعثتها فى قلبى بحديثك وأرجو أن أزيدها يوما ما بحديثى إليك فى أوقات فراغى ، وما من شك لدى فى أنك لن تنقض عهدك ، وأنك ستظل صديقا لى مهما تبدلت الأحوال ، لأنى سأظل مستمسكة بكل ما هو جدير بإعجابك وتقديرك ، وسأحتفظ بصداقتى لك مهما يكن من شأنى ومقامى فى الحياة ، وستعلم أن تبدل الأحوال لن يغير قط من تلك الأفكار التى هى عنوان مجدى وفخرى .

أنت تعرف هذا كله ، وتعرف من غير شك أن أعظم ما أستطيع أن أعاهدك عليه هو أن أقول لك إنى سأظل ما حييت .

كرستيانيا

***

ويقول الإيطاليون إن كرستيانيا خلعت عن رأسها تاج السويد لتعنى بشئون العالم كله . وبعد أن نزلت عن الملك غادرت استوكهلم فى زى الرجال ، وتسمت باسم الكونت دهنا[1] ومرت فى سفرها بمدينة أنزبروك[2] ، حيث قبلت رسميا فى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ،

---

(١) Count Dohna

(٢) Innsbruck

وقضت بعد ذلك بضعة أشهر تجول فى أوربا . وكانت أينما وجدت تثير حولها ضجة عنيفة . ذلك أن اعتناق ملكة بروتستنتية المذهب الكاثوليكى لم يكن شيئاً مألوفا . ولما دخلت أرض فرنسا نفر الرجال من ملابسها وصوتها الأجش ، وتشبهها بالذكور فى حركاتها وأخلاقها . أما النساء فقد سررن برؤيتها ، حتى قالت فيها إحدى نساء البلاط إنها أجدر النساء بأن يعرفها الناس فى فرنسا بأجمعها .

ثم وصلت رومة آخر الأمر فى موكب رسمى . ولما انفضت الحفلات التى أقيمت تكريما لها كتبت إلى صديق لها تقول : « إياك أن تظن أن البلاد التى أقيم فيها هى موطن الحكماء والأبطال ، وملجأ الكفايات والفضائل ، وإن كانت فيما مضى قد أخرجت للعالم أعظم الرجال . إن فيها تماثيل ومسلات وقصوراً فخمة ، ولكنها خالية من الرجال » . وأقامت كرستيانيا فى إيطاليا تفعل فيها ما تشاء ، وكانت منذ نشأتها شديدة الإعجاب بالآداب والفنون ، ولهذا أضحت فى إيطاليا من أسخى الناس يدا على الشعراء والموسيقيين والفنانين .

وكانت حاضرة البديهة شديدة الذكاء ، تضرب بفكاهاتها الأمثال ، وكانت تطوف ومن حولها حرسها فى شوارع رومة تحبو بعطفها من تشاء . أما المشاكل التى تثيرها مع ولاة الأمور الدينيين والمدنيين فكانت مثارا لاستهزاء الشعب ومصدرا لمتاعب البابا ورجال الدين وأعيان البلاد . وكانت مولعة بالتمثيل ، أعدت له فى قصرها مسرحا تمثل فيه أقذر أنواع المسرحيات . وكانت إذا وصلت أحد المسارح العامة متأخرة ، وضج الشعب لأنها كانت سببا فى تأخر التمثيل ، وقابلها بالاستهزاء والصفير ، شاركته من فورها فى صفيره واستهزائه .

وماتت كرستيانيا فى الثانية والستين من عمرها ، ولما تفقد قط شيئاً من صلفها وقوة جسمها ، ودفنت فى كنيسة القديس بطرس ، وتليت عشرون ألف صلاة على « روح هذه السيدة العظيمة الشأن التى اعتنقت المذهب الكاثوليكى » ، وما من شك فى أن روحها كانت أشد ما تكون حاجة إلى هذه الصلوات .

أورنكزيب عاهل الهند يؤنب أحد مدرسيه السابقين

على ما كان يفرضه عليه من « أشياء . . . . صعبة الفهم سهلة النسيان »

[رسالته إلى معلمه]

توج أورنكزيب ملكا على الهند فى عام ١٦٥٨ بعد نزاع طويل على وراثة العرش بينه و بين أبيه و إخوته . ولما تولى أمرها حكمها حكما صالحا كريما ، ظفر فيه بمجد حربى عظيم . ولم يكن أورنكزيب يعتقد أن نجاحه فى حكمه يعود إلى ما تلقاه من علم فى صباه ، كما تدل على ذلك الرسالة التالية ، وهى رسالة شخصية فى التعليم ، ولكنها عظيمة القيمة . وقد كتبها إلى معلم له فى صباه ، جاءه يطلب إليه أن يوليه منصبا ويهبه جائزة . وتعد هذه الرسالة من أحسن ما كتب فى التربية فى الزمن القديم .

— ٣٧ —

« . . . . طائفة كبيرة من الألفاظ المبهمة الغامضة . . . . »

ماذا تريد منى يا أستاذ ؟ هل يعقل أن أهبك أنت منصباً من المناصب الرئيسية فى بلاطى ؟ لو أنك علمتنى ما كان يجب أن أتعلمه لما كان شىء فى نظرى أعدل من هذا ، وذلك لأنى أعتقد أن الطفل الذى يربى التربية الصالحة ، ويعلم التعليم الصحيح ، يدين لمعلمه بقدر ما يدين لوالده على أقل تقدير .

ولكن أين ذلك التعليم الذى علمتنى ؟ لقد علمتنى أن بلاد الإفرنج كلها (وأظن أن هذا الاسم هو الذى تسمون به بلاد أوربا) بلاد حقيرة الشأن لا تعدو أن تكون جزيرة صغيرة ، أعظم ملوكها ملك البرتغال ، ويليه فى المنزلة ملك هولندة ثم ملك إنجلترا . أما غير هؤلاء من الملوك أمثال ملك فرنسا وملك الأندلس ، فقد صورتهم لى فى صورة صغار الأمراء عندنا ، وقلت إن ملوك الهند أعظم من هؤلاء جميعاً ، لأنهم (ملوك الهند) هم العظماء الفاتحون ملوك العالم بأجمعه . وكان مما حدثتنى به أن ملوك الفرس والأزبك والقشغر والتتار واليابان والصين والمنشو ، كل هؤلاء ترتعد فرائصهم فرقا إذا ذكر اسم ملك الهند أمامهم ...

ألا ما أعظم هذا العلم وأعجبه ! لقد كان أجدر بك أن تعلمنى كيف أميز هذه الدول بعضها من بعض ، وأن أعرف مقدار قوتها وأساليب القتال لديها ، وعادات أهلها وديانتهم ، ونوع حكوماتها وما يعنيها من الأمور ، وأن أقرأ تاريخها الصحيح فأعرف منه كيف نشأت وارتفعت ، ثم اضمحلت وسقطت ، وأن أعرف أيضا أين قامت الانقلابات والثورات العظيمة التى حدثت فى الدول والممالك ، وكيف حدثت ، وما هى الظروف التى حدثت فيها ، وما هى الأخطاء التى كانت سبب حدوثها .

إنى لم أكد أعرف منك أسماء آبائى الأولين ، أولئك العظماء الذين أسسوا هذه الدولة ، ولم أتلق عنك شيئا من سيرتهم ، وكيف شادوا هذا الملك الواسع العظيم .

لقد أردت أن تعلمنى اللسان العربى والقراءة والكتابة . ألا ما أعظم فضلك علىّ إذ أضعت وقتى فى تعلم لغة لا يستطيع أحد أن يتقنها إلا بعد عشر سنين أو اثنتى عشرة سنة ، كأن من واجب أبناء الملوك أن يكونوا علماء مبرزين فى النحو ، أو جهابذة فى القانون ، وأن يدرسوا اللغات ، غير لغات جيرانهم إذ كانوا فى غنى عنها ، وأن ينفقوا فيها من وقتهم الثمين ما هم فى حاجة إليه ليتعلموا فيه أشياء قيمة يجب عليهم أن يتعلموها قبل فوات الأوان ، أو كأن النفوس لا تشمئز أو قل يصغر شأنها إذا طلب إليها أن تصرف جهودها فى هذا العمل الجاف المحزن الطويل الممل ، ألا وهو حفظ الألفاظ .

ألا تعلم أن الطفولة إذا أحكم قيادها تستطيع بما يصحبها فى العادة من ذاكرة قوية سعيدة أن تستوعب آلافا من الحكم والتعاليم النافعة التى لا تمحى آثارها طول الحياة ، والتى تسمو بالعقل وتهيئه لجلائل الأعمال على الدوام ؟ أليس فى وسعنا أن ندرس القانون والأدعية والصلوات والعلوم على اختلاف أنواعها بلغتنا كما ندرسها باللغة العربية ؟ لقد قلتَ لأبى شاه جهان إنك ستعلمنى الفلسفة . والحق أنى لأذكر جيدا أنك ظللت سنين كثيرة تسلينى بأسئلة خيالية عن أشياء لا يقنع بها العقل ولا تنفع المجتمع البشرى بشىء ، لأنها أفكار جوفاء وأوهام كل ما تستطيع أن تقوله عنها أنها صعبة الفهم سهلة النسيان ... » .

ولا أزال أذكر أنك ظللت تسلينى بفلسفتك الجميلة زمنا لا أعرف طوله ، ثم لم يبق منها فى ذاكرتى إلا طائفة كبيرة من الألفاظ الهمجية الغامضة ، خليقة بأن تحير أذكى العقول

وتشتتها وتوهنها ، ولم يبتدعها أصحابها إلا ليستروا بها جهل أمثالك من الناس وغرورهم ، أولئك الذين يريدون أن نعتقد أنهم يعرفون كل شيء ، وأن من وراء ألفاظهم المبهمة الغامضة أسرارا عظيمة لا يستطيع غيرهم أن يدركها . ولو أنك أنرت بصيرتى بنور الفلسفة الحقة التى تثبّت العقل وتعوده من حيث لا يشعر ألا يقتنع إلا بالحقائق ، ولو أنك لقنتنى المبادئ والعقائد التى تسمو بالنفس البشرية فوق تصاريف الأقدار وتجعلها ثابتة لا تتزعزع ، فلا تبطرها النعمة ولا تذلها الشدة ، ولو أنك عنيت بأن تعلمنى ما الخلق وما أصول الأشياء ، وأعنتنى على أن أكوّن لنفى صورة لعظمة الكون ونظامه العجيب ، وحركة أجزائه ، لو أنك علمتنى هذا النوع من الفلسفة لاعتقدت أنى أدين لك بأكثر مما يدين به الاسكندر لأرسطوطاليس ، ولرأيت أن من واجبى أن أجزيك بغير ما جازى به الإسكندر معلمه .

ألم يكن واجبا عليك بدلا أن تتملقنى أن تعلمنى بعض ذلك العلم الذى لا غنى للملوك عنه ، أعنى به ماذا يجب عليهم لشعوبهم ، وماذا يجب على الشعوب لهم ؟ ألم يكن واجبا عليك أن تعرف أنى سأضطر يوما ما إلى امتشاق الحسام لأستخلص به من إخوتى حياتى وتاجى ؟

أم هل عنيت بأن تعلمنى كيف نحاصر المدن أو نعبئ الجيوش ؟ إنى مدين لغيرك بعلم هذه الأشياء ، ولست مديناً بها لك . فعُد إذن إلى القرية التى جئت منها ولا تدع أحداً يعرف من أنت وماذا أصابك .

***

وليس لدينا ما نستطيع أن نعرف منه هل أطاع معلم الملك فى صباه أمر تلميذه القديم الذى تتضمنه العبارة الأخيرة من هذه الرسالة . وكل الذى نعرفه أنه أفلح فى الاختفاء عن أعين الناس بحيث لا يعرف أحد عنه أكثر من أنه الرجل الذى تلقى هذه الرسالة .

مدام ده سفنييه[١] تصف عشاء فى قصر الملك

فى رسالة كتبتها لابنتها مدام ده أورنيان

فى أواخر القرن السابع عشر كانت سيدة ثرية من بيت مجد قديم تسكن باريس ، وكانت من أذكى النساء وأقواهن بديهة ، ومن المقربات لملك فرنسا ، ومن صديقات الأدباء الفرنسيين كورنى[٢] و پسكال[٣] وديكارت[٤] ولاروشفوكولد[٥] ، ومن أقرب المقربات إلى مدام لافايت[٦] . وكانت تترك باريس مرتين فى كل عام وتهجر بلاط لويس الرابع عشر تنشد الراحة والهدوء فى مسكنها الريفى ، تقضى فيه وقتها ، تتمتع بجمال الطبيعة ، أو تكتب لابنتها المحبوبة رسائل خلدت اسمها فى صفحات التاريخ . ويصف بعض النقاد هذه السيدة بأنها أقدر الكاتبات فى جميع العصور ، وهم مجمعون على أن ما تمتاز به من مرح وفكاهة قوية لاذعة ، ومن قدرة عجيبة على ملاحظة الأمور التافهة المضحكة ، ومن التعبير عما تشاهده فى قوة ووضوح ، مجمعون على أن هذا كله كان من أكبر أسباب عظمة الأدب الفرنسى .

ولدت هذه السيدة — واسمها الكامل مارى ده رابوتن — شنتال مركيزة سفنييه فى باريس عام ١٦٢٦ ، وكانت من أسرة برجندية نبيلة ، وكانت حسناء مثقفة ، ورثت عن أبويها ثروة طائلة أضاعها زوجها كما أضاع ثروته الخاصة . وقد مات هذا الزوج من جرح مميت أصيب به فى مبارزة غرامية فترملت زوجته ولما تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها ، ولم تتزوج بعده قط ، وصرفت معظم وقتها فى الكتابة . وطبقت الآفاق شهرتها الأدبية ، ولكن أعظم ما تشتهر به رسائلها ، ومن هذه الرسائل رسالتها التى كتبتها فى اليوم الخامس عشر من ديسمبر عام ١٦٧٠ إلى مسيو ده كولنج[٧] ، والتى بدأتها بهذه الفقرة .

« سأحدثك عن أمر هو أعجب الأمور وأغربها وأكثرها إثارة للدهشة[٨] ، وأجلها

---

(١) Marie de Rabutin-Chantal Marquise de Sévigne

(٢) Corneille (٣) Pascale

(٤) Descarte (٥) La Rochefoucauld

(٦) Lafayette (٧) M. de Coulange

(٨) هذا التكرار مقصود وهو أيضاً فى الأصل الإنجليزى

شأناً وأكثرها بلبلة للعقل ، أمر لم يسمع به من قبل ، أمر فذ لا نظير له ، شاذ لا يصدقه عقل ولا يتصوره خيال ولا يتنبأ به متنبئ ، أمر هو أعظم الأمور وأصغرها ، وأندرها وأكثرها ذيوعا وانتشاراً ، وأخصها إلى يومنا هذا ، شيء لا نصدقه نحن فى باريس فكيف يصدقه من يقيم فى ليون ، شيء ينادى الناس من أجله « رحماك اللهم رحماك ! » ، شيء يبعث أعظم السرور فى قلب مدام روهان ومدام هوتريف[1] ، وملاك القول أنه شيء سيحدث فى يوم الأحد المقبل حين لا يصدق من يرونه ما تشهده حواسهم ، شيء يحدث يوم الأحد ، ولكنه لا يتم فى يوم الاثنين . لن أخبرك ما هو هذا الشيء فاحزر ما هو ، وسأعطيك لذلك ثلاث فرص . ويحك ! ألست تجد كلمة تقذف بها كلباً ؟ إذن لا بد لى أن أخبرك به » .

وبعد أن تثير مدام سفنييه فى نفس من تكتب إليه أعظم الشوق لمعرفة ما تريد أن تخبره به ؛ تقص عليه آخر ما حدث من الفضائح فى بلاط الملك على النحو الآتى :

— ٣٨ —

« . . . . . فانه كل ما هنالك سرا . . . . . . »

باريس فى يوم الأحد ٢٦ من إبريل سنة ١٦٧١

هذا يوم الأحد وهو اليوم السادس والعشرون من شهر إبريل ، ولن تخرج هذه الرسالة قبل يوم الأربعاء ، ولكنها أقرب إلى القصة منها إلى الرسالة ، قصة عرفتها توا من موريل[2] وهى تنبئ بما حدث فى شانتلى[3] لقاتل[4] المسكين . لقد كتبت إليك فى يوم الجمعة الماضى أنه انتحر . وإليك الآن تفاصيل ما حدث :

جاء الملك فى مساء الخميس ، واختير للوليمة مكان نسق أجمل تنسيق ، وأعدت الطريق الموصلة إليه أحسن إعداد ، ومدت موائد العشاء ، ولكن مائدة أو مائدتين كان ينقصهما

---

(١) Mme de Rohan ، Mme de Hauterive (٢) Moreuil
(٣) Chantilly (٤) Vatel

اللحم المحمر ، لأن ڤاتل اضطر أن يعد الطعام لأكثر ممن كان يتوقع قدومهم ، وكان لذلك فى نفسه أسوأ الأثر ، حتى لقد سُمع مراراً وهو يقول : «لقد ضاع شرفى ولست أطيق هذا العار » ويقول لجورڤى[1] : « لقد ذهب عقلى ، لقد ذهب عقلى» ، ولم تغمض عينى لحظة واحدة طول الاثنتى عشرة ليلة الماضية ، فليتك تساعدنى على إصدار ما أحتاجه من الأوامر » . ولم يدخر چورڤى جهداً فى سبيل راحته ومساعدته ، ولكن نقص اللحم المحمر (ولم يكن هذا النقص على مائدة الملك ، بل كان على بعض الموائد الخمس والعشرين الأخرى) كان على الدوام يقلق باله أشد القلق . وذكر جورڤى ذلك إلى الأمير ، فذهب من فوره إلى مكان ڤاتل وقال له : « إن كل شىء على مايرام يا ڤاتل ، ولا يمكن أن يكون شىء أحسن من عشاء الملك » . فأجابه : « هذا فضل منك يا سمو الأمير ، ولكنى أحس بأن هناك نقصاً فى اللحم المحمر على بعض الموائد » . فرد عليه الأمير بقوله : « لا ! لا تشغل نفسك بهذا ، وسيسير كل شىء على ما يرام » . وانتصف الليل ولم تفلح الألعاب النارية لأن سحابة كثيفة غشيتها ، وكانت نفقاتها قد بلغت ستة عشر ألف فرنك . وطاف ڤاتل بالمكان فى الساعة الرابعة صباحا ، فوجد من فيه كلهم نائمين ، إلا واحداً من صغار المتعهدين ، جاء وليس معه أكثر من حملين من السمك ، فقال له : « أهذا كل ما جئت به ؟ » فأجابه الرجل وهو لا يعلم أن ڤاتل أرسل الرسل إلى جميع الموانى التى حولهم ليأتوه بسمكها : « نعم يا سيدى » .

وانتظر ڤاتل بعض الوقت ، ولكن الموردين الآخرين لم يحضروا ، فارتبك وذهب عقله ، وظن أنه لن يجد من السمك غير ما عنده ، فأسرع إلى جورڤى وقال له : « سيدى لن أستطيع الحياة بعد هذا العار » . فسخر جورڤى منه ، ولكن ڤاتل ذهب إلى غرفته ، وثبَّت مقبض سيفه فى بابها ، غير أنه عجز مرتين عن أن ينتحر بهذه الطريقة ، أما فى الثالثة فقد أنفذ السيف فى قلبه .

وأقبل الحمالون فى تلك اللحظة يحملون السمك ، وبحثوا عن ڤاتل ليوزعه ، وأسرعوا إلى حجرته ، ودقوا الباب فلم يجبهم أحد ، ففتحوه عنوة ، وألفوه مطروحا على الأرض غارقا فى بحر من الدماء .

---

(١) Gourville

وأرسل رسول على الفور ليبلغ الأمير ما حدث ، فحزن و بلغ منه اليأس غايته ، و بكى الدوق لأن رحلته إلى برجنديا[١] لم تكن مستطاعة بغير ڤاتل ، وقص الأمير على جلالة الملك القصة كلها وهو حزين مضطرب . وعدها الكل أثراً من آثار الشعور القوى بالشرف ، وأخذ بعضهم يلومه و بعضهم يمتدح شجاعته .

وقال الملك إنه ظل يؤجل رحلته أكثر من خمس سنين ، لأنه كان يدرك أن متاعب جمة ستحيط بها ، وأخبر الأمير أنه كان واجباً عليه أن يكتفى بمائدتين ، وألا يكلف نفسه نفقة هذه الموائد كلها ، وأعلن أنه لن يسمح له بعدئذ بأن يفعل ما فعل فى هذه المرة . على أن هذا كله لم يجد ڤاتل نفعاً . وحاول جورڤى أن يسد النقص الذى خلفه ڤاتل ، ونجح فى ذلك نجاحا كبيراً ، وكان العشاء شهيا أنيقاً ، وكذلك كان النظام ، فتعشوا وتنزهوا وصادوا ، وكان المكان معطراً بأريج القنسرين ، وكان كل ما هنالك سحراً ...

* * *

وتلقت ابنة مدام ده سڤنييه طائفة كبيرة من أمثال هذه الرسالة ، ظلت تتوالى عليها عاماً بعد عام، إلى أن توفيت والدتها فى سنة ١٦٩٦ وتركت لها ثروة طائلة ، ولكنها لم ترع لأمها عهداً ، و بلغ من جحودها أن رفضت المجىء إليها فى مرضها الأخير . ولم تنقض على وفاة الأم بضع سنين حتى ماتت هى كما ماتت أمها بمرض الجدرى .

وكل ما يعرفه العالم الآن عن هذه الابنة العاقة أن لها أما تركت وراءها طائفة كبيرة من الرسائل البديعة .

---

(١) Burgundy

مارلبره[١] يرسل أخبار النصر إلى زوجته

بعد موقعـــــة بلنهيم[٢]

إن قصة غرام جون تشرشل وسارة جننجز[٣] لمن أروع القصص فى التاريخ الإنجليزى كله، ولا تقل فى روعتها عن الانتصارات الحربية التى جاءته بلقب دوق مارلبره، و بأملاكه الواسعة، وخلدت اسمه فى تاريخ إنجلترا .

وجاء لورد مكولى فى تاريخه الشهير فلم يترك منقصة إلا وصمه بها ، وحاول فى هذه الأيام حفيد من أحفاده ، وهو ونستن تشرشل أن يطهر اسم جده الكبير من مثالب مكولى ، وأفلح فى هذا إلى حد كبير . غير أن هذا المؤرخ السياسى نفسه لم يكن فى مقدوره أن يخفى عن القراء أن چون تشرشل تسنم ذروة المجد عن طريق سيدة شاركه فى حبها شارل الثانى ، تلك هى بربارة پالمر دوقة كليڤلند[٤] . ولم يكن هذا من غير المألوف فى عهد آل ستيوارت .

وظل چون تشرشل وفيا لدوقة كليڤلند حتى ظهرت فى البلاط سارة جننجز ترعاها فيه أخت لها أجمل منها . فأخذ قلب چون يتحول عن الدوقة ، وشغف حبا بسارة ، ودامت خطبته لها زمناً طويلا لأن أباه كان يريد له زوجة أكثر منها ثروة وأعظم شأناً . غير أن الخطبة انتهت بالزواج فى عام ١٦٧٨ .

وارتقى چون شيئاً فشيئاً فى المناصب الحربية مستنداً إلى معونة سارة فى بلاط وليم الثالث ملك إنجلترا ، حتى أصبح القائد الأعلى للجيش البريطانى الذى كان هو وحلفاء إنجلترا يحارب جيوش لويس الرابع عشر فى القارة الأوربية . و بذلت سارة جهدها لدى الملكة آن بعد أن خلفت وليم الثالث على العرش لكى ينال زوجها قائد الجيش فى أوربا ما يحتاجه من تأييد من الملكة والحكومة . ولما هزم الجيش الإنجليزى جيوش فرنسا و بڤاريا عند قرية بلنهيم البڤارية أرسل چون الرسالة التالية إلى زوجته ، وكان قد مضى على زواجهما ست وعشرون سنة .

---

(١) Marlborough

(٢) Blenheim

(٢) Sarah Jennings

(٤) Barbara Palmer Duchess of Cleveland

— ٣٩ —

« . . . . نصراً مجيداً »

فى ١٣ أغسطس سنة ١٧٠٤

إن الوقت لا يسمح لى بأكثر من أن أرجو منك أن تبلغى احترامى إلى الملكة وأن تنبئيها أن جيشها قد نال نصراً مجيداً. وها هو ذا تالار[1] وقائدان آخران أسرى فى مركبتى ، وها أنذا أطارد غيرهم من القواد ، وسيصف لها تفصيل ما حدث ياورى الكولونل پارك[2] حامل هذه الرسالة إليك . وسأصفه أنا لها فى رسالة أخرى وصفاً أوفى من هذا بعد يوم أو يومين .

مارلبره

* * *

وكان چون تشرشل قد منح لقب دوق مارلبره قبل وقعة بلنهيم بنحو عامين . وعاد الدوق بعد هذا النصر إلى إنجلترا ليتلقى شكر البرلمان ، و يتقبل ما أقطع من الأراضى الواسعة فى وود استك[3] وما جاورها .

وظل مارلبره بعدئذ فى أوربا يتنقل من نصر إلى نصر ، فهزم جيوش فرنسا فى رمليز[4] وأودنارد[5] وملپلاكيه[6] ، ولكن حزب الأحرار أخذ وقتئذ يفقد سلطانه ليحل محله حزب المحافظين الذى كان يبغض الدوق أشد البغض . وشر من هذا أن النزاع شجر بين سارة و بين الملكة ، فأخذ مركز الدوق يضعف شيئاً فشيئاً حتى إذا عاد إلى إنجلترا فى عام ١٧١١ ، وجد السلطة قد انتقلت إلى يد المحافظين ، ولم يلق من الملكة إلا العداء ، وانتهى الأمر بأن وقّعت فى ٣١ ديسمبر من ذلك العام أمراً بتجريد صديقها القديم من مناصبه .

وكان ذلك الجحود شديد الوقع على قلب مارلبره ، وقضى الثمانى السنين الباقية من حياته فى متاعب جمة ، وإن يكن شرفه قد رد إليه فى عام ١٧١٤ على يد چورچ الأول ، حين

(١) Tallard
(٢) Parke
(٣) Woodstock
(٤) Ramillies
(٥) Oudenaarde
(٦) Malplaquet,

جلس آل هانوفر على عرش إنجلترا ، فأنفق بقية حياته فى العناية بمزارعه الواسعة ، واشتهر فى إدارته إياها بالتقتير الشديد . ومات فى عام ١٧٢٢، ودفن فى مقابر العظماء بدير وستمنستر

وأصبحت سارة بعد موت زوجها من أغنى نساء إنجلترا ، وظلت بعد موته وفية لذكراه . وتقدم إليها وهى فى الثانية والستين من عمرها عدد من الناس يطلبون يدها . وكان أعظم هؤلاء شأناً هو تشارلس سيمور دوق سمرست(١) . فلما تقدم إليها يخطبها لنفسه ردت عليه ذلك الرد التاريخى الشهير .

« لو أننى كنت شابة جميلة ، ولم أكن كما أنا عجوزاً ذاوية واهنة ، ولو أنك استطعت أن تضع العالم كله تحت قدمى ، لما وجدتَ لك مكاناً فى قلبى ، ولما نلت يدى ، وهما اللذان كانا من قبل ملكا لجون دوق مارلبره » .

(١) Charles Seymour Duke of Somerset

السيدة ميرى ورتلى منتجيو

تصف حماما تركيا

ليس ثمة شك فى أن ميرى ورتلى منتجيو[١] كتبت رسائلها وهى تعتقد أنها ستنشر يوما ما ، وأنها كتبتها وهى تريد أن يظهر فيها تفوقها على مدام ده شفنييه الكاتبة الفرنسية الشهيرة التى ماتت حين كانت ميرى فى السنة السابعة من عمرها . وقد وصفت ميرى رسائل مدام ده شفنييه فى خطاب كتبته إلى ابنتها تقول : « كانت آخر متعة تمتعت بها هى رسائل مدام ده شفنييه ، فهى رسائل جميلة حقا ، ولكنى أؤكد لك فى غير زهو أن رسائلى لن تفقد شيئاً من جمالها بعد أربعين عاما من هذا الوقت ، ولهذا أنصحك ألا تلقى شيئاً منها فى سلة المهملات » .

وإذا كانت ميرى قد أخطأت فى إعجابها برسائلها ، فقد كان هذا الخطأ فى الوقت الذى قدرته لاحتفاظ هذه الرسائل بجمالها . ذلك أنها لا تزال بعد مائتى عام من كتابتها محتفظة بكل ما كان لها فى أيامها من جمال . أما الكاتبة نفسها فقد استلفتت من أيام طفولتها أنظار أهلها بذكائها النادر ونضوج عقلها المبكر . وشرعت تتبادل الرسائل مع ورتلى منتجيو ، وكان يكبرها بكثير من السنين ، ولكنها أحبته وأحبها ، وعارض أبوها فى زواجها به ففرَّت معه ، وقضت حياتها بعد فرارها بزمن قليل فى الأسفار خارج إنجلترا . ولما عين زوجها سفيراً لبلاده فى تركيا ، صحبته هى وابنتها إلى تلك البلاد .

وكانت حياتها فيها أحب إليها من الحياة فى إنجلترا الصاخبة المتعبة . وكانت ميرى قوية الملاحظة لا يفوتها شىء فى جميع ما زارته من الأماكن ، وكانت النساء أهم ما يستفلت نظرها ، شأنها فى ذلك شأن سائر النساء . ومن أقوالها فى النساء الفرنسيات : « لقد رأيت كل ربات الجمال منهن ، ولكنى لم أر واحدة لا تشمئز منها النفس (ولست أجد عبارة أصدق من هذه فى وصفهن) ، فما أسخف ثيابهن ، وما أفظع الأصباغ التى يضعنها على رؤوسهن ووجوههن والتى تباعد بينهن و بين الطبيعة الإنسانية ، فهن يقصصن شعرهن ، و يعقصنه

(١) Lady Mary Wortley Montagu

حول وجوههن ، ويضعن عليه أثقالا من المساحيق يخيل إليك من كثرتها أنه عهن أبيض. أما وجوههن فقد صبغنها إلى أذقانهن بطلاء كثيف أحمر براق ، يباعد بينها وبين الوجوه البشرية » .

وسرها مقامها فى تركيا ، وكتبت عن نسائها تقول : « إن لنساء الترك من الذكاء والظرف بل والحرية بقدر ما للنساء عندنا على الأقل . أما عن أخلاقهن وسلوكهن ففى وسعى أن أقول إنهن شبيهات بك . . . .ومن رأيى أن النساء التركيات هن وحدهن اللائى يتمتعن بالحرية فى الدولة » .

وحاولت ميرى حين جاءت إلى تركيا أن ترى كل شىء فيها ، وكان من أول الأماكن التى زارتها حمام تركى وصفته فى رسالتها التالية :

— ٤٠ —

« . . . فلم أر آخر الأمر بدا من أن أكشف عن قميصى . . . . »

[أدرنة فى أول إبريل سنة ١٧١٧]

لقد أصبحت الآن فى عالم جديد ، يبدو لى فيه كل ما أراه مخالفاً لما عهدته من قبل . وأنا أكتب إليك مغتبطة مسرورة ، راجية أن تجدى فى رسائلى متعة الطرافة ، حتى لا تلوميني بعد الآن على أننى لا أكتب إليك عن شىء غير عادى .

ولست أريد أن أشق عليك بأن أقص أنباء رحلتنا المملة ، غير أنى لن يفوتنى أن أصف إليك ما رأيته غريباً فى صوفيا ، وهى من أجمل مدائن الدولة التركية ، تشتهر بحماماتها الحارة التى يلجأ إليها الناس للمتعة والصحة . وأقمت فيها عن قصد يوماً كاملا لأشاهد هذه الحمامات ، ورأيت أن أذهب إلى واحد منها متخفية ، فاستأجرت لهذا الغرض عربة تركية. وليست هذه العربات كعرباتنا ، بل هى أكثر منها ملاءمة لتلك البلاد ، وذلك لأن الحرارة فيها شديدة تجعل وجود الزجاج فيها متعباً كثيراً . وهى شديدة الشبه بالعربات الهولندية ، لها نوافذ ذات عوارض خشبية متقاطعة ، مطلية ومذهبة ، نقشت عليها من الداخل صور السلال وطاقات الزهر ، تتخللها فى العادة حكم وعبارات شعرية قصيرة ، قد غطيت كلها بنسيج قرمزى اللون مبطن بالحرير المطرز ذى الأهداب . وهذه الستر تخفى من فى داخل

العربة عن الأعين ، ولكن فى وسع الراكب أن يرفعها إذا شاء ، فتستطيع السيدة أن تطل من النوافذ . وهى تتسع لأربع راكبات يجلسن على وسائد قليلة الارتفاع .

وذهبت إلى الحمام حوالى الساعة العاشرة فى عربة مغطاة من هذا النوع ، فوجدته مزدحماً بالنساء . والحمام نفسه بناء من الحجارة فى شكل القباء ، خال من النوافذ إلا فى سقفه حيث ينفذ إليه من الضوء ما يكفيه . وكان للحمام الذى دخلته خمس من هذه الأقبية متصلة بعضها ببعض ، أصغرها أقربها إلى الباب ، وتستخدم هذه لاستقبال المستحمات ، وتقف عند بابها بوابة من النساء . وتعطى سيدات الطبقة الراقية هذه المرأة ما يعادل خمسة شلنات أو عشرة ، ولم أغفل أنا عن أداء هذا الواجب . أما الحجرة الثانية فهى حجرة كبيرة ، أرضها من الرخام ، أقيمت حول جوانبها كلها أريكتان من الرخام ، إحداهما أعلى من الأخرى . وفى وسطها فوارتان تخرجان ماء بارداً يسقط أول الأمر فى حوضين من الرخام ؛ ثم يجرى على أرض الحجرة فى قنوات صغيرة أعدت لهذا الغرض خاصة ، وهى توصل الماء إلى الحجرة التى تليها . وهذه الحجرة الثالثة أصغر قليلا من الثانية ، وحول جدرانها هى الأخرى أريكتان من الرخام ، ولكنها شديدة الحرارة ، ويأتى إليها ماء مكبرت من الحمامات المتصلة بها ، ويتعذر على الإنسان أن يبقى فيها بملابسه . أما القبوتان الأخريان فهما الحمامان الحاران ، وفى إحداهما صنابير للماء البارد يلطف حرارة الماء إلى الدرجة التى يريدها المستحم.

وجئت إلى الحمام بملابس السفر ، وما من شك فى أنها بدت لهن جد غريبة ، ولكنى لم أر واحدة منهن تظهر أقل دهشة أو تبدى شيئاً من التشوف الذى لا يليق ، بل استقبلننى كلهن بأعظم مايستطعن من الحفاوة والظرف ؛ ولست أعرف فى قصور الملوك فى أوربا كلها قصراً تُظهر فيه السيدات للغريب من الأدب ما أظهرته لى أولئك السيدات . وأظن أن عددهن لم يكن يقل عن مائتين ، ولكنى لم أر على وجوههن بسمات الازدراء ، أو أسمع منهن همسات السخرية التى لايعدمها الإنسان فى مجتمعاتنا حين يظهر فيها إنسان لا تتفق ملابسه كل الاتفاق مع الأنماط السائدة . وكن يكررن على الدوام قولهن (كوزل پك كوزل) ، ومعناها جميل جميل جداً . وكانت الأرائك الأولى مغطاة بالوسائد والطنافس الثمينة ، وجلست عليها النساء ومن خلفهن على الأرائك الثانية جواريهن ، ولكنهن لا يمتزن عنهن بشىء فى

ثيابهن ، فقد كن كلهن بحالتهن الطبيعية ، أى عرايا لا يخفين شيئاً من جمالهن أو عيوبهن.
ولم تقع عينى بينهن على ابتسامة خليعة ، أو حركة خارجة عن الأدب ، وكن يتحركن
ويسرن فى جمال وجلال لا يقلان عما وصف به ملتن جلال أمنا الأولى وعظمتها[١] . ورأيت
بينهن نساء كثيرات لا يقل تناسب أعضائهن عن تناسب أعضاء الأمهات اللاتى صورهن
جيدو[٢] أو تشيان[٣] ، وكانت بشرتهن فى الغالب بيضاء براقة لا يزينها إلا غدائرهن
الكثيرة المتدلية على أكتافهن ، وقد جدلت باللؤلؤ أو الحرير ، فكن كأنهن ربات الجمال
اللاتى يصفهن الشعراء .

وهنا بدا لى أنى كنت صادقة فى ذلك الظن الذى جال بخاطرى كثيراً ، وهو أنه لو كان
من عادة البشر أن يسيروا عراة ، لما نظر الناس قط إلى الوجوه . فقد شعرت أن أرق النساء
بشرة وأجملهن أجساماً هن اللاتى استلفتن نظرى ، وكان لهن القسط الأوفر من إعجابى ،
وإن لم تبلغ وجوههن من الجمال ما بلغته وجوه غيرهن . ولست أخفى عنك أنى بلغ من
خبثى أن تمنيت أن لو كان مستر جرفاس[٤] حاضراً معى متخفيا لا يراه أحد . إذن لارتقى
فنه بعد رؤيته هذا العدد الجم من النساء العرايا فى أوضاع مختلفة ، بعضهن يتحدثن ،
وبعضهن يشتغلن ، وبعضهن يشربن القهوة أو الشراب المحلى ، وكثيرات منهن راقدات
على الوسائد وإلى جانبهن جواريهن (وهن فى العادة فتيات جميلات فى السابعة عشرة
أو الثامنة عشرة من عمرهن) ، يجدلن شعورهن ، ويجعلن منها أشكالا جميلة مختلفة .

وملاك القول أن الحمام هو مقهى السيدات ، تذاع فيه أخبار المدينة كلها ، وتخترع
فيها الأفائك وما إليها ، ويتمتع النساء بهذه المتعة مرة فى كل أسبوع فى العادة ، وهن
يمكثن فى الحمام أربع ساعات أو خمساً على أقل تقدير ، ولا يصبن فيه بالبرد حين يخرجن
من الحمام الساخن إلى الحجرة الباردة . وقد كان ذلك موضع دهشتى . وطلبت إلىّ سيدة
خيل إلىّ أنها أعظمهن شأناً أن أجلس إلى جوارها ، وأرادت أن تحملنى على خلع ملابسى
لأستحم كسائر النساء ، فاعتذرت إليها ، ولم يكن من السهل أن أقنعها بقبول عذرى .

---

(١) تشير إلى ما وصف به ملتن حواء فى الفردوس المفقود

(٢) Guido — (٣) Titian

(٤) Mr-Jervas

وألححن عليّ كلهن أن أجيبها إلى ما طلبت ، فلم أر آخر الأمر بدا من أ كشف عن قميصى ، وأن أظهر لهن مشدى ، فقبلن عذرى ، وأ كبر الظن أنهن قد اعتقدن أنى فرض على هذا اللباس أو بالأحرى هذه الآلة فرضاً ، وأن ليس فى وسعى أن أفتحها ، ولعلهن قد ظنن أن ذلك من فعل زوجى . ولقــد سرنى منهن ظرفهن وجمالهن ؛ وكان بودى أن أقضى معهن من الوقت أ كثر مما قضيت ، ولـكن المستر و . (ورتلى) كان معتزما أن يواصل السفر مبكراً فى صباح اليوم التالى ، وكان لا بد لى من الخروج مسرعة لأزور كنيسة جستنيان . على أنى لم أر فيها من الجمــال ما يشبه ذلك الجمال الذى تركته من أجلها ، فقد كانت لا تزيد على كومة من الحجارة .

والآن أودعك يا عزيزتى ، ولست أشك فى أننى قد متعتك بوصف منظر لم تقع عيناك على ما يشبهه فى حياتك ، ولن تجدى مثيلا له فى كتاب من كتب الأسفار . وآخر ماأقوله لك أن الرجل الذى يوجد فى أحد هذه الحمامات لا يجزى على وجوده فيه بأقل من الإعدام.

* * *

وكشفت السيدة ميرى وهى فى تركيا طريقة الوقاية من الجدرى ، وهى التطعيم بجراثيمه فيصاب به الشخص إصابة خفيفة يستطيع التغلب عليهــا ولا تترك أثراً فى جسمه . وطعم ابنها بهذه الطريقة ، ثم أدخلت العادة إلى إنجلترا بعدعودتها إليها ، وظلت متبعة فيها زمناً طويلا لأن هذا الوباء كان كثير الانتشار ، و بقيت هذه الطريقة حتى كشف سير إدوارد چنر(١) طريقة الوقاية بالتطعيم بالمصل الواقى .

وكان ذكاء السيدة ميرى منتجيو وفــكاهتها اللاذعة مما خلق لهــا بعض الأعداء . وعاشت هى وسارة دوقة مارلبره على وفاق ، ولم يكن هذا بالأمر الهين ، وقد كتبت فى ذلك تقول : « ولا تزال كل واحدة منا ترى الأخرى ، وكأننا شخصان قداعتزما أن يكره أحدهما الآخر فى أدب » . ثم تنازعت مع الـكسندر پوپ الشاعر المعروف وأصبح هذا النزاع حديث الناس فى لندن . ويقول بعضهم إن منشأه أن الشاعر أعار آل منتجيو قميصين ردا إليه دون أن يغســلا ، و يقول البعض الآخر إنه أبى أن يهجو شخصا طلبت إليه ميرى أن

(١) Sir Edward Jenner

يهجوه بشعره اللاذع ، وتقول حفيدتها إن پوپ جهر بحبه لها فسخرت منه وأغربت فى الضحك . ومهما يكن سبب هذا العداء فقد كانت نتيجته أن أخذ پوپ يشير إليها من طرف خفى فى شعره الهجائى ويسميها سافو[١] ، وهو اسم لم يكن أحد يجهل من يقصده به . أما من الجانب الآخر ، فقد ظهرت « طلقة على پوپ »[٢] وعبارة أخرى بذيئة قيل إنهما من قلم ميرى نفسها .

وبعد بضعة سنين من هجاء پوپ غادرت السيدة ميرى منتجيو إنجلترا إلى القارة الأوربية . ويصفها هوراس وولپول[٣] ، وهو ممن لايتورعون عن المغالاة فى الوصف ، بقوله : « . . . . إن البلد كله يسخر منها ، وما من شك فى أن ملبسها وبخلها ووقاحتها تدهش من لم يسمع قط اسمها ، وهى تلبس على رأسها خِماراً رثا لا يغطى غدائرها القذرة السود التى تتدلى على كتفيها ، والتى لم تعن قط بتمشيطها أو تجعيدها . . . » . واشتهر زوجها بالتقتير الشديد فى آخر أيامه ، ولما مات عادت إلى إنجلترا ، وما لبثت أن لحقت به بعد بضعة أشهر من موته .

---

(١) Sappho

(٢) A Pop upon Pope

(٣) Horace Walpole

وصية لورد تشسترفيلد(١) إلى ولده

وصف الدكتور جنسن(٢) اللورد تشسترفيلد صاحب هـذه الرسالة بأنه رجل له « أخلاق العاهرات ، وسلوك الراقصات » . والرسالة التالية واحدة من عدة رسائل كتبها فليب دورمر استانهوب(٣) ، إرل تشسترفيلد الرابع ، السياسى والأديب ، إلى ولد له غير شرعى .

— ٤١ —

« إن الذين تسرهم رؤية النحاس المصقول لأكثر عدداً من الذين يسرهم منظر الذهب الغفل » .

لندن فى ٦ مارس سنة ١٧٤٧

ولدى العزيز :

كل الذى تفعله يؤثر فىّ تأثيراً كبيراً ، حسناً كان ذلك الأثر أو سيئاً . وقد جاءتنى من لوزان من زمن غير بعيد رسالتان عنك ، كان لهما أحسن الأثر فى نفسى . فأما أولاهما فـكانت من مدام سان چرمن(٤) ، وأما الأخرى فمن مسيو پمپينى(٥) ، وكلتاهما شهادة فيك طيبة ، ولذلك رأيت من حقك علىّ ومن حق من كتبا الرسالتين أن أخبرك بهما .

ذلك أن ذا الخلق النبيل يحق له أن يعرف أنه نبيل الخلق ، ففى ذلك تشجيع له وجزاء على نبل خلقه . وهما لا يقولان إنك قد تعلمت فحسب ، بل يؤكدان أيضاً أنك تربيت تربية طيبة ، وأن صفات الحياء والخجل والخشونة (وقد كان لك منها كلها نصيب) قد زالت عنك أو كادت تزول . ولقد سرنى هذا كل السرور ، وذلك لأن المواهب الصغرى ، كما قلت لك من قبل ، وهى دماثة الأخلاق والتحبب إلى الناس ، والنشأة الطيبة ، ورقة الحاشية ، واللطف فى الحديث ، تفيد صاحبها أكثر مما يظنه الناس عادة ، وبخاصة فى هذه البلاد .

---

(١) أنظر الرسالة التالية التى كتبها الدكتور جنسن إلى لورد تشسترفيلد

(٣) Philip Dormer Stanhope, Earl of Chesterfield

(٢) Dr. Johnson (٤) St. Germain (٥) Pampigny

إن الفضيلة والعلم كالذهب الخالص ، لها قيمتهما الذاتية ، ولـكنهما إذا لم يصقلا فقدا قسطا كبيراً من سناهما ، و إن الذين تسرهم رؤية النحاس المصقول لأكثر عدداً من الذين يسرهم منظر الذهب الغفل .

وما أكثر العيوب التى تخفيها بشاشة الفرنسيين ودماثة أخلاقهم وآدابهم ، فمنهم كثيرون يعوزهم الإدراك الفطرى السليم ، ومنهم عدد أكبر من هؤلاء تنقصهم المعلومات العـامة النافعة ، ولـكنهم فى العادة يسترون هذه العيوب بستار من آدابهم ، فلا تظهر للناس فى معظم الأحوال . وكثيراً ما قلت لك عن عقيدة و إيمان إن الرجل الفرنسى الذى يجمع بين الفضيلة والعلم والعقل السليم ، و بين ما يمتاز به مواطنوه من دماثة الخلق ورقة الحاشية ، هو أرقى ما تستطيع أن تسمو إليه الطبيعة البشرية . وفى وسعك إذا شئت أن تصل إلى هذا الـكمال المبتغى ، وأرجو ألا يعوقك عن الوصول إليه عائق .

وأنت تعلم ما هى الفضيلة ، وفى وسعك إذا شئت أن تتصف بها ، فهى فى متناول أى إنسان ، والشقى هو الذى يفرط فيها . وقد وهبك الله العقل ، ودرست من العلم ما تستطيع به أن تحصل فى الوقت المناسب على كل ما يحتاجه الإنسان منه ، و بهذا القدر خرجت إلى العالم فى سن مبكرة ، و إذا لم تتحل بعد ذلك بكل الصفات الأخرى التى تكمل بها خلقك ، وتزين بها نفسك ، فأنت الملوم دون غيرك . و يحسن بك أن تشكر مدام چرمن ومسيو يمپينى وأن تُشعرهما بأنك مقدر لهما فضلهما عليك ، ورضاءهما عنك ، وشهادتهما الطيبة فيك .

والآن استودعك الله ، ولتكن على الدوام خليقا بهذه الشهادة الحسنة ، فإذا فعلت فلن تـكون جديراً بأخلص الحب فحسب ، بل إنك ستتمتع به أيضاً .

* * *

على أن ابن لورد تشسترفيلد لم يفد كثيراً من رسائل والده ، بل ظل حتى مات فى السادسة والثلاثين من عمره رجلا مغموراً من أوساط الناس ، لا يعرف عنه أحد أكثر من أنه ظل إحدى وعشرين عاما يتلقى عن أبيه أكداساً من الحـكمة الدنيوية ، والنصائح الخلقية ، وأنه لم يعن بشىء منها ، و بلغ من عقوقه أن أخفى أمر زواجه عن أبيه . ونشرت أرملته رسائل والده (ولم يكن قد كتبها لتنشر) أثناء حياة اللورد . ولما مات باعت صوراً منها بألف وخمسمائة جنيه .

مدام ده پمپدور تؤكد للبابا

أنها أضحت امرأة صالحة

نُشئت چين أنتوانت پواسن[١] لتكون محظية ملك من الملوك ، وقال عنها أبوها (ولم يكن زوجا لأمها) إنها قطعة من ملك ، ومن أجل هذا علمها تعليما راقيا ، وزوجها بزوج ثرى هو ابن أخيه ، وتنبأت لها سيدة عجوز بأنها ستكون محظية ملك ، فجدت چين فى البحث عنه ، وما لبث نجمها أن تلألأ فى المجتمعات الراقية ، ولكن هذا لم يكن كل ما تطمع فيه ، فهى تريد الملك الذى أعدتها له الأقدار . وأخيرا التقت فى عام ١٧٤٤ بلويس الخامس عشر فى حفلة راقصة ، وملكت قلبه ، فهجرت زوجها فى الحال ، وأصبحت محظية الملك رسميا . ولم يمض بعدئذ إلا قليل من الوقت حتى أضيف إلى ألقابها لقب جديد ، اشتق من ضيعة وهبها لها لويس ، فأضحت مركيزة پمپدور .

وكان لمدام پمپدور من الذكاء بقدر ما لها من الجمال ؛ ولم تقنع بالحب ، إن جاز أن تسمى علاقتها بالملك حبا ، فقد كانت مطامعها لا تقف عند حد . وما كادت تنال بغيتها حتى شرعت تنظم الأمور على ما تشتهى ، فكانت هى التى تفض رسائل لويس ، وكان على الوزراء أن يتصلوا بها فى شئون الدولة قبل أن يتصلوا بالملك نفسه ، وكانوا لا يقرون أمراً إلا إذا وافقت عليه ، وكانت تراسل الدپلوماسيين الأجانب ، وعظماء الرجال فى داخل فرنسا وخارجها ، وقواد الجيش . وكانت شديدة الذكاء . وأعانها على ذلك قريحتها الوقادة ، وذوقها الفنى الرفيع ، وبراعتها فى التصوير والحفر التى لا تكاد تقل عن براعة الموهوبين من الكتاب والفنانين ، فكانت تبسط رعايتها على عدد كبير منهم ومن بينهم ڤلتير نفسه . وكانت تنفق كثيراً من المال الذى يغدقه عليها لويس على الفتيات الفقيرات والشيوخ المساكين وعلى تعمير القرى المخربة ، فكانت بذلك ترد إلى الشعب شيئاً مما تغتصبه منه الدولة .

ثم فتر حب لويس الخامس عشر لها ، وآلم ذلك قلبها فاعتزمت أن تكبت عواطفها النسائية ، وأن تكتفى بالسيطرة على مصائر فرنسا السياسية . ومن أجل هذا شجعت لويس

---

(١) Jeanne Antionette Poisson

على الاسترسال فى دعارته ، بل كانت لا تستنكف أن تقدم إليه من يهوى من النساء . غير أنها أخذت من ذلك الوقت تتطلع إلى نجاتها الروحية كما تتطلع إلى نجاتها المادية ، فكتبت الرسالة التالية إلى البابا بندكت الرابع عشر[١] تنبئه بما فعلته لإنقاذ نفسها ، وترجو منه أن يوافق على خطتها :

— ٤٢ —

« . . . هذه التهم الفظيعة التى يتهموننى بها . . . »

لقد صحت عزيمتى فى عام ١٧٥٢ على ألا أحتفظ للملك بعد الآن إلا بعاطفتى الشكر والحب الطاهر النقى ، تدفعنى إلى ذلك بواعث ليس فى إذاعتها شىء من الفائدة . وأفضيت إلى الملك بما أعتزمته ، ورجوته فى الوقت نفسه أن يجمع علماء السربون ليشيروا عليه بما يرون ، وأن يبعث إلى الرئيس الدينى الموكل بتلقى اعترافاته ليبحث الأمر مع غيره من رجال الدين ، علهم يجدون وسيلة أستطيع بها أن أبقى قريبة منه إجابة لرغبته ، من غير أن يتهمنى الناس بإثم أصبحت الآن لا أرتكبه .

ولما كان الملك يعلم أخلاقى حق العلم ، فإنه لم يكن لديه أقل أمل فى أن أرجع عما اعتزمته . ومن أجل ذلك لم ير بدًّا من إجابة رغبتى ، فاستدعى إليه العلماء وكتب بذلك إلى الأب بروسو[٢] فطلب إليه هذا أن يقطع كل صلة له بى ، وأجاب الملك بأنه لا يقبل هذا الاقتراح مطلقاً ، وأخبره أنه حين طلب إليه أن يجد وسيلة لا تترك لدى الشعب سبباً لريبته لم يطلب هذا لنفسه بل كان ذلك منه إرضاء لى وحدى ، وأكد له أن وجودى إلى جانبه لا غنى عنه لسعادته ، ولتصريف شئون الدولة على خير وجه ، وأنه لا يرى أحداً غيرى يجرؤ على أن يصْدقه القول ، وهو الأمر الذى لا غنى للملوك عنه ، إلى غير ذلك من الأمور. وظن الأب الصالح أنه يستطيع بإصراره أن يثنى الملك عن عزمه ، فلم يغير رده على سؤال الملك . وكان فى وسع علماء السربون أن يجدوا حلا للمشكلة ، ولكن اليسوعيين رفضوا كل ما اقترح من الحلول . وتحدثت وقتئذ إلى عدد من الناس الذين تهمهم مصلحة الملك ومصلحة الكنيسة ، وأنذرتهم بأنه إذا لم يقبل الأب بروسو من الملك توبته فيكبح

---

(١) Benedict XIV

(٢) Perusseau

بذلك جماحه فإن الملك سوف يسلك مسلكا يطوقنا جميعاً العار . ولم أدخر وسعا فى نصحهم ، ولكنهم لم يقبلوا النصح ، ثم تبين لهم بعد قليل أنى لم أكن مخطئة فى هذه النصيحة .

ثم فكرت طويلا فى المصائب التى حلت بى ، والتى لم تفارقنى وأنا فى ذروة عزى ومجدى ، وأيقنت أن طيبات هذا العالم لا تكفل لى السعادة فيه ، فقد كان لى منها أوفى نصيب ، ومع ذلك أصبحت لا أبالى بالملاذ التى كانت من قبل منبع سرورى وغبطتى .

كل هذا لم يترك لدى أقل شك فى أن السعادة لا تكون إلا فى طاعة الله . ثم لجأت إلى الأب ساسى[1] لأنى وجدت فيه الشخص الذى يؤمن بهذه العقيدة إيمانا قويا ، وعرضت أمرى عليه جملة وتفصيلا . وأراد أن يختبرنى ليتحقق من إخلاصى ، ودام هذا الاختبار من سبتمبر إلى يناير عام ١٧٥٦ ، ثم طلب إلىَّ بعدئذ أن أكتب رسالة إلى زوجى كتب صورتها هو بيده ، ولا تزال هذه الصورة لدى حتى الآن . وأبى زوجى أن يرانى فأوصانى الأب أن أطلب وظيفة فى حاشية الملكة ، لأستر بذلك موقفى ، وأمرنى أن أزيل الدرج الموصلة إلى حجراتى حتى لا يكون فى مقدور الملك أن يدخل إليها إلا من بابها المعتاد . وجملة القول أنه وضع لى خطة أسير عليها نفذتها بقضها وقضيضها ولم أحد قط عنها .

وأثارت هذه الأمور ضجة عظيمة فى البلاط وفى المدينة ، وأخذ الفضوليون من كل الطبقات يتطفلون علينا ويتدخلون فى أمورنا ، وأوذى الأب ساسى إيذاء شديدا ، فجاءنى يخبرنى أنه لن يقبل توبتى ما دمت فى القصر ، فذكرته بجميع التجارب التى فرضها على ، وقلت له إن صلتى بالملك قد تبدلت عما كانت عليه من قبل ، وإنه هو نفسه قد اعترف بذلك ، فكان جوابه أن الناس سخروا من القس الذى قبل توبة الملك بعد مولد الكونت ده تولوز[2] ، وأنه لا يرضى لنفسه مثل هذا الموقف الصعب . ولم أجد أنا ما أرد به على هذا النوع من التفكير ، وأدليت إليه بكل ما لدى من الحجج التى ظننت أنها ستقنعه بأن الدسائس ليست هى التى تدفعنى إلى مسلكى الجديد ، بل تدفعنى إليه بواعث دينية ورغبة صادقة فى أداء الواجب ، ولكنه خرج من عندى ولم يعد إلى بعد ذلك الوقت . وحل ذلك اليوم المشئوم ، وهو اليوم الخامس من شهر يناير ، وأخذت الدسائس تحاك من حولى

(١) Sacy

(٢) Compte de Toulouse

كما كانت تحاك فى العام السابق ، ولم يدخر الملك جهداً فى إقناع الأب ديمريه[1] بإخلاصه لدينه ، ولـكن الدسائس لم تنقطع أسبابها ، فكان الجواب هذه المرة لا يختلف عن الجواب السابق فى شىء ، و بذلك حالوا بين الملك و بين القيام بواجباته الدينية ، مع أنه كان شديد الحرص عليها . ولم يلبث بعد فترة قصيرة من الزمن أن وقع فى نفس الأخطاء التى وقع فيها من قبل ، وكان فى وسعهم ، لو أنهم أخلصوا فى عملهم ، أن ينقذوه منها .

أما أنا فقد ساءت حالى ، وتفطر قلبى حزنا ، رغم ما أظهرته من الأناة التى دامت ثمانية عشر شهراً ، خضعت فيها للأب ساسى . فعمدت إلى استشارة رجل صالح كان موضع ثقتى ؛ وتأثر الرجل بحالى وشرع يبحث عن وسيلة يقضى بها على تعاستى . وكان له صديق راهب لا يقل حظُّه من العلم عن حظِّه من الذكاء ، فشرح حالى لرجل على شاكلته ، قادر على أن يفيدنا برأيه ، وقرر كلاهما أن مسلكى لا يتطلب منى ذلك التعذيب الذى كان يراد فرضه على لأكفر به عن ذنبى .

وهكذا رفع عنى الظلم الذى قاسيته ، وقُبلت تو بتى بعد أن مررت بفترة اختبار جديدة ، وأصبحت الآن أشعر بأنى أتمتع بقسط كبير من راحة الضمير ، و إن كنت لا أزال أحس فى خبيئة نفسى بشىء من الألم ، إذ لا أزال أرى أن من الواجب علىَّ أن أحتاط لئلا يصغى الرجل الصالح الذى تقبل تو بتى واعترافى إلى هذه التهم الفظيعة التى يتهموننى بها .

* * *

ولسنا نعرف هل وافق البابا على مسلك مدام ده پمپدور أو لم يوافق عليه ؛ وسواء أكان ذلك أم لم يكن فقد ظلت هى المسيطرة على لويس الخامس عشر ؛ وكانت هذه السيطرة شؤما على فرنسا ، فبفضلها وقعت معاهدة ڤرساى التى جمعت بينها و بين الروسيا والنمسا فى حلف واحد ، ورفضت فرنسا أو رفضت مدام ده پمپدور أن تجدد اتفاق الحياد المعقود بينها و بين بروسيا لأن فردريك الأكبر كتب أبياتا من الشعر يُعَرِّض فيها بمدام ده پمپدور . وكان حلف النساء الثلاثى — حلف إلزبث الروسية ومريا تريزا النمساوية ومداد ده پمپدور الفرنسية — كان هذا الحلف هو السبب المباشر فى حرب السبع السنين المشئومة .

---

(١) Demares

وظلت مدام ده بمپدور متشبثة بمركزها فى بلاط لويس رغم ما حل بها و بفرنسا من النوائب ، ولم تنس قط ما وضعه اليسوعيون (الجزويت) من عقبات فى سبيل توبتها ، فلما هاجم الكتاب ورجال الدولة فيما بعد هذه الطائفة الدينية انضمت إليهم ، وظلت تعمل معهم حتى حُلت جماعتهم ، وأُلغى نظام اليسوعيين من فرنسا .

وكان لا بد أن تؤثر مشاغل الدولة ، مضافة إلى نشاطها الاجتماعى الدائم ، فى صحتها ، فمرضت وماتت فى الثانية والأربعين من عمرها ، وحلت محلها وهى على فراش الموت امرأة أخرى أصبح لها المقام الأول فى قصر لويس الخامس عشر ، تلك هى مدام دوبارى(١)

(١) Madame du Barry

معركة أدبية

بين صمويل چنسن وچيمس مكفرسن

فى أوائل العقد السابع من القرن الثامن عشر أضيفت إلى الآداب الإنجليزية مجموعة كبيرة من الأشعار تعرف عادة باسم قصائد « أسين »[١] ، وأسين هذا شاعر شبه أسطورى يقال إنه عاش فى القرن الثالث الميلادى .

وساهم كثيرون من الناس فى الطبعات الأنيقة التى ظهرت بها هذه القصائد ، وكان من بين من ساهموا فيها « إيرل بروت »[٢] زوج ابنة السيدة ميرى ورتلى منتجيو . و بفضل هذه القصائد أصبح چيمس مكفرسن[٣] الذى ادعى أنه جمعها فى أسفاره من المشهورين فى المنتديات الأدبية فى لندن لأنه هو الذى أحيى هذا التراث الأدبى القديم .

ولكن صمويل چنسن كان يرتاب فى صحة هذه القصائد ، وكان بعض الناس قد طلبوا إلى مكفرسن أن يطلعهم على المخطوطات الأصلية التى يدعى أنه جمعها أثناء تجواله فى شمال اسكتلندة ، ولكنه لم يفعل . وفى عام ١٧٧٣ طاف چنسن وصديقه بزول فى الأصقاع التى طاف بها مكفرسن من قبل أثناء بحثه المزعوم عن القصائد القديمة ، و بعد عامين من ذلك الوقت نشر وصفاً ممتعاً لرحلته هذه عنوانه : « رحلة إلى جزائر اسكتلندة الغربية — A Journey to the Western Islands of Scotland .

وكان من آثار رحلة چنسن أن زاد يقينه بأن القصائد المعزوة إلى أسين مزورة . وحدث قبيل نشر وصف چنسن لرحلته أن أطْلع بعضهم — ولعله وليم استراهان ناشر هذا الوصف — مكفرسن على نسخة من هذا الكتاب . فلما قرأ أقوال چنسن وجدفيها إشارات إلى أسين أثارت غضبه ، ووجد فضلاعن ذلك العبارة المثيرة الآتية : « أظن أن رأيى فى قصائد أسين لم يعد خافيا على أحد . و يقينى أن هذه القصائد لم توجد قط إلا فى الصورة التى رأيناها عليها ، ولم يستطع ناشرها أو مؤلفها أن يطلع الناس على أصلها ، وليس فى وسع إنسان غيره

---

(١) Ossian Poems

(٢) Earl Brute

(٣) James Macpherson

أن يطلع الناس على هذا الأصل ؛ وإن التجاء إنسان إلى الانتقام ممن يشكُّون بحق فى صدق دعواه بامتناعه عن إظهار الأدلة التى تثبت صحة هذه الدعوى ليبلغ من الوقاحة حداً لم يعرفه العالم قبل الآن ، وليس الإصرار على هذه الوقاحة إلا آخر ملجأ يحتمى به المجرمون » .

واستشاط مكفرسن غضبا حينما اطلع على هـذه الأقوال ، وكتب رسالة إلى استراهان ليطلع عليها چنسن يقول فيها « إن مثل هذه العبارات لا يليق أن تصدر من كاتب إلى كاتب آخر » ، وأنذر كاتبها بأنه « لن ينجو من العقاب » . وختم الرسالة بأن طلب أن يمحو چنسن هذه الأقوال من كتابه . ولم يكن هذا من طبيعة چنسن فأصر على رأيه ولم يسمح لاستراهان أن ينشر إعلانا أراد مكفرسن أن ينشره ؛ ولو أن مكفرسن كان يعلم من أخلاق چنسن ما يعلمه الخلف لما طلب إليه أن يعتذر عن عقيدة يؤمن بها .

وجملة القول أن چنسن لم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة ومن أجل ذلك بعث إليه مكفرسن برسالة كلها وقاحة ووعيد . ولم يعثر أحد على هذه الرسالة بعد ، ولـكن لدينا من الشواهد ما يدل على أن مكفرسن قال فيها : « إنه لا شىء غير شيخوخة چنسن وضعفه ينجيه من المعاملة التى يستأهلها كاذب طاعن سافل » . ومهما تكن محتوياتها فقد حملت چنسن على أن يعد عدته للدفاع عن نفسه ، وأن يقذف بالرسالة التالية فى وجه عدوه :

— ٤٣ —

« فأما ثورتك فإنى أتحداها . . . . »

فى ٢٠ يناير سنة ١٧٧٥

إلى المستر چيمس مكفرسن *

تلقيت رسالتك الوقحة السخيفة ، ولن أدخر وسعا فى أن أرد عليك ما وجهته إلىّ فيها من إهانة ، وسيتكفل القانون بما أعجز أنا عنه ، ولن يمنعنى تهديد الأوباش أن أتقصى ما أتبينه من خداع وتضليل .

وأنت تريدنى أن أسحب أقوالى . ولـكن أى شىء أسحبه ؟ لقد كنت من بداية الأمر أظن كتابك غشا وتضليلا ، ولقد تجمع لى الآن من الأدلة ما يزيدنى يقينا بغشه

وتضليله ، واعتقادى هذا هو الذى يدفعنى إلى أن أعلن للجمهور حججى التى أتحداك أن تنقضها .

إنى رجل أحترم الحق مهما يبلغ من احتقارى لك ، فإذا ما استطعت أن تثبت صحة أقوالك فإنى لن أتردد فى الاعتراف بها . فأما ثورتك فإنى أتحداها ، وأما مواهبك فقد تبين ضعفها منذ نشرت هوميروس ، و إن ما سمعته عن أخلاقك ليحملنى على ألا أعنى بما تقول ، بل أن أعنى بما تستطيع أن تثبته .

وفى وسعك أن تنشر هذا إذا شئت .

صم . چنسن

* * *

ولم يصل الأمر بين چنسن ومكفرسن إلى حد البراز . وأكبر الظن أنهما لو تبارزا لكانت العاقبة وبالا على الدكتور البالغ من العمر خمسا وستين سنة ، والذى كان يكبر الاسكتلندى بأكثر من ربع قرن . وقد دفن كلاهما فى مقابر العظماء بدير وستمنستر . فأما چنسن فقد دفن فيها رغبة من الأمة فى تعظيمه ، وأما مكفرسن فقد دفن فيها بناء على طلبه هو (فقد مات وهو عضو فى البرلمان) .

ولم ينقطع الجدل حول صحة قصائد أُسِّين بعد موت مثيريه الأولين ، بل إنه لا يزال قائما إلى هذه الأيام ، و إن لم يبلغ من العنف ما كان عليه من قبل . أما القصائد نفسها فلا يقرؤها أحد الآن .

صمويل چنسن يرفض بازدراء

معونة يعرضها عليه لورد تشسترفيلد

قضى الدكتور چنسن الكاتب الإنجليزى الشهير حياته كلها فى كفاح مستمر مع المرض وضعف البصر، والفقر، وإهمال الناس شأنه، وقد أشار هو نفسه إلى هذا الكفاح فى مقدمة معجمه الشهير فقال:

« إذا وجد الناس أن هذا المعجم قد خلا من أشياء كثيرة، فليذكروا كذلك أنه احتوى أشياء أكثر منها؛ ومع أن الناس لم يمسكوا قط عن نقد كتاب ما إشفاقا منهم على مؤلفه، ومع أن العالم قلما يرغب فى أن يعرف منشأ الأغلاط التى يستهجنها، فقد يشبع غريزة الاستطلاع فى القراء أن يعرفوا أن هذا المعجم الإنجليزى قد ألف من غير معونة عالم أو مناصرة عظيم، فأنا لم أكتبه فى عزلة منعمة مريحة، أو تحت ظلال المجامع العلمية الوارفة، بل كتبته وسط المتاعب والمشاغل، وفى أثناء المرض والحزن. وقد يخفف من زهو النقاد الحاقدين، ويفل من حدة سلاحهم، أن يعرفوا أنى إذا لم أعرض فى هذا المعجم لغتنا كاملة، فإنى لم أقصر إلا فيما عجزت عن إتمامه الجهود البشرية حتى هذه الساعة ».

وقد فكر چنسن فى مشروعه العظيم، وهو وضع أول معجم شامل موثوق به فى اللغة الإنجليزية، فى عام ١٧٤٧ حين كان يسكن فى جرب ستريت[1] حى صغار الكتاب الفقراء فى لندن. ثم كتب إلى لورد تشسترفيلد، وكان وقتئذ وزير الداخلية، يخبره بعزمه ويعرض عليه الخطة التى اعتزم أن يسير عليها فى عمله. وكتب إليه لورد تشسترفيلد يقول إنه تلقى الرسالة، وإنه يتبرع له بعشرة جنيهات. وذهب چنسن لمقابلته، فقيل له إنه « فى خارج الدار »، فأخذ يكدح فى معجمه سبع سنين كاملة نال فى أثنائها بعض الشهرة الأدبية بما كان ينشره من المقالات الانتقادية.

ولما فرغ من عمله وسمع بذلك تشسترفيلد، طمع فى أن يكون هو الذى يهدى إليه

---

(١) Grub-Street

هذا السفر الجليل ، فكتب مقالين يثنى فيهما عليه ، ولكن « كلمات اللورد المعسولة ، وحيله الخداعة » على حد قول بزول لم تجده نفعا ، بل أنتجت بالفعل عكس ما كان ينتظر أن يُنتجه ثناء رجل واسع الثراء عظيم الجاه ، ذى مكانة أدبية وعلمية رفيعة . ذلك أن جنسن كان قد أثبت للعالم أنه بمفرده قادر على أن يعمل ما تعمله المجامع اللغوية . وكتب الرسالة الشهيرة التالية إلى لورد تشسترفيلد يرفض فيها معونته .

— ٤٤ —

« . . ليس فى الناس من يسره أن تُمتهن جهوده . . »

فى السابع من فبراير سنة ١٧٥٥ .

سيدى اللورد

علمت أخيراً من صاحب « العالم »[1] أنك كاتب المقالين اللذين ظهرا فى هذه الصحيفة تقرظ فيهما معجمى ، وتوصى الجمهور باقتنائه . وإنه لشرف لى عظيم أن تخصنى بهذا الثناء الذى لا أعرف كيف أتلقاه أو بأية عبارة أرد عليه ، لأنى لم أتعود من قبل عطف العظماء وفضلهم علىّ .

لقد زرت فخامتك على أثر تشجيع قليل رأيته منك ، فراعنى سحر حديثك كما راع سائر الناس ، وتمنيت أن يكون لى فخر « السيطرة على من له السيطرة على الأرض » ، وأن أحظى بتلك الرعاية التى رأيت العالم كله يكافح لكى يحظى بها .

ولكنى لم ألق منك تشجيعا ، وأبى علىّ كبريائى ، أو تواضعى ، أن أعود لزيارتك . ولقد استنفدت حين تحدثت إليك على مسمع من الناس كل ما يستطيعه أمثالى من طلاب العلم قليلى الاختلاط ، الذين لم يتعودوا أدب بطانة الملوك والعظماء ، وبذلت فى ذلك غاية جهدى ، وليس من الناس من يسره أن تُمتهن جهوده مهما تكن قليلة . ومضت سبع سنين بعد اليوم الذى انتظرت فيه فى حجرتك الخارجية ، أوطردت من باب دارك ، قضيتها كلها جادا فى عملى ، تحيط بى الصعاب التى لا أرى فائدة من ذكرها أو الشكوى منها .

---

(١) The World

وهأنذا أوشك أن أنشره من غير أن أتلقى معونة أو كلمة تشجيع أو ابتسامة رضا ، وتلك معاملة لم أكن أتوقعها ، ولكنى لم يكن لى قبل ذلك نصير يبسط علىّ رعايته .

أليس النصير يا مولاى إنسانا ينظر غير مكترث إلى رجل يكافح فى الماء لينجو من الهلاك ، حتى إذا وصل إلى البر سالماً أثقله بالمعونة التى لم يعد فى حاجة إليها ؟

ولو أن الثناء الذى تفضلت به على جهودى قد جاء قبل الآن ، لعددت ذلك منك عطفاً وكرما ، ولكنك أبطأت فى بذله حتى فقد قيمته ، ولم أعد أستمتع به . . . ؛ وحتى عرفنى الناس ولم أعد فى حاجة إليه . وأرجو ألا يكون ثمة خروج على الأدب إذا لم أعترف بالفضل لمن لم يسد إلىّ فضلا ، وإذا لم أشأ أن يعرف الناس أنى مدين لإنسان بما أعاننى الله على عمله بنفسى .

وإذ كنت قد وصلتُ بعملى إلى المرحلة التى وصل إليها من غير أن يكون لأحد من أنصار العلم فضل علىّ ، فإنى لن يغضبنى أن أفرغ منه وفضل الناس علىّ أقل مما كان لهم من قبل إن كانت هذه القلة مستطاعة . ذلك أنى قد صحوت من زمن طويل من ذلك الحلم ، حلم الآمال التى كنت أمنى بها نفسى ، والتى كانت سبب بهجتى وافتخارى .

من خادم فخامتك الخاضع المطيع

صموئيل چنسن

* * *

ولم يُهدَ المعجم بطبيعة الحال إلى لورد تشسترفيلد ، ولم يُظهر اللورد شيئاً من الغضب حين تلقى هذه الرسالة ، ولم يرد عليها ، متبعاً فى ذلك ما جرت به تقاليد الطبقة التى ينتمى إليها . ولما سئل عن رأيه فى رسالة الدكتور چنسن أقر بأنها رسالة حسنة الأسلوب .

صمويل چنسن يهنئ صديقة قديمة

بزواج غير شريف

رسالة كتبها إلى هستر لنش ثريل[١]

كتب الدكتور چنسن الرسالة التالية إلى هستر لنش ثريل وهى زوجة لعاصر خمر ثرى لا يحبها ولا تحبه ، وكانت حين أصبحت صديقة چنسن وسلوته فى سنيه الأخيرة ، أماً لاثنى عشر طفلا ثمانية منهم أحياء . وكان يأوى إلى بيتهـا إذا مرض أو عز الصديق ، وكان إذا جاء أعدت له على الدوام حجرة فى مقرها الريفى ، أو فى بيتها فى مدينة بريتن[٢] ، يستريح فيها من عناء العمل .

ودامت الصداقة بين مسز ثريل وزوجها من ناحية ومســتر چنسن من ناحية أخرى ستة عشر عاما ، إذا جاء إلى دارها أعدت له الطعام وعنيت بشئونه ، وقابل عندها من يحب مقابلته من الناس . وقد اصطحبته مرة فى رحلة إلى پاريس و بريتن و باث[٣] .

و بعد أن ظلت على هـذه الحال ستة عشر عاما ، عرفت فيها فى الأوساط الراقية بأنهـا صديقة الـكاتب الـكبير واللغوى العظيم ، تبدلت حالها فجأة فضاقت ذرعا « بالرجل المتحير المتحذلق الحزين » ، وكانت زوجته قد ماتت كما مات زوج مسز ثريل ، وكان يسر چنسن من غير شك أن يتزوج بها لو أنها رضيت به ، ولـكنها تزوجت سرًّا بجبريل بيزى[٤] وهو مغن إيطالى وسيم تعرفت به أولا فى عام ١٧٨٠ .

ولم تدر كيف تبلغ خبر هذا الزواج إلى بطلها القديم وصديقها العزيز ، وكان وقتئذ فى سن الثالثة والسـبعين ، ثم استقر رأيها آخر الأمر على أن ترسل إليه رسالة تقول فيها إنهـا اعتزمت الزواج ، وذكرت له اسم من ارتضته زوجا لها ، فأجابها چنسن بالرسالة التالية :

---

(١) Hester Lynch Thrale
(٢) Brighton
(٣) Bath
(٤) Gabriel Piozzi

— ٤٥ —

« . . . . أسأل الله أن يغفر لك ذنبك . . . . »

سيدتى

إذا كنتُ قد فهمتُ رسالتك على حقيقتها ، فإنك قد تزوجت زواجا غير شريف فإذا كان هذا الزواج لم يتم بعد فإنى أرجو أن تهيئى لى من فورك فرصة أتحدث فيها إليك ، أما إذا كنت قد هجرت أبناءك وارتددت عن دينك ، فإنى أسأل الله أن يغفر لك ذنبك . و إذا كنت قد أسأتِ إلى سمعتك و إلى بلدك ، فأرجو ألا يدفعك حمقك إلى ما هو أكثر من هذه الشرور ، و إذا كان الفصل الأخير من الرواية لم يمثل بعد ، فإنى أتوسل إليك وأنا الذى أحببتك وأجللتك و بجلتك وخدمتك وظللت زمنا طويلا أعتقد أنك خير نساء العالم كلهن ، أتوسل إليك أن تسمحى لى بأن أراك قبل أن تقدمى على عمل لا تستطيعين الرجوع فيه .

ولقد كنت — كنت من قبل يا سيدتى

المخلص الوفى لك

صمويل چنسن

* * *

ولكن هذه الرسالة لم تجده نفعا ، فقد تزوجت مسز ثريل بالمغنى الإيطالى ، وانتهى بزواجها عهد الصداقة الذى خفف كثيراً من بؤس چنسن وشقائه نحو عشرين عاما .

ولما مات چنسن نشرت مسز ثريل « قصصها »[1] قبل أن يكتب بزول سيرة چنسن الخالدة ، وكشفت فيها الستار عن العشرين سنة الأخيرة من حياته .

وراج الكتاب رواجا منقطع النظير ، فنفدت نسخ الطبعة الأولى منه يوم صدورها بالذات . وأشارت مسز ثريل فى هذا الكتاب إلى صلتها بالدكتور چنسن بقولها : « النير الذى وضعه زوجى على عاتقى ! » .

---

(١) Anecdotes

رسالتان من ڤلتير بينهما خمسون عاما

كان ڤلتير شاعراً وفيلسوفا ومؤرخا ، ومكافحاً عن حرية العقل ، وكان فوق ذلك أقوى من عبر عن مبادئ الحرية ، ومن أكبر العاملين على إذاعتها بين الناس .

وقد ظل أكثر من خمسين عاما حاملا لواء الأدب الأوربى ، لا ينازعه فى ذلك منازع .

وكان اسمه الحقيقى فرنسوا مارى أرويه ، لكنه أتخذ لنفسه اسم « ڤلتير » ليوقع به رسائله .

وتلقى ڤلتير تعليمه فى إحدى مدارس الجزويت ، ونفى من بلده مرارا ، وعاش أزمانا طويلة فى عواصم أوربا و بلاط ملوكها وأمرائها ، ولم يكن يرى أنه كفء لهؤلاء الملوك والأمراء وكفى ، بل كان يعد نفسه أرقى منهم . وعاد أخيرا ظافراً منتصرا إلى باريس موطنه الأول فى الرابعة والثمانين من عمره ؛ وكان يعد المستبدين والمتعصبين مهما كبر مقامهم ألد أعدائه .

واشتهر ڤلتير بسخريته اللاذعة ، وعلمه الغزير ، ودفاعه المجيد عن حقوق الإنسان وحرية عقله ، وكان لكتاباته أعظم الأثر فى اندلاع لهيب الثورة الفرنسية .

وأرسل ڤلتير فى التاسعة عشرة من عمره إلى مدينة لاهاى ملحقا بالسفارة الفرنسية فيها ، وهناك أحب الآنسة دنوبيه[1] ، وكانت فتاة رقيقة الحال ، وأراد أن يتزوجها ، ولكن أمها والسفير لم يوافقا على هذا الزواج ، وأمر السفير بسجن ڤلتير ولكنه استطاع الخروج من نافذه السجن والفرار مع حبيبته إلى بلدة شڤننجن[2] على بعد خمسة أميال من لاهاى ، ليعدا فيها العدة لفرارهما إلى باريس . و إلى القارئ رسالة كتبها إليها وهو فى السجن :

— ٤٦ —

« . . . . . وهم يستطيعون قتلى ولكنهم لا يستطيعون إخماد ما أشعر به من الحب إليك . . . . . »

لاهاى فى سنة ١٧١٣

---

(١) Dunoyer

(٢) Scheveningen

إنى هنا سجين بأمر الملك ، وهم يستطيعون قتلى ولـكنهم لا يستطيعون إخماد ما أشعر به من الحب إليك . نعم يا حبيبتى ومعبودتى ! سأراك الليلة ولو كلفنى ذلك قطع رأسى ، وأستحلفك بالله ألا تنطق بهذه العبارات التى تكتبينها إلى . إنك لا بد أن تعيشى ، وأن تكونى على حـذر ، ولا تأمنى لوالدتك ، فهى ألد أعدائك . وماذا أقول بعد هذا ؟ احذرى جميع الناس ، ولا تثقى بأحد منهم ، واستعدى للفرار حين يبزغ القمر . وسأغادر أنا الفندق متخفيا ، واستقل عربة مغطاة أو مكشوفة نفر بها فى لمح البصر إلى شفننجن ، وسآخذ معى قلما وورقا لـكتابة رسائلنا .

فإذا كنت تحبيننى فـكونى رابطة الجأش ، واستجمعى كل قواك ، واستعينى بعقلك وقوة بديهتك ، ولا تمكنى والدتك من أن تلاحظ عليك شيئا غير عادى . واجتهدى فى أن تحضرى معك صورتك ، وثقى بأن أشد ما يمكن أن ألاقيه من عذاب ، لا يستطيع أن يحول بينى و بين خدمتك .

وما من شىء قط يقوى على التفريق بينى و بينك . إن حبنا يقوم على الفضيـلة ، وسيدوم ما دامت حياتنا . أستودعك الله ، وأؤكد لك أن ليس ثمة خطر لا أستطيع أن أواجهه من أجلك ، فأنت جديرة بذلك و بأكثر منه . وداعاً يا حبيبة قلبى .

أرويه

* * *

ولـكن ڤلتير عجز عن تنفيذ خطته . فقد انكشف أمرهما ، وأُرسل هو إلى پاريس ليعمل فى مكتب محام ، وتزوجت الفتاة بغيره وصارت فيما بعد كنتة ونترفيلد[1] ، ونشرت أمها بعد بضع سنين من زواجها عددا من الرسائل التى كتبها إليها ڤلتير لتستعين بذلك على أداء ديونها .

أما ڤلتير نفسه فقد ترك دراسـة القانون واشتغل بالأدب حتى أصبح من كبار الأدباء الذين يشار إليهم بالبنان فى أور با كلها . و بعد أن فر من الباستيل وأقام فى إنجلترا ثلاث سنين صار صديقاً حميا لمركيزه شتليه[2] ، وكانت من كبريات الهواة فى الفلسفة والموسيقى واللغات والرياضة ، ودامت صداقتهما حتى توفيت فى عام ١٧٤٩ فى الثالثة والأر بعين من عمرها ، وكان هو وقتئذ فى الخامسة والخمسين .

(١) Countess of Winterfield

(٢) Marquise de Châtelet

من ڤلتير إلى چيمس بزول

والرسالة التالية كانت فى واقع الأمر مقدمة للقاء بزول بڤلتير فى مساء اليوم السابع والعشرين من ديسمبر سنة ١٧٦٤ . و بزول هذا هو كاتب سيرة چنسن الشهيرة التى يعدها بعضهم أحسن السير على الإطلاق ، والتى يقال إنها رفعت من شأن چنسن أكثر مما رفعته أعماله كلها مجتمعة . وقد وصف بزول لقاءه بڤلتير بقوله : « وجلسنا أنا وڤلتير فى حجرة الاستقبال ، وأمامنا نسخة من الكتاب المقدس . و إذا كان هناك شخصان اشتد بينهما الجدل حتى وصل إلى أقصى حد فقد كنا نحن هذين الشخصين … وكان حديثنا كله .. كنزا لا يستطاع تقدير قيمته . »

و كتب بزول بعد ذلك رسالة إلى ڤلتير . وقد وجد رد ڤلتير على هذه الرسالة بين أوراق بزول الخاصة بعد مائة وخمسين عاما من كتابته .

— ٤٧ —

« الشيء اللطيف الذى كانوا يسمونه روحا »

شاتو ده فرناى[١] فى ١١ فبراير سنة ١٧٦٥ .

إن حدة طبعى ومرض عينى لا يسمحان لى بأن أرد عليك بالرشاقة والدقة اللتين يحتمهما على واجبى لك وحبى إياك . ويبدو لى من رسالتك أنك عظيم الاهتمام بذاك الشيء اللطيف الذى يسمونه روحا ؛ أما أنا فأؤكد لك أنى لا أعرف عنه شيئاً ، فلست أعرف كنهه ولا مستقره ولا مستقبله ، فتلك كلها أمور يعلمها القساوسة والشبان المتعلمون حق العلم . أما أنا فلست إلا إنسانا جاهلا أشد الجهل .

فليكن ذلك ما يكون ، ولكننى أؤكد لك أن روحى يجل روحك أعظم إجلال .

---

(١) Chateau de Ferney

و إذا ما عرجت على البيداء التى أعيش فيها وجدتنى (إذا كنت حياً) مستعداً لأن أقدم لك خضوعى و إجلالى .

ف

إلى سيدى

المسيو بزول

بطرف مسيو پول والمسيو پيير

تراز

تورين

* * *

وقد كتب ڤلتير رسالته هذه باللغة الإنجليزية ، وكانت كثيرة الأغلاط الهجائية . وكان ڤلتير فى أخريات حياته مولعا بالإشارة فى رسائله وأحاديثه إلى قوله المشهور : « لو لم يكن هناك إله لكان من الواجب اختراع إله ... ولكن الطبيعة كلها تنادى بأعلى صوتها إن الإله موجود حقا ... »

وقد عبر ڤلتير عن هذه الحقيقة فى رسالة كتبها إلى فردرك وليم[١] ولى عهد بروسيا بعد أن زار بلاطه فى پتسدام[٢] .

و يروى أنه قال وهو على فراش الموت :

« إنى أموت وأنا أعبد الله ، وأحب أصدقائى ، ولا أبغض أعدائى ، وأحتقر الخرافات ... »

A Monsieur
Monsieur Boswell
chez Messieurs Paul et Pierre
Toraz
a Turin.

(١) Frederick William (٢) Potsdam

چان چاك روسو ومدام ديپناى

يضعان القواعد التى تقوم عليها صداقتهما

كان چان چاك روسو عدو الأرستقراطية والملكية المطلقة الألد ، ولكنه كان فى بعض الأوقات يجد فيهما نفعا كثيراً ، وقلما كان يعدم من الأثرياء من يأخذ بيده . على أنه لم يكن يحتفظ بأنصاره منهم زمناً طويلا . و إذا كانت الحياة الهمجية هى خير أنواع الحياة كما يقول ، و إذا كان المجتمع يُفقد الإنسان كل ما وهبته الطبيعة من خير ، فقد كان روسو نفسه خير شاهد على صدق قوله . لكن العبقرية تغتفر لها أخطاؤها ، و بخاصة إذا باعدت بيننا و بينها الأيام . وكان روسو عبقريا ما فى ذلك شك ، ولقد وصفه بعضهم بقولة : « كان چان چاك رجلا ذكيا مجنونا ، وكان ذكاؤه لايظهر إلا إذا كان محموما ، ولذلك كان من الخير ألا نعالجه أو نهينه » . وقد كشف عن ذكائه فيما كتبه من المسرحيات الغنائية القليلة ، وفيما وصفه من مبادئ للثورة الفرنسية فى « إميل » والعقد الاجتماعى ، وفيما كان له من الأثر فى أسلوب جوت وشتوبريان وجميع الكتاب الروائيين الذين جاءوا من بعده .

وكانت مدام ديپناى[1] أيضا من أذكى النساء « كانت دمثة الأخلاق ، حاضرة البديهة ، عظيمة المواهب ، تحافظ فى المجتمع على الآداب المرعية ، وإن كانت هى نفسها لا خلاق لها »

ونشأت بين روسو ومدام ديپناى صداقة لم تدم طويلا ، وحدث فى عام ١٧٥٦ أن ملّ روسو المقام فى پاريس ، وفكر فى العودة إلى چنيف . وفى هذا الوقت تلقى من مدام ديپناى دعوة للإقامة فى كوخ قائم فى مزرعة زوجها فى منتمورنسى[2] ، فلبى الدعوة بعد شىء من التردد ، وانتقل إلى هذه « الصومعة » فى شهر إبريل هو وحبيبته تريز لفسير وأمها[3] . ولم يتمتع روسو فى صومعته بما كان يبتغيه من العزلة لأن مدام ديپناى أمطرته

---

(١) Madame d'Epinay

(٢) Montmorency

(٣) Thérèse Le Vasseur

وابلا من الرسائل تدعوه فيها إلى زيارتها ، بل إنهـا أرسلت إليه إحدى وصيفاتها لتحفظه من الملل .

وحاول دنيس ديدرو[١] أن يحمل روسو على العودة إلى باريس ، وقال له إن من القسوة والغلظة أن تقيم مدام لفسير العجوز فى قلب الغاب فى الشتاء . ورد عليه روسو رداً لاذعا ، ونشأت بين الاثنين معركة أدبية تدخلت فيها مدام ديبناى لتصلح بينهما ، وقالت إنها تخشى أن يملها هى الأخرى بعد قليل . وقد كتب روسو الرسالة التالية رداً على رسالة لها فى هذا الموضوع :

— ٤٨ —

« . . . . أنى مرهف الحس أكثر من سائر الناس . »

[١٧٥٦]

ما الذى أوحى إليك بأنى سأملُّك بعد قليل ؟ ولو كان لدى ما أشكو منه لـكان هو إفراطك فى تعظيمى وحسن معاملتى . ذلك أن الذى أحتاجه فى كثير من الأحيان هو أن ألقى بعض الصد منك ، ولست أكره أن أعنَّف إذا كنت أستحق التعنيف . ويخيل إلى أنى أنا الشخص الذى يرى فى هذا التعنيف أحيانا نوعا من التحفى ، ولـكن فى وسع الإنسان أن يخاصم صديقه من غير أن يزدريه ، وأن يخبره فى وجهه بأنه أبله دون أن يقول له إنه رذيل ؛ ولست أظنك تقولين إنك تحسنين إلى إذا أحسنت الظن بى ، أو تنطقين بما يفهم منه أنك إذا فحصت عن أخلاقى قلّ احترامك لى ، ولن تقولى لى فى يوم من الأيام — « ولدى الشىء الـكثير مما أستطيع أن أخبرك به عن أخلاقك » .

لو قلت لى ذلك لـكان إهانة لى ولك أنت أيضا ، لأنه لا يليق بخيار الناس أن يكون لهم أصدقاء لا يحسنون الظن بهم . ولو أنى أسأت فهم شىء قلته فى هـذا الموضوع لبادرتِ دون شك إلى إيضاح ما كنت تقصدين به ، ولما أصررت على تكرار الألفاظ بعينها فى جفاء وفتور ، فيكون لها نفس الأثر المشئوم الذى كان لهـا من قبل . ويقينى يا سيدتى أنك لا تسمين هذا مجرد مظهر خارجي ، أليس كذلك ؟

---

(١) Denis Diderot

وما دمتُ قد طرقت هذا الموضوع فإنى أحب أن أحدثك عما أطلبه من الصديق ، وما أرضى أن أعطيه إياه . ولا تظنى أنك ستجدين أخطاء فيما سوف أضعه من قواعد الصداقة ، أو تعتقدى أن من السهل عليك أن تحولينى عنها ، لأن هذه القواعد وليدة مزاجى وأخلاقى ، وهما اللذان لا أستطيع قط أن أتحول عنهما .

أول ما أريده من الأصدقاء أن يكونوا لى أصدقاء لا أسيادا ، وأن يشيروا على ولا يحكمونى ، وأن يكون لهم كل ما يريدون من الحقوق على قلبى ، وألا يكون لهم شىء منها على حريتى . وأشد ما أعجب له من الناس تذرعهم بالصداقة للتدخل فى شئونى من غير أن يطلعونى هم على شئونهم .

وأحب أن يصارحنى أصدقائى بآرائهم فىّ وألا يخفوا منها شيئاً عنى ، وأن يقولوا لى كل ما يشاءون فأنا أجيز لهم كل شىء إلا أن يحتقرونى . على أننى لا أبالى بالاحتقار يأتينى من شخص لا أعبأ به ، أما إذا وُجه إلى من صديق فمن حقى عليه أن يتحقق أولا أنى خليق به . وإذا كان من سوء حظه أن يحتقرنى فليمتنع عن أن يجهر لى باحتقاره ، بل عليه أن يقطع حبل صداقتى ، فذلك حق لنفسه عليه . وفيما عدا الاحتقار وحده أرى أن من حق صديقى علىّ أن يعاتبنى ، وأن يستخدم فى عتابى أية لهجة يشاء ، ومن حقى أنا بعد أن أستمع لكل ما يريد أن يقوله أن أقبل عتابه أو أرفضه ، على أنى لا أحب أن ألام لوما دائما على شىء مضى وانقضى .

ومما يضايقنى من الأصدقاء حرصهم الشديد على أن يصنعوا معى المعروف آلاف المرات . ذلك أن فى صنع المعروف شيئاً من مظاهر الولاية علىّ لا أطيقه ، وأن فى وسع غير الأصدقاء أن يصنعوا معى هذا المعروف نفسه ، وحسبى من الأصدقاء أن أحبهم ويحبونى ، وهو كل ما يراد من الصديق .

وأشد ما أغضب له من الأصدقاء أن يستطيع كل زميل جديد أن يحل فى قلبهم محلى ، مع أنهم هم وحدهم الذين أطيق صحبتهم فى العالم كله . وما من شىء يجعلنى أطيق معروف الأصدقاء إلا حبهم لى ، فإذا ما أرغمت نفسى على قبول معروفهم فإنى أحب منهم أن يكون صنيعهم ملائما لذوقى أنا لا لأذواقهم ، لأن أفكارنا لا تتفق فى كل شىء ، وكثيراً ما يكون الخير فى رأيهم شرا فى رأيى .

و إذا حدث بين الصديقين ما يخشى منه على صداقتهما وجب على المخطئ أن يسعى هو إلى مصالحة صديقه . على أنى أعترف أن هذا القول لا معنى له إذ ليس فى الناس من لا يعتقد أنه على حق ، ولهذا يجب على من بدأ النزاع أن يبدأ هو بحسمه ، محقا كان أو غير محق . و إذا ثرتُ بغير حق أوغضبتُ لغير سبب معقول ، فليس له أن يحذو حذوى ويجارينى فى فعلى ، فإن فعل كان ذلك دليلا على أنه لا يحبنى . إنى أريد منه غير هذا ، أريد منه أن يشعرنى بحبه وأن يعانقنى وأن يظهر فى عناقه هذا عطفه وحنوه . هذا ما أريده ياسيدتى ؛ وجملة القول أنى أحب أن يبدأ هو بإطفاء نار غضبى ، ولست أشك فى أن هذا لن يحتاج منه إلى وقت طويل ، فلم تكن فى قلبى قط نار لا تطفئها دمعة . و إذا ما هدأت أعصابى ، وخجلت من نفسى ، وأسفت على فعلتى ، وتحيرت فى أمرى ، فليعاتبنى أشد العتاب ، وليصارحنى بما أخطأت فيه ، وما من شك فى أنه سيجد منى ما يرضيه . و إذا كان منشأ الغضب أمراً تافها لا يستحق البحث والجدل ، فلتطو صفحته ، وليكن المعتدى أول من يمسك لسانه عن الجدل ، ولا يتشبث بأن يكون آخر المتكلمين ، ظنا منه أن هذا مما يقتضيه الشرف . ذلك ما أحب أن يفعله صديقى معى ، وما لا أتردد فى أن أفعله معه فى مثل هذه الحال .

وأحب بهذه المناسبة أن أذكر لك حادثة صغيرة لا أظنك فكرت فيها و إن كان لها بك صلة . وهى خاصة برسالة تلقيتها منك ردا على رسالة بعثت بها إليك ، ولكنها لم تعجبك كما يبدو لى ، وأظن أنك لم تفهمى معناها حق الفهم . لقد كتبت إليك رداً جميلا أو أن هذا على الأقل هو ما كنت أظنه . وكانت تسرى فيه من غير شك روح الصداقة والمودة ، ولكنى لا أنكر أنه كان يحتوى على بعض عبارات اندفعت إليها فى غضبى . ولما أعدت قراءتها لنفسى خشيت ألا يكون وقعها عليك خيراً من وقع رسالتى السابقة ، ومن أجل هذا ألقيتها فى النار من فورى ، ولشد ما ارتاحت نفسى إذ رأيت بلاغتى كلها تحترق فى اللهب. ولم تعرفى أنت شيئا من هذا ، وكان من أسباب فخرى أنى استسلمت لك وخضعت لسلطانك. ذلك أنى أعتقد أن شرارة صغيرة قد تؤجج ناراً يصعب إخمادها . وهل يخفى عليك يا صديقتى العزيزة الوفية ما قاله فيثاغورس فى هذا المعنى ، وهو أنه ليس للإنسان أن يحرك النار بسيفه ، وهو قول ينطوى فى رأيى على مبدإ من أهم مبادئ الصداقة وأقدسها .

ولا تعجبنى إذا قلت إنى أطلب إلى الصديق أكثر مما ذكرته فى هـذه الرسالة . بل أكثر ممـا يطلبه هو إلىّ وأكثر ممـا يطلبه إلىّ لو أنه كان فى مكانى وكنت أنا فى مكانه . إنى أعيش فى عزلة ، ولهذا تجدينى مرهف الحس أكثر من سائر الناس ، فإذا تنازعت مع إنسان يعيش بين الناس ويختلط بهم ، فإن ذلك لا يكلفه أكثر من أن يفـكر فى الأمر ساعة ، ثم تصادفه مئات من الأمور التى تشغل باله فينسى من فوره نزاعه .

أما أنا فأظل طول ليلى أرِقًا أفـكر فيـه ، ولا يذهب من عقلى وأنا أسير بمفردى من شروق الشمس إلى غروبها لا يستريح منه قلبى لحظة واحدة ، ولذلك كان ما أعانيه من قسوة الصـديق فى يوم واحد يعدل ما يعانيه غيرى فى عدة سنين . وأنا كما تعلمين رجل مريض ، ومن حق المريض على بنى الإنسان أن يتغاضوا عما فى خلقه وطبعه من هنات ؛ وأى صديق بل وأى إنسان مهذب تطاوعه نفسه على أن يؤلم مخلوقا تعسا مصابا بداء عضال أنهكه وهد قواه ؟ إنى رجل فقير وإن فقرى (أو ما يبدو لى أنه فقر) ليجعلنى خليقاً بشىء من الرعاية . ولقد أجبتنى أنت إلى كل ما أريده من الإغضاء عن عيوبى الصغيرة دون أن أطلب ذلك إليك ، لأن الصديق الوفى لا ينتظر حتى يطلب إليه صديقه ما يريده منه . ولـكنى أسألك أيتها الصديقة العزيزة — وأسألك بصراحة — هل تعرفين أن لى أصدقاء ؟ أقسم لك أن من حسن حظى أنى قد عرفت كيف أستغنى عنهم ، وإنى لأعرف الـكثيرين ممن لا يأسفون إذا استطاعوا أن تـكون لهم علىّ يد ، بل إنى لأعرف الـكثيرين ممن لهم علىّ يد ، أما القلوب الخليقة بأن تستجيب إلى نداء قلبى — فحسبى أنى لم أعرف منها غير قلب واحد فقط .

فلا تعجبى إذن إن رأيت أن كرهى پاريس يزداد يوما بعد يوم ، وما من شىء يأتينى منها — غير رسالاتك — إلا وهو يزيد فى غضبى . ومن أجل هذا لن أدخلها أبدا . وإذا رأيت أن تفصحى عن رأيك فى هـذا الموضوع ، وأن تفصحى عنه بأعظم ما تشائين من القوة والصراحة فإن ذلك من حقك . وثقى بأنى سأتقبله بقبول حسن ، وأنه سيكون عديم النفع . وبعدئذ لن تحاولى مرة أخرى ......

***

لم يكن روسو ولويز فلرنس بترولى تارديو د سكلاڤل[1] مركيزة إپيناى حبيبين بالمعنى الذى يفهمه الناس من الحب ، ويذكر لنا روسو فى اعترافاته أحد الأسباب التى قامت فى سبيل حبهما هذا ، فيقول إنها « كانت نحيلة شديدة الاصفرار لها صدر يشبه ظهر يدها » وكانت العلاقة التى بينهما علاقة صداقة . وقد ردت على رسالته السابقة بالرسالة التالية :

— ٤٨ —

«.... دع لذويه هذه الشكاوى الصغيرة لذوى القلوب الخاوية والرؤوس الفارغة ....»

[١٧٥٦]

أظن يا صديقى أن من أصعب الأمور أن يضع الإنسان قواعد ثابتة للصداقة . ذلك أن من الطبيعى أن يضع كل إنسان من القواعد ما يلائم تفكيره الخاص . فأنت تذكر لى ما تطلبه إلى أصدقائك ثم يأتينى من فورى صديق لى و يطلب إلىّ ما لا يتفق قط مع ما تطلبه أنت ، ونتيجة ذلك أن أجد مزاجى يخالف مزاجه فأقضى يومى أحاول فعل ما ينفر منى أصدقائى ، وأتمنى لهم كل سوء بطبيعة الحال . غير أن هناك قاعدتين أساسيتين لا غنى عنهما فى الصداقة ويجب أن يستمسك بهما كل إنسان ، وهما التسامح والحرية . وكل صداقة لا تشتمل على هاتين الخلتين لا تلبث عراها أن تنفصم . و إليك بالاختصار الأساس الذى أقيم عليه صرح صداقتى . إنى لا أطلب إلى الصديق أن يحبنى حبا عارما دافقاً سريع التأثر ، أو حبا أقدم عليه بعد تفكير وتدبير ، بل إنى لأرتضى منه أن يحبنى على قدر ما يستطيعه من الحب وما يسمح له به مزاجه هو ؛ وذلك لأن رغباتى مهما تكن قوية لا تستطيع أن تبدل مزاجه سواء كان متحفظاً فى حبه أو متقلباً أو رزينا أو مرحا . و إذا ما طلب المرء فى الصديق صفة تنقصه ، وظل يذكر هذا ويلح فيه ، أدى ذلك إلى كره صديقه له ونفوره منه ، والواجب علينا أن نحب أصدقاءنا كما يحب الفنانون الصور ، فهؤلاء تقع عيونهم على ما فى الصور من جمال ولا يبصرون ما عدا ذلك .

وتقول : إذا ما شجر النزاع ، و إذا ما أساء صديقى معاملتى ، وما إلى ذلك . إنى لا أفهم

(١) Louise Florence Petroneille Tardieu D'Esclavelles

قولك «أساء صديقى معاملتى» ، ولا أعرف أن فى الصداقة معاملة سيئة إلا معاملة واحدة هى عدم الثقة . أما إذا قلتَ : رأيت صديقى يوماً من الأيام يخفى عنى أشياء ، وفى يوم آخر يفضل هذا الشىء وذاك عن صحبتى والاهتمام بى ، أو أنه كان يجب عليه أن يتخلى عن ذلك الشىء لى — ، فإن هذا كله يؤدى حتما إلى السخط . دع إذن هذه الشكايات الصغيرة إلى ذوى القلوب الخاوية والرؤوس الفارغة . إنها خليقة بصغار المحبين السخفاء الأدنياء ، فهؤلاء ديدنهم المنازعات الصغيرة الدنيئة الحقيرة التى تجعلهم ضيقى العقول شكسين نكدين خبثاء أو أراذل . وكان خليقا بهم أن يسكنوا إلى أصدقائهم ، ويطمئنوا إليهم ، وأن تطفح وجوههم بالبشر ، وتفيض قلوبهم بالمحبة ، وأن يزدادوا كل يوم حبا لأصدقائهم ، وذلك لما يتصفون به من استقامة الأخلاق وطيبة القلوب ، وما أوتوا من نظرة فلسفية إلى الأمور . وهل يليق بالفيلسوف صديق الحكمة أن يفعل ما يفعله المتزمتون منخوبو القلوب ضيقو العقول ، الذين يعمدون إلى الخرافات الباطلة الحقيرة فيستبدلونها بحب الله ؟ ثق يا صديقى أن الذى يفهم الطبيعة البشرية على حقيقتها لن يصعب عليه أن يصفح عن هنات الناس وأن يحبهم لما يفعلون من خير ، لأنه يعرف أن فعل الخير من أشق الأمور . إن القواعد التى تضعها للصداقة ، والتى جاءت عقب نزاعك مع ديدرو[1] لتذكرنى بالخطة التى يسلكها الإنجليز على الدوام حين تكشف لهم أزمة من الأزمات عن عيب فى تشريعهم ، هو منشأ تلك الأزمة التى لا يستطيعون علاجها من فورهم لأنهم لم يكونوا يتوقعون حدوثها .

أما أنا يا صديقى فإنى حين قلت لك فى بدء رسالتى إن الحرية والتسامح هما أساس الصداقة الحقة ، لم أكن أظن أنى سأسمح لنفسى بمثل ما سمحت لها به من الحرية ، أو أطلب لها ما طلبت من التسامح . وأرجو أن تصفح عما فى هذه الرسالة من سوء أدب يغفره لى وفائى وإخلاصى . أى إلهى ! ما أكثر الحقائق الطيبة التى أستطيع أن أضمنها هذه الرسالة ، ولكنى لا أستطيع تسطيرها فيها لأنى أضطر إلى قطع سلسلة أفكارى مرة كل دقيقتين . إنى لا أجد من الوقت ما يسمح لى بأن أسرَّ إليك إنى أتحداك أن تغضب منى بالرغم من أننى تعمدت فى هذه الرسالة أن أستثير غضبك . ذلك أنى مهما كثرت أخطائى أحبك من كل قلبى !

***

(١) Diderot

ومع هذا فلم ينقض إلا قليل من الزمن حتى كتب روسو إلى مدام دبيناى يقول : « إن الصداقة التى كانت بيننا قد انقطع حبلها » . وكان سبب ذلك أن الدسائس حيكت شباكها من حولها حتى لم يستطيعا الإفلات منها . وكانت هذه الدسائس من الغموض والتعقيد بحيث لا نستطيع نحن أن نعرف حقيقتها . فمن قائل إن مدام ديبناى مرضت (بالسرطان) ، وأنها اعتزمت أن تذهب إلى جنيف لتستشير الطبيب العالمى الشهير الدكتور ترنشن[1] وطلبت إلى روسو أن يصحبها ، فأبى روسو بحجة أن صحته لا تساعده على تحمل متاعب السفر . وتدخل ديدرو فى الأمر كعادته وكتب إلى روسو يقول له إن من حق من أحسنت إليه أن يصحبها إلى حيث تريد ، ولو أدى به ذلك إلى أن يخوض من أجلها الوحل .

وكتب إليه صديق آخر هو البارون جرم[2] يلومه على فعله ، فرد عليه روسو برسالة طويلة يشرح فيها سبب امتناعه عن الذهاب ويقول : « أما ما تشير إليه من فضل وإحسان، فإنى لا أريدهما ولا أشعر بأنى مدين بالشكر لمن يفرضونهما علىّ » . وفى شهر ديسمبر من عام ١٧٥٧ غادر روسو « الصومعة » التى كان يقيم فيها .

ويقص روسو نفسه قصة أخرى فى اعترافاته التى كان يقرؤها على أصدقائه فى عام ١٧٧٠ فيها طعن على أخلاق مدام ديبناى واتهامها بتهم أخلاقية شنيعة . ولكن روسو لا يوثق بالكثير من أقواله فى اعترافاته ، والقصة التى يرويها عن سفرها لا يقبلها عقل .

أما مدام ديبناى نفسها فتذكر فى مذكراتها القصة الأولى ، قصة المرض وجحود روسو ، غير أن أصدقاء روسو ومنهم لورد بيرن يتهمون ديدرو وجرم بتزوير هذه المذكرات

---

(١) Dr Tronchin

(٢) Baron Grimm

من رسائل بنچمين فرنكلن

كان بنچمين فرنكلن متعدد الكفايات ، كان سياسيا ، وعالماً طبيعيا ، وفيلسوفا ، وناشراً ، وطابعاً ومخترعا . وقد عمر طويلا (١٧٠٦ — ١٧٩٠) ، وكتب كثيراً ، ودون سيرته بيده ، ولكن كثيرين غيره قصوا تاريخ حياته .

وقد كتب الرسالة التالية إلى الآنسة أ . هبرد[١] ابنة زوجته من رجل آخر تزوجت به قبله .

— ٤٩ —

« . . . . سنلحق به بعد قليل . . . . »

فلدلفيا فى ٢٣ فبراير سنة ١٧٥٦

أعزيك . لقد فقدنا قريبا لنا عزيزاً وعظيما . ولكن هذه سنة الحياة ، وقد قضت إرادة الله أن تُطرح هذه الأجسام الفانية حين يريد أن تبدأ الروح حياتها الحقة ، فليست حياتنا هذه إلا كحياة الجنين لا تعدو أن تكون استعداداً للحياة .

والإنسان لا يكمل مولده إلا بعد أن يموت ، فلِمَ نحزن إذن لأن طفلا جديداً قد ولد بين الأحياء الخالدين ، ولأن عضواً جديداً ضم إلى مجتمعهم السعيد ؟ إننا أرواح ، وإذا كان الله قد أعارنا أجساداً حين نستطيع أن ننال بها البهجة والسرور ، ونكسب بها العلم والمعرفة ، ونسدى الخير لبنى جنسنا ، فذلك فضل منه وإحسان . وإذا ما أصبحت الأجساد عاجزة عن الوفاء بهذه الأغراض ، وأضحت سبباً فى آلامنا بعد أن كانت منبعاً لسرورنا وبهجتنا ، ولم تعد عوناً لنا على إسداء الخير ، بل صارت عقبة فى سبيله ، وملاك القول إنها حين تعجز عن أداء الأغراض التى خلقت من أجلها ، فإن من رحمة الله بنا وفضله علينا أن يهيئ لنا وسيلة نتخلص بها منها ، وتلك الوسيلة هى الموت . ألا ترين أنا نختار برضانا بعض الأحيان موتاً جزئيا ؟ ألسنا نبتر من أجسادنا العضو الفاسد الذى لا نستطيع علاجه وإصلاحه ؟

---

(١) A. Hubbard.

إن الذى يقتلع ضرسا من أضراسه يقتلعه بمحض اختياره لأن ألمه منه يذهب بخلعه ، ومن يتخلص من جسمه يتخلص لساعته من آلامه الحاضرة والمستقبلة ، ومن الأمراض التى يتعرض لها والتى تسبب له الآلام . وما أشبهنا نحن وصديقنا بجماعة دُعوا إلى رحلة يتمتعون بها أبد الدهر . فأما هو فقد أُعِدّ له مقعده قبلنا فسبقنا إليه لأنه يصعب علينا أن نبدأ كلنا هذه الرحلة فى وقت واحد . فلم إذن نحزن أنا وأنتِ إذا كنا سنلحق به عما قليل ، وإذا كنا نعرف أين نجده ؟

أستودعك الله

ب . فرنكلن

من بنجمين فرنكلن إلى وليم استراهن

كان وليم استراهن[١] الذى كتب له فرنكلن هذه الرسالة صديقا له حميا ، وكان من أعضاء البرلمان الإنجليزى ، وكان قبل أن يختار عضواً فيه قد أخذ على عاتقه طبع معجم صمويل جنسن الكبير فى اللغة الإنجليزية ، ونشر المجلد الأول من تاريخ هيوم[٢] . ثم نشر بعدئذ كتب آدم اسمث[٣] وجبن[٤] وغيرهما .

وظل فرنكلن واستراهن يتراسلان نحو أربعة عشر عاما ، وكثيراً ما احتوت رسائلهما أخبار الأسرتين . وكان فرنكلن يوقع رسائله لصديقه : « صديقك المحب وخادمك الخاضع » وكثيراً ما زاره فى لندن .

ثم أصبح استراهن قبيل الثورة الأمريكية عضواً فى البرلمان البريطانى . وقد كتب فرنكلن رسالته التالية إلى صديقه القديم وهو فى سورة الغضب .

— ٥٠ —

« . . . . انظر الى يديك . . . . »

فلدلفيا فى الخامس من شهر يوليو سنة ١٧٧٥

مستر استراهن :

أنت من أعضاء البرلمان ، ومن الأغلبية التى حكمت على بلادى بالدمار ، وأخذتْ تحرق مدننا وتذبح أبناءنا . انظر إلى يديك ! إنهما ملطختان بدماء أهلك ! لقد كنت أنا وأنت صديقين زمنا طويلا ، ولكنك الآن عدوى وأنا — عدوك

بنجمين فرنكلن

على أن فرنكلن لم يبعث بهذه الرسالة بعد أن كتبها إلى استراهن ، بل بعث إليه بدلا منها برسالة أخرى ودية بعد بضعة أيام من كتابة هذه الرسالة ، وتلقى عليها رداً مثلها . وعاد فرنكلن واستراهن صديقين حميمين مرة أخرى بعد الثورة الأمريكية .

---

(١) William Strahan
(٢) Hume
(٣) Adam Smith
(٤) Gibbon

كترين الكبرى تذكر تفاصيل المؤامرة

التى رفعتها إلى عرش روسيا

[رسالتها إلى الكونت ستانسلوس پنياتوفسكى]

لعل حق كترين فى أن تلقب بكترين الكبرى لا يستند إلى أساس أقوى من كثرة عشاقها . وتعد كترين من « المستبدين الأخيار » ، ولكن استبدادها كان أعظم كثيراً من خيرها . فأما أنها كانت ذات مواهب عظيمة فذلك مالا ينكره إنسان ، وأما أنها أفادت روسيا بمواهبها فأمر مشكوك فيه كل الشك ، ولعل أعظم ما أفادته منها بلادها أنها أنقذتها من حكم شر من حكمها هى ، وهو حكم بطرس الثالث .

ومما يشهد لكترين بالمقدرة وقوة الشخصية أنها وهى أميرة ألمانية استطاعت أن تحكم « جميع الروس » ، وأن تتشبه ببطرس الأكبر قيصر روسيا . خطبت هذه الأميرة وهى فى سن الخامسة عشرة من عمرها إلى بطرس وارث عرش الروسيا بعد إلزبث ، فتخلت من فورها عن مذهبها البروتستنتى واعتنقت المذهب الأرثوذكسى الروسى الذى لم تكن تؤمن به إيمانا حقا . ولم تكتف بهذا بل اتخذت اللغة الروسية لغة أصلية لها . وكان الدين واللغة أقل الفروض التى كان لا بد أن تتحملها للوصول إلى عرش الروسيا . أما أشقها عليها فهو زواجها ببطرس فى عام ١٧٤٥ .

لقد كان بطرس إنسانا مسلوب العقل ، وكان من نعم الله على روسيا أنه لم يحكمها أكثر من ستة أشهر . فقد كان رجلا حقيراً قبيح المنظر — يشبِّهه مواطنوه بالقرد — ، فاجرا ، أهم ما يعنى به ملذاته وملابسه . وكان يعجب بفردرك الأكبر ملك پروسيا إعجابا بلغ حد العبادة ، ولعل منشأ هذا الإعجاب ظنه أن بينه و بين فردرك شبها كبيراً ، وأن ملك پروسيا كان ذا ذوق فى اختيار الملابس وزينتها ، والأزرار والأنواط ، وهى أحب الأشياء إلى بطرس . ولم يكن بطرس يكره إلا شيئين اثنين هما كترين والشعب الروسى . و بعد عشر سنين من زواج بطرس وكترين ولد لهما ولى للعهد ، وكان بطرس يشتهر بضعفه وفجوره ، أما كترين فلم تكن تشتهر بغير فجورها .

ولما خلف بطرس الإمبراطورة إلزبث على عرش روسيا أقدم على كثير من أعمال الحمق ، أثارت عليه غضب الأشراف ورجال الجيش ، وأصبحت كترين بفضل حبها للشعب الروسى وصلاتها برجال الحرس — وقد كان أخوان من أسرة أرلوف من عشاقها — أصبحت كترين محور مؤامرة تدبر لخلعه ؛ ونجحت المؤامرة وكان نجاحها سبباً فى إبعاد وارثين شرعيين عن عرش الروسيا هما إيڤان السادس[١] الذى سجن فى قلعة شلوسلبرج[٢] وابنه بول[٣] . وجلست كترين على العرش بعد ثورة لم تسفك فيها دماء ، وكتبت بعد جلوسها الرسالة التالية إلى الكونت ستانسلوس پنياتوڤسكى — وكان أكبر عشاقها حين كان مقيما فى بلاطها — تقص عليه نبأ هذه الثورة :

— ٥١ —

« *ونادى الجند . . . . أنى منقذتهم* »

فى ٢ أغسطس [بالحساب القديم] من عام ١٧٦٢

سأرسل الكونت كيسرلنج إلى پولندة على الفور ليعمل على تنصيبك ملكا عليها بعد ملكها الحالى . فإذا لم ينجح فى مهمته فإنى أحب أن يكون الأمير آدم[٤] هو الملك

ولا تزال جميع العقول هنا ثائرة ولذلك أرجو ألا تجىء أنت وتزيد نار هذه الثورة ضراما .

وكان العمل الذى انتهى بجلوسى على العرش يجرى من نحو ستة أشهر . ذلك أن بطرس الثالث قد فقد معظم ما كان له من عقل قليل ، فكان يريد أن يتدخل فى كل شىء ، وأن يلغى الحرس الوطنى ، ولهذا أرسل رجال هذا الحرس إلى ميدان القتال واستبدل بهم جنود هولستين[٥] ، وكان فى نيته أن يستبقيهم فى المدينة . وأراد فضلا عن ذلك أن يغير دين البلاد ، وأن يتزوج ل . ڤ [إلزبث ڤرنتسوڤا][٦] ، وأن يلقينى أنا فى السجن . ولقد أهانني علنا على مائدة الطعام فى يوم الاحتفال بالسلم ، وأصدر فى مساء ذلك اليوم أمراً بسجنى ، غير أن عمى الأمير چورچ حمله على إلغائه .

---

(١) Ivan VI　(٢) Schlusselburg　(٣) Paul
(٤) Adam　(٥) Holstein
(٦) Elizabeth Vorontsova

ومن ذلك اليوم أخذت أصغى إلى الاقتراحات التى تقدم بها بعضهم إلىّ بعد موت الإمبراطورة إلزبث . وكانت الخطة المرسومة هى أن يقبض عليه فى حجرته ، وأن يسجن فيها كما سجنت الأميرة أنّا[١] وأطفالها . غير أنه انتقل إلى أورنينبوم[٢] . وكنا واثقين من إخلاص عدد كبير من الضباط فى فرق الحرس الوطنى . ووراش جناح المؤامرة الأخوان أرلوف ، ويذكر أستن[٣] كيف كان أكبر أبناء هذه الأسرة يجرى خلفى على الدوام ، ويرتكب كثيراً من أعمال الحمق . وهو يحبنى كثيراً كما تعلم ، وكان حبه لى غير خاف على جميع الناس ، وهذا الحب هو الذى دفعه إلى أن يفعل لى ما فعل . وهو من أسرة أفرادها كلهم ذوو عزيمة ماضية ، والكثرة الغالبة من الجند تحبهم كثيراً لأنهم خدموا طويلا فى الحرس الوطنى ، وأنا مدينة لهم بالشىء الكثير كما يشهد بذلك أهل مدينة بطرسبرج على بكرة أبيهم .

وهيئت عقول الحرس لهذا العمل ، وأُشرك ثلاثون أو أربعون من الضباط فى المؤامرة ، كما أشرك فيها نحو عشرة آلاف جندى . وظل السر مكتوما ثلاثة أسابيع لأن المتآمرين كانوا يؤلفون أربع فرق منفصلة ، اتفقت كلمة رؤسائها على تنفيذ الخطة المرسومة ، غير أن تفاصيلها ظلت كلها مكتومة إلا عن الأخوة الثلاثة . وكان پانين[٤] يرغب فى أن يكون العمل لمصلحة ولدى ، ولكن أخويه لم يوافقاه على ذلك .

وكنت أنا فى پيترهوف[٥] ، أما بيتر فكان يقيم فى أورانينبوم حيث يقضى وقته فى السكر ، واتفقنا على ألا ننتظر عودته منها إذا عرف السر ، بل نجمع الحرس الوطنى ونعلن جلوسى على العرش . وكان يظن أن حماسة الحرس كفيلة بأن تقضى على أثر كل خيانة .

وذاع بين الجند فى السابع والعشرين أنه قد قبض علىّ فأثارت هذه الإشاعة ثائرتهم ، ولكن واحدا من ضباطنا هدأ ثورتهم ، ثم جاء جندى إلى ضابط يدعى پاسك[٦] وهو رئيس الفرقة وأخبره أنى لم يبق لى أقل أمل ، وأكد له أن لديه أنباء عنى . ثم ذهب هذا الجندى نفسه وهو لا يزال قلقا مضطرب الفكر ، وأفضى إلى ضابط آخر بنفس الخبر . ولم

---

(١) Anna — (٢) Oranienbaum — (٣) Osten

(٤) Panin — (٥) Peterhof — (٦) Passek

يكن هذا الضابط الثانى ممن يعرفون سر المؤامرة ، فدهش حين سمع أن ضابطا سمح لهذا الجندى بالانصراف ، ولم يقبض عليه ، وذهب هذا الضابط الثانى إلى رئيسه الأعلى ، وأمر هـذا بالقبض على پاسك . وفى ذلك الوقت بدأ الجنود كلهم عملهم ، وأرسل الخبر فى أثناء الليل إلى أورنينبوم ، وحزن أصدقائى الأخصاء أشد الحزن لهذه الأنباء ، وأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا ثانى أبناء أورلوف ليأتى بى إلى المدينـة . وأخذ الأخوان الآخران يتنقلان فى كل مكان ، ويشيعان أنى سأحضر بعد قليل ...... وفى الساعة السادسة من صباح اليوم الثامن والعشرين كنت مستغرقة فى النوم بعد أن قضيت يوما مضطربا ، فقد كنت أعرف ما يدبر فى الخفاء ، إذ دخل حجرتى ألـكسى أورلوف وقال وهو فى غاية ما يكون من الهدوء : « لقد حان الوقت لأن تستيقظى ، فقد أعد كل شىء للمناداة بك إمبراطورة » . وسمعت هـذا القول فلم أتردد لحظة واحدة بل ارتديت ملابسى بأسرع ما أستطيع ، وخرجت دون أن أتزين ، وركبت العربة التى أعدها لى ، وكان يقف عند بابها ضابط آخر فى زى تابع ، وجاء ضابط ثالث ليقابلنى على بعد بضعة أميال من بتروف . وعلى بعد خمسة أميال روسية[١] منها قابلنى أرلوف الأكبر نفسـه ومعه الأمير بريتنسكى الأصغر[٢] . وتخلى لى الأمير عن مكانه فى العربة لأن خيلى كانت مجهدة . وسارت بنا العربة إلى مقر فرقة إسماعيلوفسكى[٣] ثم نزلنا . ولم يكن فيها إلا إثنا عشر رجلا ومعهم طبال ، فلما رآنا ضرب طبله فجاء الجند وعانقونى وقبلوا قدمى ويدى وملابسى ، ونادوا أنى منقذتهم ، وأمسك اثنان منهم بيدى قسيس يحمل صليباً وجاءا به إلىّ ، وبدأوا كلهم يقسمون يمين الولاء لى ، ولما فرغوا من هذا طُلب إلىّ أن أركب العربة ومشى أمامى القسيس ، ومعه الصليب ، وسرنا على هذا النحو إلى مقر فرقة سمينفسكى[٤] . ولما دنونا منها أقبل الجند علينا وهم يهتفون لى هتافا شق عنان السماء ، ثم سرنا إلى كنيسة قازان[٥] ، ولما وصلناها نزلنا من العربة .

وأقبلت علينا فرقة بريوبرشينسكى[٦] محيية وقال جنودها : « نرجو أن تقبلى معذرتنا إذ كنا آخر من جاء لبيعتك ، فقد منعنا من المجىء ضباطنا ، وها نحن أولاء قد جئنا بأربعة

---

(١) الميل الروسى نحو ثلاثة أخماس الميل الإنجليزى
(٢) Bariatinsky
(٣) Izmailovsky
(٤) Semionovsky
(٥) Kazan
(٦) Preobrashensky

منهم مقبوضاً عليهم ، شاهداً على ولائنا الذى لايقل عن ولاء سائر زملائنا » . ثم جاء فرسان الحرس وكادوا يجنون من شدة الفرح ، ولم أر فى حياتى ما يماثل هذا المنظر ، فقد كان الجند يبكون و يبتهلون إلى الله أن يحرر أرض الوطن . . . . وكنت أعلم أنهم يكرهون عمى الذى نصبه بطرس الثالث رئيساً على الفرقة ، فأرسلت إليه من يرجوه البقاء فى منزله حتى لا يصيبه سوء . ولـكن الأمور سارت على غير ما أشتهى ، فقد بعثت فرقته سرية منها لتقبض عليه . ونهب الجند بيته وأساءوا معاملته ، وذهبت من فورى إلى قصر الشتاء الجديد حيث كان مجلس الشيوخ والمجمع المقدس مجتمعين . وسرعان ما وضعت صيغة المنشور الذى يذاع على الشعب ، و يمين الولاء التى يقسمونها ، ثم طفت أنا بالجند مشيا على قدمى ، وكانوا يبلغون أر بعة عشر ألفا من الحرس الوطنى والمشاة . وما كادوا يبصروننى حتى هتفوا لى هتافا شق أجواز الفضاء ، واشترك معهم فى الهتاف عدد كبير من عامة الشعب . ثم انتقلت إلى قصر الشتاء القديم لأتخذ ما يلزم من التدابير ، وهناك عقدنا مجلساً اتفقنا فيه على أن أسير أنا على رأس الأعضاء إلى بتروف حيث كان ينتظر أن يتغدى بطرس الثالث ، وأعدت الجياد فى محطات متفرقة على طول الطريق ، وكان الحراس الذين فيها يأتوننا بالجواسيس من حين إلى حين .

وأرسلت أمير البحر تليزن[١] إلى كرنستاد ، ثم قدم فرنتسوف[٢] ، وكان قد أرسل إلىّ ليلومنى على فرارى . وقد جىء به إلى الـكنيسـة ليقسم لى يمين الولاء ، ثم جىء بالأمير ترو بتسكى[٣] والـكونت شوفالوف[٤] من بيترهوف ، وقد جاءا إليها ليتأكدا من ولاء الجند لبطرس وليقتلانى . واقتيد الرجلان إلى الـكنيسة من غير أن يصيبهما أذى وأقسما هما أيضاً يمين الولاء .

و بعد أن أرسلنا جميع الرسـل يحملون البشائر إلى حيث يجب إرسالها ، واتخذنا جميع ما يجب أن نتخذه من التدابير ، ارتديت حلة الحرس فى الساعة العاشرة مساء بعد أن خلع علىّ لقب ضابط فيه وسط مظاهر من السرور لا يستطاع وصفها . وركبت جوادى بعد أن تركت ورائى عددا منهم اختيروا من فرقه المختلفة لحماية وولدى الذى بقى فى المدينة ، وركبت

---

(١) Talyzin
(٢) Vorontsov
(٣) Troubetsky
(٤) Shuvalov

أنا على رأس الجند ، وسرنا طول الليل إلى بيترهوف .

ووصلنا فى طريقنا إلى دير صغير أقبل علينا عنده جلستين[١] نائب وزير المالية ومعه رسالة من بطرس يظهر فيها خضوعه التام ...... ووصلتنا بعد هذه الرسالة الأولى رسالة ثانية حملها القائد إسماعيلوف . ولما أقبل ركع أمامى وقال : « هل تعدينني رجلا شريفاً ؟ » فأجبته « نعم » فقال : « إنى يسرنى أن أكون فى صف الشجعان الأبطال . إن الإمبراطور يعرض عليك أن ينزل عن العرش ، وسآتى به أنا إلى هذا المكان بعد أن يتم نزوله عنه باختياره . وبهذه الطريقة السهلة ، أنقذ وطنى من كارثة الحرب الأهلية » . وعهدت إليه أن يقوم بهذه المهمة فعاد من فوره لتنفيذها . وأعلن بطرس الثالث فعلا نزوله عن العرش فى أورنيينبوم بكامل حريته ، ومن حوله ١٥٩٠ من جنود هولستين . وجاء هو وإلزبث ڤرنتسوڤا وجودوفتش[٢] وإسماعيلوف إلى بيترهوف ، حيث أعطيته ستة ضباط وعددا من الجند لحراسته .

وكنا وقتئذ فى ساعة الظهر من اليوم التاسع والعشرين وهو يوم القديس بطرس ، وقد آن أوان الغداء . وبينا كان الطعام يعد للحاضرين وهم كثيرون ، ظن الجند أن المرشال الأمير تروبتسكى قد جاء ببطرس الثالث ليعقد الصلح بينى وبينه ، وأخبروا كل من رأوه ... أنهم لم يرونى منذ ثلاث ساعات ، وأنهم يكادون يقضون من شدة الخوف لئلا يكون تروبتسكى اللعين قد أراد بى شرا ، وأنه « يسعى ليعقد صلحا مزيفاً بينك وبين زوجك ثم يقضى علينا كلنا القضاء المبرم ، ولكننا سنمزقه إربا » . هكذا قالوا هم ، أما أنا فقد ذهبت إلى تروبتسكى وقلت له : « أرجوك أن تركب عربتك ، وسأطوف أنا بالجند مشياً على قدمى » . ثم أخبرته بما هو حادث فارتاع أشد الارتياع وانتقل من فوره إلى المدينة واستقبلنى الجند بسرور لم يسمع بمثله من قبل .

ثم أرسل العاهل المخلوع إلى مكان ناء جميل يدعى رپشا[٣] على بعد خمسة وعشرين ميلا روسيا من بطرسبرج . وكان يحرسه فى ذهابه ألكسى أرلوف وأربعة من الضباط وعدد من

---

(١) Golistin

(٢) Gudovich

(٣) Ropsha

الأهلين المسالمين ، اخترتهم لهذا الغرض . وأعد له فى هذه الأثناء مسكن جميل يليق بمقامه فى شلوسلبرج ، وكان لدينا من الوقت ما يسمح بإعداد ما يلزم من الخيل فى المحطات الواقعة على الطريق .

ولـكن الله سبحانه وتعالى قدر غير هذا ، فقد سبب له اضطرابه إسهالا شديداً دام ثلاثة أيام ، ولم ينقطع فى اليوم الرابع ، ثم أ كثر من الشراب فى ذلك اليوم لأنا لم نمنع عنه شيئاً إلا حريته ، (وكان قد طلب عشيقته وكلبه وعبده الأسود وكمانه ، ولـكنى أردت أن أقطع ألسنة السوء عن الاستطالة فى عرضه فلم أجبه إلا لمطالبه الثلاثة الأخيرة) . ثم أصيب بمغص مصحوب بنزيف شديد وحمى وهذيان ، وظل على هذه الحال يومين كاملين أعقبهما ضعف شديد ، ولم يفده كل ما بذل الطب له من عناية فقضى نحبه بعد أن طلب أن يوفد إليه قسيس لوثرى . وخشيت أن يكون الجند قد سموه فأمرت بتشريح جثته فلم ير فيها أقل أثر للسم ، بل كانت معدته سليمة ، وتبين أن الذى قضى عليه هو التهاب فى الأمعاء وسكتة مخية . غير أن قلبه كان صغيراً جداً وضامراً .

و بعد انتقال بطرس من بيترهوف أشير علىّ بالذهاب فوراً إلى تلك المدينـة ، ولـكنى أدركت أن الجند سيزعجهم هذا الانتقال الفجائى فرأيت أن أشيع الخبر بينهم أولا ، بحجة أنى أريد أن أعرف متى يكونون مستعدين للانتقال إليها بعد متاعب الأيام الثلاثة المـاضية . فـكان جوابهم : «حوالى الساعة العاشرة مساء على أن تكونى أنت معنا» . وسرت معهم فعلا ، وفى منتصف الطريق عرجت على بيت كوراكين[1] الريفى حيث ألقيت نفسى على السرير بكامل ملابسى ، وجاء أحد الضباط لخلع نعلى ، ونمت بحالتى هذه ساعتين ونصف ساعة واصلنا بعـدها السير . واجتزنا كترينهوف[2] . ثم ركبت بعدها على رأس فرقة بريوبرشنسكى . وكانت تتقدمنا فرقة من الفرسان الخفيفة ، ومن ورائها الحرس الخاص المختار من فرسان الحرس الوطنى ، وأمامى مباشرة رجال بلاطى . وجاءت من خلفى فرق الحرس الوطنى حسب مراتبها العسكرية ومن خلفها كلها ثلاث فرق من الجيش .

ودخلت المدينة وسط مظاهر السرور التى لا آخر لهـا ، ثم دخلت القصر الصيفى ،

---

(١) Kurakin

(٢) Catherinenhof

حيث كان فى انتظارى رجال الحاشـية والمجمع المقدس وابنى وجميع من تخولهم مراتبهم أن يستقبلونى . وذهبت من فورى لأداء صلاة الشكر ، ثم جلست أستقبل المهنئين . ولما كنت قد قضيت ثلاثة أيام كاملة من صباح يوم الجمعـة إلى مساء الأحد من غير طعام أو شراب أو نوم إلا قليلا ، فقد آويت إلى الفراش واستغرقت فى النوم ، ولـكنى لم أنم إلا قليلا ، إذ جاء إلى حجرتى فى منتصف الليل الضابط پسلك من فرقة الفرسان الخفيفة ، وأيقظنى من نومى وهو يقول : « إن الشعب هائج وإن جنديا من فرقتى أخذ يطوف أنحـاء المدينة وهو ينادى خذوا أسلحتـكم ! إن ثلاثين ألفا من البروسيين قد أقبلوا يريدون أن يختطفوا أمنا . وسمع الجند هذا فاختطفوا أسلحتهم ، وهم يسيرون فى هذه الساعة إلى هنـا ليتأكدوا من سلامتك ، وهم يقولون إنهم لم يروك منذ ثلاث ساعات ، ولـكنى أعتقد أنهم سيعودون إلى أماكنهم فى هدوء إذا رأوك سالمة . إنهم لا يصغون إلى أقوال ضباطهم ، ولا إلى آل أرلوف » . فلما سمعت هذا القول لم أر بدا من القيام من فراشى ، وخشيت أن أزعج حراسى بلا سبب ، وكانوا يبلغون فرقة كاملة ، فذهبت إليهم أولا وأفضيت إليهـم بسبب خروجى فى تلك الساعة ، ثم ركبت عربتى ومعى اثنان من الضباط ، وسرت إلى حيث كان الجند مجتمعين ، وناديت فيهم أنى بخير ، وأن عليهم أن يذهبوا إلى مضاجعهم ويتركونى كى أنام لأنى لم أنم فى هذه الليلة إلا قليلا بعد سهر دام ثلاث ليال متوالية . وطلبت إليهم أن يكونوا فى المسـتقبل أكثر طاعة لأوامر ضباطهم ، فأجابوا بأن سبب انتشار الخبر بينهم هو وجود أولئك البروسيين الملعونين ، وأنهم كلهم مستعدون لأن يفتدونى بأرواحهم ، فشكرتهم وطلبت إليهم أن يذهبوا إلى مضاجعهم » ، فقالوا : « عمى مساء » ودعوا لى بدوام الصحة وانصرفوا وادعين . وكثيراً ما كانوا وهم سائرون يلتفتون إلى خلفهم ليروا عربتى قبل أن تختفى عن أعينهم .

وجاءوا فى اليوم التالى يعتذرون إلىّ ويأسفون لأنهم أيقظونى من نومى ، وقالوا : « لو أننا كلنا أردنا أن نراك طول النهار والليل لأضر هـذا بصحتك ، وحال بينك وبين تصريف شئون الدولة » .

هذا ما فعله الجند أما الزعماء فلو أردت أن أصف موقفهم جميعاً لتطلب ذلك مجلداً كاملا . . . .

وحسبي أن أقول إن الأميرة دشكوفا[١] وهي أصغر من أختي إلزبث ڤرنتشوفا[٢] تريد أن تعزو لنفسها كل الفضل فيما حدث ، لأنها كانت تعرف طائفة قليلة من الزعماء ، ولكن صلاتها العائلية وصغر سنها — فهي لا تزيد على التاسعة عشرة من عمرها — قد أساءا إلى سمعتها ، فلم يكن أحد يثق بها . وهي مع ذلك كانت تصر على أنها هي السبب في كل ما عاد عليّ من خير . والحقيقة أن جميع المتآمرين كانوا على اتصال بي ستة أشهر كاملة قبل أن تعرف هي أسماءهم . ولست أنكر أنها جمة النشاط ، ولكنها رغم نشاطها سيئة السلوك ، وليس من زعمائنا من يحبها . ومن أجل ذلك لم يفض إليها أحد بما يعرفه إلا ضعاف الرأي ، وحتى هؤلاء لم يفضوا إليها إلا بنتف من الأخبار الصغيرة ، غير أن ا . ا . شوڤالوف[٣] ، وهو أسفل خلق الله طرا ، وأسوأهم سمعة ، قد كتب على ما يظهر إلى ڤلتير يبلغه أن امرأة في التاسعة عشرة من عمرها قد قلبت حكومة هذه البلاد . ورجائي إليك أن تصحح ما وصل من الأخبار إلى هذا المؤلف . لقد كان علينا أن نخفي عن الأميرة كيف كان الزعماء يتصلون بي ، فلم تعرف أقل شيء عن المؤامرة إلا بعد خمسة أشهر من بدايتها ، ولم يصلها عنها في الأربعة الأسابيع الأخيرة إلا أقل الأخبار وأصغرها شأنا . . . .

تلك هي قصتنا بوجه التقريب . ولست أخفي عنك أن كل شيء قد تم بإرشادي وتوجيهي ، وأني قبيل انتهاء المؤامرة قد صببت الماء على النار ، لأن سفرنا إلى الريف حال دون تنفيذ الخطة المرسومة بحذافيرها ، بعد أن ظلت أسبابها كلها مهيأة أسبوعين كاملين . ولما سمع الإمبراطور السابق بنشوب الثورة في المدينة منعته الفتيات اللاتي يؤلفن حاشيته أن يستمع إلى نصيحة المارشال ميونخ[٤] ، وقد نصحنه بأن يلجأ إلى كرنستاد[٥] أو يلقي بنفسه بين أحضان الجيش مع طائفة من الحرس صغيرة العدد . وذلك أن الإمبراطور حين ذهب إلى كرنستاد في سفينة صغيرة كانت المدينة قد وقعت في أيدينا بفضل ما قام به أمير البحر تليزن[٦] من إجراء حاسم سريع . فقد وصل تليزن إلى المدينة في الوقت المناسب وجرد القائد دڤيير[٧] من سلاحه . وكان دڤيير قد أرسل إليها من قبل الإمبراطور ، فلما جاء بيتر

---

(١) Dashkova
(٢) Elizabeth Vorontoshova
(٣) I.I. Shovalov
(٤) Münnich
(٥) Kronstadt
(٦) Talyzin
(٧) Devier

أنذره أحد ضباط الميناء من تلقاء نفسه بإطلاق النار عليه إذا همّ بالنزول إليها . وأراد الله سبحانه وتعالى أن يتم كل شيء على ما كنا نرغب ، وذلك لأن اجتماع هــذه الظروف الحسنة لم يكن ليحدث لولا إرادة الله وتدبيره .

ولقد وصلتنى رسالتك ، غير أن تبادل الرسائل بيننا على الدوام يعرضنا لأخطار لا عداد لها ، ولهذا فإنى مضطرة إلى أن أتخذ عشرات الآلاف من الاحتياطات . هذا إلى أنى لا أجد من وقتى ما يسمح لى بقراءة رسائل الحب الخطرة .

إن ظروفا شديدة تحيط بى . . . . وليس فى وسعى أن أخبرك بها كلها ، ولـكنها ظروف حقة لا شك فيها .

وسأفعل كل شيء لك ولأسرتك ، فلا تشك قط فى هذا !

إنى مضطرة إلى التقيد بآلاف من المجاملات ، ومراعاة آلاف من الاعتبارات ، فضلا عما أنوء به من أعباء العمل الحـكومى . واعلم جيداً أن أساس ما حدث كله هو كره الأجانب ، وأن بطرس الثالث نفسه يعد أجنبيا .

والآن أستودعك الله . إن فى العالم حظوظا غريبة كل الغرابة .

* * *

ووفت كترين بوعدها للـكونت پنياتوسكى بعد عامين من هذا الانقلاب السياسى . ذلك أنه لما مات ملك پولندة طُلب إلى الشعب أن يختار له ملـكا جديداً . وكان نظام الحـكم فيها يقضى بأن يختار البولنديون ملـكهم ، وهو نظام طالما أدّى إلى تدخل الدول الطامعة فيها فى شئونها ، وتأييدها من ينتمون إليها من المرشحين للملـكية . وكان الجيش الروسى وقت هــذا الانتخاب يحتل جزءاً من أرضها كما كانت الحـكومة البولندية خاضعة للروسيا من جهة ولحليفتها پروسيا من جهة أخرى . واختير پنياتوسكى ملـكا على پولندة طوعا لأمر كترين ، فجلس على العرش باسم استانسلوس الثانى ، وكان هو آخر ملوك هذه البلاد البائسة .

و بعــد عشر سنين من ذلك الوقت زحفت الجيوش الروسية على پولندة بأمر كترين نفسها ، واقتطعت جزءاً كبيراً منها ضمته إلى بلادها . وفى عهدها قسمت پولندة بين روسيا

و بروسيا والنمسا ، ولقى بنياتوسكى أعظم مذلة على يدى حبيبته السابقة . وفى عام ١٧٩٥ أشارت كترين قبل موتهـا بعام واحد على بنياتوسكى أن يعتزل الملك ، فرأى أن من الحكمة أن يستمع إلى هذه النصيحة .

ولما أطاحت الثورة الفرنسية برأس لويس السادس عشر تغيرت أخلاق كترين ، ففقدت حبها لتقدم العلوم ، أو بعبارة أصح تبدل اهتمامها الظاهر بالعلوم كرها شديداً لها . وأصبحت كترين التى كانت تتبادل الرسائل مع ڤلتير وجرم[1] ، والتى كانت لها اليد الطولى على ديدرو[2] ، أصبحت كترين هذه حربا على كل تفكير حر ، ورأت أن من واجبها أن تطهر روسيا من الأفكار التى أوقعت فرنسا فيما وقعت فيه من بلاء . ذلك أن ما كان يذيعه عنها الكتاب الفرنسيون المأجورون من حب الخير وعمل له قد نشر عنها ما كانت تريده لنفسها من دعاوة فى غرب أوربا .. أما الآن فقد رأت أن ثمن هذه الدعاوة أكبر مما تستطيع أداءه ، ولذلك بذلت كل ما تستطيع من جهد فى حروبها «المستنيرة» مع السويد وتركيا و بولندة لتقضى على ما كان فيها من تفكير حر رأت أنه أشد ما يكون خطراً عليها .

وماتت كترين بالسكتة المخية فى السابعة والستين من عمرها ، وهى تعيش مع آخر عاشق من عشاقها ، وتعد العدة لحرب جديدة على بلاد الفرس . ووسعت كترين فى حياتها رقعة بلادها وضيقت على شعبها أشد التضييق .

---

(١) Grimm

(٢) Diderot

لافيت يصف أمريكا بعد نزوله فيها

[رسالته إلى زوجته]

لم يكن لافيت جنديا أو سياسيا عظيما ، ولـكنه كان يحب الحرية ، وظل طوال حياته وفيا للمثل العليا التى أدت إلى إنشاء الولايات المتحدة الأميريكية ، وأثبت فى ثورات ثلاث — حرب الاستقلال الأميريكية والثورة الفرنسية الـكبرى وثورة عام ١٨٣٠ — أن فى مقدورالرجل السرى المؤثر أن يكون فى الصف الأول من دعاة الرقى والحرية .

وقد ورث ماري جوزف بول إيف روس جلبرت دوموتيه ، ماركيز ده لافيت[١] ، فى الثالثة عشرة من عمره ثروة طائلة . ولما بلغ التاسعة عشرة وكان ضابطا فى فرقة الفرسان شبت نار الثورة الأميركية . وكان هو يعطف على قضية الأمريكيين منذ البداية ، واستطاع وهو فى فرنسا أن يحصل على رتبة ضابط فى الجيش الأمريكى بمساعدة سيلاس دين[٢] وكيل أمريكا فى فرنسا ، وأخذ من ذلك الحين يعد العدة للرحيل ويجمع حوله الرفاق والأنصار . ولـكن أصدقاءه أشاروا عليه بعدم التورط فى هذا العمل ، وحتى بنجمين فرنكلن نفسه الذى أصبح وزير أمريكا فى فرنسا بدل دين حاول أن يثنيه عن عزمه . ثم أمره لويس الخامس عشر آخر الأمر ألا يغادر أرض فرنسا .

ولـكن ذلك لم يثن من عزيمة لا فيت ، فأعد لنفسه سفينة واستعد للرحيل ، غير أن سفينته صودرت بناء على طلب من وزير إنجلترا المفوض فى فرساى ، وقبض على لافيت ؛ ثم تمكن أصدقاؤه من سرقة السفينة من الميناء الفرنسى الذى حجزت فيه ووضعها فى ثغر أسبانى قريب ، واستطاع لافيت أن يفلت من حراسه ويفر إلى أسبانيا ويسافر إلى أمريكا مع أحد عشر رجلا من رفاقه .

وكانت رحـلة لافيت وهؤلاء الرفقاء شاقة وخطرة دامت شهرين كان يتعقبهم فيها طرادان بريطانيان ، لـكنهم أفلحوا أخيرا فى النزول فى كارولينا الجنوبية[٣] ، وكان أول

---

(١) Marie Joseph Paul Yves Roch Gillert du Motier Marquise de Lafayette.

(٢) Silas Deane

(٣) South Carolina

ما فكر فيه بعد نزوله إلى البر أبناءه وزوجته مارى أدرين ده نواى[1] (وكان قد تزوجها وهو فى السادسة عشرة من عمره). وخشى أن تكون رسالته الأولى قد وقعت فى أيدى الإنجليز فكتب إليها الرسالة الثانية التالية :

— ٥٢ —

« .... ليس فى أمريكا فقراء .... »

شارلستون فى ١٩ يونية سنة ١٧٧٧

أبلغتك يا حبيبتى فى رسالتى الأولى أنى وصلت سالما إلى هذه البلاد بعد أن قاسيت بعض المشاق من جراء دوار البحر فى أثناء الأسابيع الأولى من الرحلة ، وقلت لك إنى كنت وقت كتابتها ، أى فى صباح أول يوم بعد نزولى إلى البر ، فى بيت ضابط ظريف ، وإن الرحلة استغرقت شهرين ، وإنى طلبت أن أسافر من الميناء الذى نزلت فيه على الفور .

وقد حدثتك فى تلك الرسالة عن كل شىء عزيز لدى ، عن أسفى على فراقك ، وعن أطفالنا الأعزاء ، وقلت فيها فضلا عن هذا إنى فى أحسن صحة . وقد أردت أن أذكر خلاصتها فى هذه الرسالة الثانية لأنى ظننت أن الإنجليز ربما أرادوا أن يسلوا أنفسهم بمصادرة تلك الرسالة وهى فى طريقها إليك ، وإن كان حسن طالعى يبعث فىّ كبير الأمل فى أنها ستصلك .

ولقد لازمنى حسن طالعى هذا من أول الأمر ، ودهش الناس كلهم لذلك ، فثقى أنت أيضاً بهذا ، وما من شك فى أن ثقتك هذه ستبدد كل مخاوفك .

لقد نزلت إلى البر بعد أن ظلت سفينتنا تسير عدة أيام بجوار شاطئ غاص بالسفن الحربية المعادية . وكان كل إنسان حين وصلت إلى الشاطئ يعتقد أن سفينتنا سيقبض عليها لأن طرادتين بريطانيتين كانتا تقفان فى مدخل الميناء .

بل لقد بلغ من شأنى أنى أرسلت أمرا إلى قائد السفينة أن يُنزل الرجال إلى البر ، وأن يحرقها هى إذا كان لا يزال فى الوقت متسع لهذا العمل . ولكن حدث لحسن الحظ أن هبت عاصفة شديدة دفعت المراكب المعادية إلى عرض البحر فترة من الزمن ، فدخلت سفينتى الميناء وقت الظهر من غير أن تصادف عدوا أو صديقا .

---

(١) Marie Adrienne de Noailles

وقابلت فى شارلستون القائد هاو[١] وهو ضابط أمريكى يعمل الآن فى الجيش ، ونحن فى انتظار حاكم الولاية الذى سيصل من الريف فى هذا المساء . وقد أظهر لى كل من أردت معرفته هنا أعظم ضروب الأدب والعناية ، واستقبلت استقبالا لا أرجو أحسن منه ، وإن كنت قد رأيت ألا أدخل مع مستقبلىَّ فى تفاصيل الخطة التى أريد أن أسير عليها ، لأنى أحب أن أزور مجلس الأمة الأمريكى أولا ، وأرجو أن أستطيع السفر إلى فلدلفيا[٢] بعد يومين . والطريق إليها برا يبلغ طوله مائتين وخمسين فرسخا ، وسنقسم أنفسنا جماعات صغيرة ، وقد اشتريت فعلا جياداً وعربات خفيفة لتنقلنا إليها . وفى هذا الميناء سفن فرنسية وأمريكية تريد أن تنتهز فرصة بعد المراكب الحربية المعادية لنسافر عليها جميعاً غدا ، وكلها مسلحة ، وقد وعدنى من فيها أن يقاوموا أشد المقاومة ما يصادفونه من القوارب الحربية الصغيرة التى يملكها أفراد من الأعداء . وسأوزع رسائلى على السفن المختلفة .

وسأحدثك الآن عن هذا البلد وعن ساكنيه . لقد وجدتهم ظرفاء لا يقلون فى ذلك عن الصورة التى رسمتها لهم فى مخيلتى فى أوقات حماستى . وقد جمعوا بين بساطة العادات وبين رقة الحاشية وحب الوطن والحرية والمساواة التامة التى تسودهم فى كل مكان ، فهنا لا فرق مطلقا بين أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء ، وإنى لأتحدى أى إنسان أن يجد أقل فرق بين معاملة أفراد كلتا الطبقتين للأخرى ؛ وإن كان منهم من لهم ثروات طائلة . ولقد رأيت الحياة الريفية لأول مرة فى بيت الضابط هاو . أما الآن فأنا فى المدينة حيث لا تفترق الحياة عن مثلها فى المدن الإنجليزية ، وكل ما هنالك من الفرق أنها هنا أكثر بساطة ومساواة وحبا ورقة منها فى إنجلترا . ومدينة شارلستون من أجمل المدن وأحسنها بناء ، وأهلها من أظرف من رأيت فى حياتى ، والنساء الأمريكيات غاية فى الجمال ، بسيطات فى عاداتهن ، أنيقات ؛ وهن أشد حرصاً من الإنجليزيات أنفسهن على أن تبدو هذه الأناقة فى كل شى وفى كل مكان . وأشد ما يسرنى فى أمريكا أن الناس كلهم إخوان ، إذ ليس فى هذه البلاد فقراء ، بل إنى أستطيع أن أقول إنه ليس فيها من نسميهم الفلاحين الأجراء ، فلكل شخص هنا أملاكه الخاصة وحقوقه التى لا تختلف فى شىء عن حقوق أكبر الملاك . والفنادق هنا تختلف عن مثيلاتها فى أوربا . فصاحب الفندق وصاحبته يجلسان معك إلى المائدة ويشاركانك فى الطعام الممتع ،

---

(١) Howe

(٢) Philadelphia

وحين تغادرين المكان تدفعين ما عليك دون مساومة . فإذا أراد الإنسان ألا يذهب إلى فندق ففى الريف بيوت يكفى أن يذكر الإنسان فيها أنه أمريكى صالح ليلقى من الأدب والرعاية ما يلقاه الصديق من صديقه فى أوربا .

ولقد استقبلت أحسن استقبال حيثما حللت ، وكان يكفى أن يعرفوا أن شخصاً ما من رفاقى ليرحبوا به أحسن ترحيب . ولقد فرغت توا من حفلة عشاء كبرى أقامها واحد من أهل المدينة تكريما لى ، حضرها القائدان هاو ومولترى[1] و بعض الضباط الذين يرافقوننى ، وقد شربنا الأنخاب وحاولنا أن نتكلم بالإنجليزية ، التى بدأت أعرف منها الشىء القليل ، وسأذهب غدا مع هذين السيدين لزيارة حاكم الولاية وأعد العدة لسفرى ، وسأطوف بعد غد فى هذه المدينة وضواحيها ثم أسير بعدئذ للانضمام إلى الجيش .

وقد تظنين أنى الآن جد سعيد بفضل تلك الحياة السارة التى أحياها فى هذا البلد ، و بفضل ما بينى و بين أهله من عطف متبادل يجعلنى أشعر فى حضرتهم بالراحة والاطمئنان كأنى قد قضيت بينهم عشرين عاما كاملة ، و بفضل ما أجده بين تفكيرى وتفكيرهم من تماثل تام ، و بفضل حبى للمجد والحرية . ولكنك لست معى ، وليس أصدقائى معى ، ولست أشعر بالسعادة وأنا بعيد عنك وعنهم . ولقد سألتك هل لا تزالين تحبيننى ، ولكنى كثيراً ما سألت نفسى هذا السؤال عينه ، وكان قلبى يجيبنى فى كل مرة « نعم » ! وأنا الآن أشد ما أكون لهفة على سماع أخبارك ، وأرجو أن أجد منك رسائل تنتظرنى فى فلدلفيا . وكل الذى أخشاه أن يقبض على السفينة التى تحمل هذه الرسائل وهى فى طريقها إلى هنا . على أنى و إن كنت قد أغضبت الإنجليز بسفرى إلى هذا البلد على الرغم منهم ، فإنى أعتقد أن هذه الرسائل لن يتأخر وصولها إلىّ . فاكتبى إلىّ كثيراً ، وأطيلى رسائلك ، فأنت لا تعرفين ما يملأ نفسى من غبطة حين أتلقى هذه الرسائل . عانقى هنريت[2] ، آه ليتنى أستطيع معانقة أطفالنا . إن والد هؤلاء الأطفال سائح جوّال ، ولكنه رجل شريف النفس طيب القلب ، وهو أب صالح يحب أسرته أعظم الحب ، وزوج صالح يحب زوجته من كل قلبه .

بلغى تحياتى إلى أصدقائك وأصدقائى ، و إلى الرفاق الأعزاء الذين كانوا فى يوم من الأيام رفاقنا فى البلاط .

---

(١) Moultrie

(٢) Henriette

. . . . . . والآن لا بد لى أن أختم رسالتى لأنى يعوزنى الورق والوقت ، وإذا لم أكرر فى رسالتى عشرة آلاف مرة قولى إنى أحبك ، فليس ذلك لنقص فى هذا الحب ، بل منشأه تواضعى ، لأن فى مقدورى أن أقول إنى قد أقنعتك قبل الآن بهذا الحب . لقد مضى من الليل أكثره ، والحر الآن شديد لا يطاق ، والحشرات تلتهمنى التهاماً ، فأنت ترين إذن أن خير البلاد لا تخلو من السيئات . أستودعك الله .

لافيت

* * *

وسافر لافيت من كارولينا الجنوبية إلى فلدلفيا حيث كان مجلس الأمة الأمريكى مجتمعاً ، وعجب رجال المجلس أشد العجب من هذا الضابط الذى لم يتجاوز التاسعة عشرة ، وأصر لافيت على أن يعمل متطوعا من غير أجر ، وأصدر المجلس قراراً بتثبيته فى رتبته .

ولم يضطلع لافيت بعمل بارز فى ميدان القتال ، ولكنه أفاد الجمهورية الناشئة فوائد أخرى عظيمة الأثر ، فقد عاد فى عام ١٧٧٩ إلى فرنسا على رأس بعثة تطلب العون الدائم من تلك البلاد ، ونجح فى بعثته هذه أعظم نجاح . وعاد بعد ستة أشهر من فرنسا إلى أمريكا ومعه الجنود والمؤن والمال والكونت ده روشمبو[١] . وعينه صديقه واشنجتن قائداً لفرقة تدافع عن ولاية فرچينيا ، فهيأ له بذلك أن يشترك فى موقعة «يوركتون»[٢] التى انتهت بتسليم القائد الإنجليزى «كورنولس»[٣] وختام الحرب .

ولما زار لافيت أمريكا آخر مرة فى عام ١٨٢٤ ، وكانت حوادث الثورة الفرنسية قد هدت قواه ، ولم يكن كما كان من قبل واسع الثراء ، منحه مجلس الأمة مائتى ألف ريال أمريكى وأراضى واسعة . وفى هذه الزيارة جدد صلاته بأصدقائه القدماء ، ورحل إلى منتسلو[٤] حيث زار صديقه الشيخ جفرسن[٥] ، وقضى أكثر من سنة يتنقل فى أنحاء الجمهورية الفتية ، ثم عاد بعدئذ إلى فرنسا فى الثامنة والستين من عمره ليقضى بقية حياته فى هدوء . غير أن ثورة أخرى قامت بعد خمس سنين من ذلك الوقت ودفعته إلى العمل فى خدمة الحرية .

---

(١) Comte de Rochambeau (٢) Yorktown
(٣) Cornwallis (٤) Monticello
(٥) Jefferson

ألكسندر هملتن ينعى على مجلس الأمة الأمريكى

ما وصل إليه من انحطاط

[رسالته إلى چورچ واشنجتن]

وقف على طوار أحد الشوارع فى مدينة نيويورك شاب فى السابعة عشرة من عمره ، قدم من جزائر الهند الغربية ، وأخذ يلقى على المجتمعين خطبة حماسية أثارتهم على المظالم التى يعانونها على يد بريطانيا . وبعد قليل من ذلك الوقت كتب هذا الشاب عينه وهو طالب فى كلية الملك (جامعة كولومبيا الحالية) منشورين سياسيين بلغ من إعجاب الأمريكيين بهما أن عزوهما إلى چون چاى[١] ، ثم أخذ بعدئذ يكتب فى الصحف عبارات هجائية لاذعة ، ومقالات سياسية منطقية هادئة . ولم يكد يبلغ الثامنة عشرة من عمره حتى ذاع صيته فى جميع المستعمرات الأمريكية .

كان ألكسندر هملتن[٢] قصير القامة ، نحيف الجسم ، أحمر الوجه ، جميل الطلعة . ولما قامت حرب الاستقلال انضم إلى الجيش الأمريكى وارتقى بعد وقت قصير إلى رتبة ضابط فى المدفعية . ثم أصبح فى عام ١٧٧٧ ياور چورچ واشنجتن وكاتب سره الخاص ، وصديقه الحميم ، يستشيره فى مهام الأمور ، ويكتب له معظم خطبه إن لم نقل كلها .

لكن هملتن لم ترضه أعمال مجلس الأمة الأمريكى ، فقد انقسم المجلس أحزاباً وشيعاً متنافسة ، وتملك أعضاءه الزهو ، وزادوا موقف الأمة البائسة سوءاً على سوء . وكان هملتن يرى أن الأمة فى حاجة إلى سلطة مركزية قوية تجتاز بها محنتها ، فكتب إلى واشنجتن الرسالة التالية :

---

(١) John Jay

(٢) Alexander Hamilton

— ٥٣ —

« . . . أى شىء أصاب أولئك الرجال العظام ؟ . »

فى ١٣ فبراير سنة ١٧٧٨

إن ثمة مسألة لا تبرح ماثلة أمامى ، وهى جديرة بأن يعنى بها كل من كان منا ذا رأى سديد وكلمة مسموعة ، وأقصد بها ما وصلت إليه حال مجلس الأمة الأمريكى العظيم من تدهور . إن من الحقائق المؤلمة التى نراها ونحس بها فى كل يوم أن هذه الهيئة تعوزها الحكمة التى كان يجب أن تتحلى بها ، والتى لا بد منها إذا أردنا لشئوننا نجاحا . لست أشك فى أن كثيرين من أعضاء المجلس خليقون من كل الوجوه بالأمانة التى يحملونها ، ولكن هذا لا ينطبق على هيئة المجلس كله . ذلك أن أعماله يغلب عليها الحمق والهوى وقلة التبصر والإدراك ، ولا تدل على الكرامة . ولست أخشى أن أقول إنك تحس بهذا كله ، وإن لم يكن لديك بقدر ما لدىّ من الفرص التى تمكنك من معرفة هذه الحقائق . إن مسلك هذا المجلس مع الجيش بنوع خاص لهو مسلك الضعف والتردد وسوء التدبير . ولقد أدّى بنا هذا إلى درجة من الخطورة فوق ما نتصور ، إن للأعضاء آراء فى الاقتصاد خاطئة ضعيفة منعتهم أن يزودوا ضباطه بالمرتبات التى تبعث فى نفوسهم الاهتمام بأعمالهم . وكانت نتيجة هذا التصرف أن سرت فى هؤلاء الضباط روح الإهمال وعدم الاكتراث ، فقضت على ما يجب أن يتحلوا به من صفات طيبة . وكثيراً ما جعلوا المحسوبية والزلفى اللتين لا تستندان إلى غير الهوى أساساً للترقى إلى الرتب العسكرية العليا ، فأثاروا بذلك ثائرة الجيش . ومما زاد الطين بلة أنهم أغدقوا هذه الرتب على الأجانب وعلى أحط الطبقات فى الجيش ، ولم يؤتوا من الشجاعة ما يستطيعون به أن يقفوا فى وجه المدعين الأجانب الذين لا ينقطعون عن الإلحاح واللجاجة والكبرياء الباطل . بل لقد أظهروا فى جميع تصرفاتهم من الانقياد والتردد ما أطمع فيهم كل أفاق حقير ، يتظاهر أمامهم بالكفاية الحربية والخبرة العسكرية . وهل تصدق يا سيدى أن من الأقوال التى جرت مجرى الأمثال على لسان الضباط الفرنسيين وغيرهم من الأجانب أنهم لا يعجزون عن الحصول على كل ما يرغبون فيه ، وأنهم يكفيهم لذلك أن يرفعوا عقيرتهم ويعلنوا ما لهم من كفاية ،

و يتظاهروا بالإصرار على طلبهم والثقة بأنهم لا يطلبون إلا ما لهم من حق ؟ تلك كلها أمور تجرح شعورى أنا الرجل الجمهورى إلى حد لا أستطيع التعبير عنه ، بل إنها لتسقطنى فى عين نفسى .

لقد كان لأمريكا هيئة نيابية تشرُف بمثلها أية أمة ويعتز بمثلها أى عصر ، أما الحال التى وصلنا إليها فهى حال مروعة تنذر بأعظم الأخطار . فما سبب هذا ؟ وكيف ننجو منه ؟ هاتان مسألتان لا بد من النظر فيهما والعناية ببحثهما إذا أردنا خيراً بهذه الولايات . ولست أدرى أى شىء أصاب أولئك الرجال العظام الذين ألفوا أول مجلس فى هذه البلاد ؟ هل ماتوا ، أو خذلوا قضية الوطن ، أو أصابهم شىء غير هذا وذاك ؟ فأما الذين ماتوا فهم قليلون ، وأقل منهم من خذلوا قضية الوطن . وأما الباقون غير القلة التى لا تزال فى مجلس الأمة فبعضهم فى ميدان القتال ، ومعظمهم يشغلون مناصب مدنية كل طائفة منهم فى الولاية التى أنجبتهم . ولا علاج للحال التى وصلنا إليها إلا بإخراجهم من تلك المناصب و إعادتهم إلى الأماكن التى تحتاجهم أشد من حاجة ولاياتهم نفسها .

لقد أرادت كل ولاية أن تنظم حكومتها الداخليــة وترفع من شأنها وتزيد من ثروتها ورخائها ، فاختارت أحسن أبنائها ليتقلدوا المناصب فيها و يُسَيِّروا دفة أمورها . وفضل هؤلاء ما ينالونه فى مواطنهم من مزايا ، وما يتمتعون به من أسباب الراحة ، وكان لصلاتهم بمواطنيهم أثر قوى خاطئ جعلهم أشد عناية بمصالح ولاياتهم المختلفة منهم بمصالح الاتحاد العامة ، وذلك خطأ مو بق لا بد من علاجه . فمهما يكن لصلاح دستور الولايات ونظام شرطتها من خطر فإن أعظم منه خطراً أن يكون المجلس العام مجلساً رشيدا تتجلى فيه الحكمة ؛ و إلا فإن هذا المجلس العاجز سيفسد على الولايات سعيها لإصلاح شئونها الخاصة ، ويقضى قضاء مبرما على القضية العامة . ولا يحق لكم أن تفقروا مجلس الولايات المتحدة العام لتغنوا إدارة الولايات فرادى . ألا فلتتصوروا العواقب الوخيمة التى تنجم عن وجود مجلس يزدريه الناس فى داخل البلاد وخارجها . وكيف نستطيع بذل جهودنا مجتمعة إذا كانت تبعة تأليف هذه الجهود ملقاة على عاتق طائفة من الحمقى الضعفاء المترددين ؟ وكيف نرجو النجاح فى مفاوضاتنا مع أوربا إذا لم تكن الأمم الأوربية واثقة من قوة حكومتنا العامة وحكمتها ! إن قوة الحكومة

وحكمتها هما الهدف الذى ينظرون إليه ، و بقدر حظنا من هذه القوة والحكمة تكون نظرتهم إلينا و يكون اهتمامهم بأمرنا .

لقد تحدثت إلىّ وتحدثت إليك حين حظيت بلقائك آخر مرة عما فى المجلس من انقسام ، ولقد تكشفت لى بعد هذا اللقاء أدلة صادقة لا تترك مجالا للشك فى وجود هذا الانقسام الفظيع وفى مداه الواسع . وأكبر ظنى أنك أنت أيضاً رأيت وسمعت ما يكفى لإقناعك بما اقتنعت أنا به . و يقينى أن المنشقين قد كشفوا عن نواياهم الخبيثة أسرع مما كانوا يريدون ، وأنهم شرعوا يخفون أنفسهم عن الأنظار ، ولكنى أظن أنهم لن يفعلوا أكثر من تحويل العاصفة التى كانوا يريدون إثارتها جهرة إلى قوة للتدليس خفية . ولهذا كان من واجب جميع الرجال العقلاء المخلصين لبلادهم — والمخلصين أيضاً لرجل عظيم فى هذه البلاد — من واجب هؤلاء جميعاً أن يأخذوا حذرهم وألا يدخروا وسعاً فى إحباط أعمال أعدائه الخفية .

* * *

وقد اتهم هملتن أكثر من مرة بأنه من أنصار الملكية ، كما اتهم بالتآمر على الشعب ، ولكن هملتن هذا هو الذى حارب دفاعا عن الدستور ، وكتب أكثر من نصف المنشورات التى أذيعت دفاعا عن حكومة الاتحاد ، وهملتن هو القائل : « إن حقوق الإنسانية المقدسة لا يبحث عنها فى الأوراق القديمة ولا فى السجلات المتعفنة . لقد خُطَّت هذه الحقوق بأحرف من نور فى الطبيعة البشرية ، خطتها يد العناية الإلهية ، ولم يؤت مخلوق على ظهر الأرض القدرة على محوها أو طمس معالمها ... ، ولا أمل للحرية المدنية فى الوجود إذا لم يكن المجتمع الذى توضع له القوانين نصيب فى وضعها » . وقد كان هملتن يؤمن بضرورة وجود سلطة أرستقراطية رشيدة وحكومة مركزية قوية ، وكان يخشى عواقب المغالاة فى النظم الدمقراطية ويرهب شطط رجال الثورة الفرنسية .

وهملتن الرجعى هو الذى فسر مواد الدستور الأمريكى تفسيراً حراً ، ولما أريد تثبيت الدين الأهلى وتأسيس المصرف القومى وجد هملتن فى مواد الدستور ما يبيح هذين العملين ، على حين أن تومس چفرسن عدوه الدمقراطى الحر لم يجد فى الدستور ما يبيحهما . وكان چفرسن يقاوم هملتن فيما يريد أن يتخذه من إجراءات يصل بها إلى أغراضه ، فلما

أصبح چفرسن رئيس الجمهورية لجأ هو نفسه إلى هذه الإجراءات بعينها أكثر مما لجأ إليها أىّ إنسان قبله . وقد كتب جيزو[١] عن هملتن يقول ! « ليس فى دستور الولايات المتحدة عنصر من عناصر النظام والقوة والاستقرار لم يشترك هملتن فى وضعه والدفاع عنه بقوة » .

غير أن هملتن ظل طوال حياته يسعى لمجده الشخصى ويعمل ليكون زعيما عظيما . ولقد كشف چفرسن أثناء زيارة هملتن له أى زعيم يريد هملتن أن يكون إذ قال : « كانت حجرتى مزينة بمجموعة من صور العظماء بينهم بيكن ونيوتن ولُكْ ، وسألنى هملتن عن هؤلاء فقلت له إنهم هم أعظم ثلاثة أنجبهم العالم ، وسميتهم بأسمائهم ، فسكت قليلا ثم قال ! « إن أعظم رجل عاش على ظهر الأرض هو يوليوس قيصر » .

---

(١) Guizot

چورچ واشنجتن يرد على ناقديه

ويدفع التهم التى وجهت إلى جنوده

العرايا البائسين

كان چورچ واشنجتن[١] القائد الأعلى لقوات الثورة الأمريكية فى الخامسة والأربعين من عمره حين كتب الرسالة التالية إلى مجلس الأمة قبيل عيد الميلاد من عام ١٧٧٧ . وكان قد اختير قائدا للقوات الأمريكية ، وقادها إلى النصر فى بسطن[٢] وإلى الهزيمة فى نيويورك.

وفى أواخر عام ١٧٧٦ وأوائل عام ١٧٧٧ انتصر واشنجتن فى موقعتى ترنتن[٣] وپرنستن[٤] ؛ ثم تلت تلك الأيام أيام أخرى حالكة هزم فيها فى برانديوين[٥] ، واضطر أن يقضى الشتاء فى ڤلى فورچ[٦] ، وقاسى فى تلك الفترة أشد الآلام ، فقد فشت الأمراض بين جنوده ، وفسدت أخلاقهم ، وضعفت قواهم المعنوية ، وكان معظمهم فى حالة من البؤس يرثى لها . ولم يكن يرى حوله فى أشهر الشتاء القارس إلا مرضاً وعريا وجنونا وجوعا ومحاولات للفرار .

وفى ذلك الوقت علت أصوات ناقديه فى الدوائر الحربية وفى مجلس الأمة الأمريكى . وهذا النقد المرّ هو الذى أوحى إليه بكتابة الرسالة التالية إلى أعضاء المجلس المجتمعين فى مدينة فلدلفيا[٧] .

— ٥٤ —

« . . . . . شقاء ليس فى طاقتى أن أفرج كربه أو أدفعه . . . . . »

ڤلى فورچ فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٧٧٧

سيدى :

لقد ترددت حتى الآن فى أن أجهر بآرائى أو أعرض شكواى ، لأن ما حدث من

(١) George Washington
(٢) Boston
(٣) Trenton
(٤) Princeton
(٥) Brandywine
(٦) Valley Forge
(٧) Philadelphia

التبديل فى هذه الإدارة لم يكن متفقاً مع ما أبديته من الآراء ، ولأنى تنبأت بما لابد أن يترتب على هذا التبديل من عواقب . ولـكنى وجدت الآن أن ضعف الجيش الناشئ من نقص طعامه وكسائه وغيرهما من حاجياته الضرورية يعزى كله إلىّ ؛ وليس الذين يفعلون ذلك هم العامة وحدهم ، بل يشترك معهم فيه ولاة الأمور . لهذا رأيت أن قد حان الوقت الذى يجب أن أكون فيـه صريحاً فى تبرئة نفسى ، وأرجو أن تصدقونى إذا أعلنت أنى لم أر إنساناً قط أقيمت فى وجهه العراقيل كما أقيمت فى وجهى ، وقد أقامتها كل إدارة من إدارات الجيش ، وإذا شئتم دليلا على سوء تصرف أحد كبار المتعهدين بتوريد ملابس الجيش ، وبرهاناً على أن الجيش لا يستطيع أداء واجباته العادية فى الظروف التى تحيط به الآن ... ، إذا شئتم هذا البرهان وذاك الدليل قلت لـكم إننا قد وجدنا بعد إحصاء قمنا به اليوم أن فى معسكرنا مالا يقل عن ألفين وثمانمائة وتسعة وثمانين رجلا عاجزين عن القيام بواجبهم لأنهم حفاة وعراة . وقد نقص عدد جنودنا الصالحين للخدمة منذ اليوم الرابع من هذا الشهر إلى الآن نحو ألفين ، وذلك لشدة ما قاسوه من التعب ، ومن تعرضهم للجو القارس لنقص أغطيتهم بوجه خاص . وبلغ من أمر الـكثيرين منهم أنهم كانوا ولا يزالون يقضون الليل كله جلوساً حول النار بدل أن يناموا ويستريحوا راحة طبيعية .

وإنا لنرى من سادتنا من لا يعرفون هل يأوى الجيش إلى ثكنات له شتوية أولا ... ، ومع ذلك تراهم ينددون بجنودنا كأنهم يظنون أن هؤلاء الجنود قد صنعوا من الطين والحجارة ، وأنهم كالطين والحجارة لا يحسون بالصقيع والثلج ... على أن الذى يدهشنى أكثر من هذا أن هؤلاء السادة أنفسهم وقد رأوا بأعينهم عرى الجند ... ، يظنون حرب الشـتاء وحماية هاتين الولايتين (نيوجرسى[١] وبنسلفانيا[٢]) من غارة العدو عملا سهلا ميسوراً . غير أن فى وسعى أن أؤكد لهم أن تسطير الاحتجاجات فى حجرة مريحة إلى جوار نار متقدة أسهل كثيرا من الإقامة فى العراء على تل أجرد قارس البرد ، ومن النوم وسط الصقيع والثلج دون كساء أو غطاء . وإذا كانوا هم لا يشفقون على الجند العرايا البائسين ، فإنى أنا أشعر بما يعانونه وأشفق عليهم وأرثى لما هم فيه من شقاء ليس فى طاقتى أن أفرج كربه أو أدفعه .

تلك هى الأسباب التى من أجلها أثرت هذا الموضوع ، ومما يزيد كثيرا فيما أواجهه من

(١) New Jersey

(٢) Pennsylvania

صعاب ، وما أعانيه من شقاء ، أن الناس ينتظرون منى فوق ما يستطاع أداؤه ، وأن سلامة الجيش وحسن سير الأمور يوجبان علىّ أن أخفى عن أعين الجمهور حال الجيش الحقيقية ، فأتعرض بذلك إلى المثالب والتهم الـكاذبة . . .

چورچ واشنجتن

* * *

وبعد أربع سنين من ذلك الشتاء الرهيب الذى قاسى فيه جنود واشنجتن الأمرّين ، لنقص كسائهم وأغطيتهم ، قادهم هو نفسه إلى النصر؛ فهزم الجيوش الإنجليزية وشتت شمل الأمداد التى جاءتها من إنجلترا ، واضطر القائد كورنولس[١] أن يسلم له عند يورك تون[٢] فى عام ١٧٨١ ، وتوالت بعدئذ الانتصارات ، واعترفت إنجلترا باستقلال الولايات المتحدة ، وأقر الجميع لچورچ واشنجتن بأنه أعظم رجالها فى الحرب والسلم ، وأصبح أحب الناس إلى قلوب مواطنيه .

* * *

چورچ واشنجتن يرفض تاج الولايات المتحدة

وبعد هذا الانتصار بزمن قليل كتب ضابط من ضباط الثورة يدعى نيقولا[٣] — واسمه الأول غير معروف — إلى قائده الأعلى يقول إن المستعمرات الثلاث عشرة التى اتحدت بعد ثورتها الموفقة على البريطانيين « ليس فى مقدورها أن تصبح أمة واحدة فى ظل حكومة جمهورية » . وعرض أن تؤلف منها « مملـكة يرأسها واشنجتن » . ولم يكد القائد الأكبر يتلقى هذه الرسالة فى معسكره الرئيسى عند نيوبرج[٤] حتى استدعى إليه أمين سره چناثان ترمبل[٥] وأملى عليه الرسالة التالية :

— ٥٥ —

« . . . لابد لى أن أنظر اليها بعين المقت »

نيوبرج فى ٢٢ مايو سنة ٨٢

لقد قرأت بعناية وبمزيج من شدة الحيرة والدهشة تلك العواطف التى احتوتها رسالتك ،

(١) Cornwallis
(٢) Yorktown
(٣) Nichola
(٤) Newburgh
(٥) Jonathan Trumbull

وأؤكد لك ياسيدى أنى لم يؤلمنى شىء بقدر ما آلمنى قولك إن فى الجيش أفكاراً كالتى عبّرت عنها ، وهى أفكار لا بد لى أن أنظر إليها بعين المقت ، وألومكم عليها أشد اللوم . وستظل هذه الآراء فى الوقت الحاضر مكنونة فى صدرى إلا إذا أثير هذا الموضوع مرة أخرى ، فأضطر إلى إفشائها على الرغم منى .

ولست أدرى أى شىء فعلت فشجعكم على أن تبعثوا إلىّ بهذه الآراء التى أعتقد أنها تعرض بلادى لأعظم ما يمكن أن يتهددها من الأخطار ؛ و إذا لم أكن مخطئاً فيما أعرفه من أمرى قلت إنه لم يكن فى وسعكم أن تجدوا إنساناً يبغض مشروعكم هذا أكثر منى . على أننى فى الوقت نفسه لا أحب أن أخفى عنكم أنى لا أعتقد أن فى البلاد كلها إنساناً أصدق منى رغبة فى أن ينال الجيش ما يستحقه من رعاية ، وسأبذل فى سبيل ذلك كل ما أستطيع من جهد ، مستعيناً على ذلك بجميع ما لى من سلطان ونفوذ يخولها لى الدستور ، إذا ما أتيحت لى الفرص ، وأستحلفك بالله إذا كان فى قلبك شىء من الحب لبلادك ، والرعاية لنفسك وأبنائك ، أو الاحترام لى ، أن تطرد هذه الأفكار من عقلك ، وألا تُفضى بمثل هذه الإحساسات — سواء كانت إحساساتك أنت أو إحساسات غيرك — إلى أحد من الناس .

وتقبل احترام

خادمك المطيع

چ . واشنجتن

* * *

واختير واشنجتن مندوبا عن فرچنيا فى الجمعية التأسيسية ورأس جلساتها فى عام ١٧٨٧ ، ثم اختير رئيساً لجمهورية الولايات المتحدة فى عام ١٧٨٩ ، وأعيد انتخابه على الرغم منه عام ١٧٩٢ ، وفى عام ١٧٩٧ آوى إلى مزرعته ، وعاش فيها حتى مات سنة ١٧٩٩ .

بنچمين فرنكلن يعرض على أرملة فرنسية

أن تتزوجه

[رسالة إلى السيدة هلڤيتيس][1]

كان بنچمين فرنكلن يتصف بأنه نصف قروى ساذج ونصف متمدن . فلما أن قدم إلى فرنسا فى عام ١٧٧٦ ليرعى فيها مصالح بلاده تغلبت مدنيته على سذاجته ؛ وتفتحت لهذا الشيخ الأبواب المغلقة ، من باب لويس السادس عشر إلى أبواب أندية السيدات الفرنسيات. وكتب چون أدمز ، وكان فى وقت ما زميله ، يقول : « إن شهرة فرنكلن قد طبقت الخافقين وعلت على شهرة ليبنتز[2] ونيوتن وفردرك الأكبر وڤلتير . وكان الناس يحبونه ويجلونه أكثر مما يحبون هؤلاء ويجلونهم » .

واستقر فرنكلن فى دار فى پاسى[3] ، واتخذ له مساعدين اثنين لا أكثر (أحدهما حفيد له غير شرعى من ابن غير شرعى) . وفى هذا البيت أنجز هو ومساعداه من الأعمال أكثر مما كان ينجزه مئات الكتبة فى نفس الوقت فى مكتب من مكاتب الحكومة فى باريس . وكانت تسكن فى قرية مجاورة له السيدة هلڤيتيس وهى أرملة أحد رجال المال والفلاسفة والأدباء المشهورين . وكان فرنكلن نفسه قد فقد زوجته فى عام ١٧٧٤ فأحب هذه السيدة الجميلة المثقفة ، وكتب إليها فى عام ١٧٨٠ ، وهو فى الثانية والسبعين من عمره وهى فى الواحدة والستين ، الرسالة التالية يعرض عليها أن تتزوجه :

— ٥٦ —

« . . . . . *فلننتقم لأنفسنا* . . . . . »

پاسى [فى يناير سنة ١٧٨٠]

عدت إلى بيتى فى الليلة الماضية مغضباً من قولك لى ليلتئذ إنك مصممة على أن تعيشى

---

(١) Helvetius

(٢) Leibnitz

(٣) Passy

أرملة إكراماً لزوجك العزيز . ثم استلقيت على فراشى وخيـل إلىّ أنى مُت وأنى دخلت الجنة .

وسألونى فيها : هل أرغب فى أن أرى أحداً ؟ فأجبتهم : « خذونى إلى — الفلاسفة » ، فقيل لى : « إن اثنين منهم يقيمان فى هذه الحديقة وهما جاران طيبان وصديقان وفيان » . «وما اسمهما ؟» — «اسمهما سقراط وهلفيتيس» — «إنى أجلهما كليهما أعظم إجلال، ولـكنى أحب أن أرى هلفيتيس أولاً لأنى أعرف قليلا من الفرنسية ولا أعرف كلة واحدة يونانية ». ورحب بى هلفيتيس ، وقال لى إن شهرتى قد وصلت إليه قبـل لقائى به ، وسألنى آلاف الأسئلة عن أحوال الحرب والدين والحرية والحـكومة الفرنسـية فى هذه الأيام . فقلت له : « إنك لا تسألنى عن صديقتك السيدة هلفيتيس مع أنهـا لا تزال شديدة التعلق بك ، وقد كنتُ فى بيتهـا منذ ساعة » . فأجابنى بقوله : « آه ! إنك تذكرنى بأيام السعادة الماضية التى يجب علىّ أن أنساها لـكى أكون سعيداً فى هذه الدار . لقد ظللت سنين طوالا لا أفـكر إلا فيها ، ولـكنى الآن سلوتها واتخـذت لنفسى زوجة أخرى هى أقرب من وجدت من النساء شبها بهـا . نعم إنها لا تبلغ مبلغها من الجمال ، ولـكنها تشبهها فى رجاحة عقلها وذكائها ، وهى تحبنى حبا لا حد له ، ولا هم لها إلا أن تدخل السرور علىّ . وقد خرجت الآن لتبحث عن خير أنواع الشراب والطعام لتقدمه إلىّ فى هذه الليلة ، فإذا بقيتَ معى بعض الوقت استطعت أن تراها » .

فقلت له : « أرى أن صديقتك القـديمة أكثر منك وفاء ، فقد عرض عليها الزواج كثيرون ولـكنها رفضتهم جميعاً ، ولست أخفى عنك أنى أنا نفسى مغرم بهـا ، ولـكنها كانت شديدة القسوة علىّ وردتنى خائباً حبا فيك » . فرد علىّ بقوله : « إنى ليحزننى ما أنت فيه من شقاء ، فهى من غير شك امرأة صالحة رقيقة الحاشية . ولـكن قل لى هل لا يزال الأب ده لاروش[١] والأب مورليه[٢] يترددان أحيانا على منزلها ؟ » فأجبته : « إنهما يأتيان إليها فى بعض الأوقات لأنها لم تقطع صلتها بأحد من أصدقائك » . فقال لى : « لو أنك استطعت أن تضم إليك موريليه وتغريه بالقهوة والزبدة على أن يحدثها فى أمرك

(١) Abbé de la Roche

(٢) Abbé Morellet

لـكان من المحتمل أن تنال بغيتك ؛ وذلك لأنه خبـير بمواقع الـكلم ، قوى الحجة لا يقل فى ذلك عن اسكوتس[1] وسنت توماس[2] ، وإذا حاجَّ أحداً اختار ألفاظه ونظمها بحيث لا يكاد يقوى على رد حجته . أو لو أنك استطعت أن تغرى الأب ده لاروش بطبعة جميلة من كتاب فى الأدب قديم بأن يذمك فى حضرتها لـكان ذلك أنفع لك من مدح موريليه ، لأنى وجدت أنه إذا أشار عليها بشىء كانت هى شديدة الميـل إلى أن تفعل عكس ما يشير عليها به » .

وفى هذه اللحظة أقبلت علينا السـيدة هلڤيتيس الجديدة ومعها شراب أهل الجنة . وما كدت أراها حتى تبين لى أنها مسز فرنكلن صديقتى الأمريكية السابقة ، وطلبتُ إليها أن تعود إلى ولـكنها ردت علىّ ردا فاتراً وقالت : « لقد كنت زوجة لك صالحة تسعة وأربعين عاما وأربعة أشهر ، أى ما يقرب من نصف قرن ، فحسبك منى هذا » . وأغضبنى هذا الرد فعولت من فورى على أن أغادر هذه الأماكن التى لا وفاء فيها وأن أعود إلى هذا العـالم الطيب لأرى فيه الشمس وأراك مرة أخرى .

وهأنذا ! فلننتقم لأنفسنا .

***

ولم ترض السيدة هلڤيتيس بأن تتزوج فرنكلن ، ولـكنها ظلت صديقة وفية له .

وليس لدينا أقل دليل على أن هذه الصداقة قد شابتها فى وقت ما شائبة ، بل إن لدينا ما يدل على أن حبهما قد زاد على مرّ السنين . ولما هم فرنكلن بمغادرة فرنسا عام ١٧٨٥ تلقى وهو فى ميناء الهافر رسالة من السيدة هلڤيتيس ترجوه فيها أن يعود .

---

(١) Scotus

(٢) St. Thomas

جلبرت هويت يكتب سيرة سلحفاته المدللة

[رسالته إلى ابنة أخيه]

كان جلبرت هويت من رجال الدين ، عاش ثلاثاً وسبعين سنة فى القرن الثامن عشر؛ وكان فى وسعه أن يرقى إلى أعلى مناصب الكنيسة ، ولكنه لم يطمع إلا فى أن يعيش هادئاً فى سلبرن[١] موطن أسرته ، يشاهد الطبيعة ويكتب عن آثار أبرشيته ، وكانت نتيجة مشاهداته كتابه عن «تاريخ سلبرن الطبيعى وعادياتها[٢]» ويُعَدُّ من أعظم المراجع الإنجليزية فى موضوعه .

وكانت سلحفاته الشهيرة المعروفة باسم تمثى[٣] قد عمرت طويلا حين ورثها . وقد كتب إلى صديق له يدعى دينز برنجتن[٤] فى الثامن من شهر أكتوبر سنة ١٧٧٠ من بيت عمته يقول إنها « ظلت ثلاثين سنة فى فناء مسور للبيت الذى أزوره الآن » . واستمر جلبرت يكتب إلى هذا الصديق أخباراً عن سلحفاته حتى اليوم الحادى والعشرين من إبريل سنة ١٧٨٠ حين كتب إليه يقول إنها أصبحت مِلكاً له . وكتب فى ذلك اليوم لصديقه رسالة يظهر فيها دهشته من أن الله قد منَّ بذلك الأجل الطويل على هذا الحيوان الخامل الذى يقضى ثلثى حياته نائما فاقد الإحساس لا يفيد شيئاً من حياته .

وتلقت تمثى فى عام ١٧٨٤ رسالة شعرية من سيدة فى مقتبل العمر تدعى هستر ملسو[٥] ابنة أخت سيدة تسمى بهذا الاسم نفسه يقال إن جلبرت هويت خطبها لنفسه فلم تستجب لخطبته وتزوجت برجل آخر يدعى شاپون[٦] . ولما كانت تمثى غير قادرة على أن ترد بنفسها على رسالة هذه السيدة فقد تولى جلبرت هويت الإجابة بالنيابة عنها .

---

(١) Selborne

(٢) The Natural History and Autiquities of Selborne

(٣) Timothy

(٤) Daines Barrington

(٥) Hester Mulso

(٦) Chapone

— ٥٧ —

« . . . . مواهب كثيرة ذكرانا وإناثا . . . . »

سلبرن فى ٣١ أغسطس سنة ١٧٨٤

أيتها السيدة المبجلة ،

لقد سرنى خطابك أعظم السرور لأنه أول خطاب تشرفت به . وكنت أرغب فى أن أرد عليك بطريقتك عينها ، ولكننى لم أنظم الشعر طول حياتى ، ومن أجل هذا فإنك لن تجدى بدا من أن تقنعى منى بالنثر العادى . ولما كنت لم أر من هذا العالم العظيم إلا رقعة صغيرة ، ولم أتحدث إلا مع عدد قليل من الناس ، ولم أقرأ إلا القليل ، فإنى لا أدرى كيف أكتب ما يدخل السرور على نفس كاتبة ذكية مثلك . وإذا لم تسمحى لى بأن أكتب عن نفسى فسيكون ردّى فى واقع الأمر جد قصير .

فلتعلمى إذن أننى أمريكيــة ، وأننى ولدت فى عام ١٧٣٤ فى مقاطعة ڤرچنيا فى وسط أرض كلئة بين مزرعة دخان واسعة وخليج من خلجان البحر . وفى ذلك المكان قضيت سنى شبابى مغتبطة بين أهلى ، وكنت أرى من حولى المعمرين من أقاربى المبجلين الذين بلغوا من الكبر عتيًّا دون أن ينغِّص عليهم حياتهم مرض . ذلك أن بنى جنسنا يعمرون فى الغالب حتى لا نكاد نبصر فى حياتنا جنازة ميت . ولا زلت أنا أذكر موت جد جدى الذى فارق هذه الحياة بعد أن عاش مائة وستين سنة . وما كان أسعدنى لو أننى استطعت أن أتمتع بجو بلادى وصحبة أصدقائى ، ولكن صبيا بحارا كان يطوف فى تلك الأرجاء يبحث عن شىء يلتقطه من الأرض ، ففاجأنى وأنا أستمتع بضوء الشمس تحت عشب من الأعشاب ، وقذف بى فى حقيبته ثم حملنى بعدئذ إلى سفينته . ولم يحدث فى رحلتنا شىء جدير بالذكر ، وكل ما أذكره منها أن تلاطم الموج على جانب السفينة هدأ أعصابى وجعل نومى فى قاع المركب هنيئاً لذيذاً . وكانت رحلتنا قصيرة انتهت حين رست السفينة فى ميناء «ششستر[١]» على شاطئ إنجلترا . وباعنى خاطفى فى هذا الميناء إلى سيد من سادة الريف بنحو ثُمن جنيه .

---

(١) Chichester

وكان هذا السيد قد جاء إلى ذلك البلد ليحضر حفلة انتخابية . وسرعان ما وضعني في سلة حملها خادم له وهي مدلاة إلى جانبه إلى موطنه في الريف . وقد ذهبا إليه على ظهر جوادين سارا بهما مسرعين نحو أربعين ميلا ؛ ولم أكن قد تعودت ركوب الخيل من قبل فشعرت بالدوار في هذه الرحلة الهوائية. وكان الذي اشتراني رجلا فكهاً فشرع يعرضني على بعض أصدقائه وأطلق على اسم تمثى[1] ، ثم لم يعد يعنى بعد ذلك بي ، بل وكل أمرى إلى زوجته ، وكانت سيدة خيرة تشمل بعطفها وعنايتها أحقر تابعيها . وعشت مع هذه السيدة قرابة أربعين عاما أقمت خلالها في فناء مسور أمام بيتها ، استمتعت فيه بالهدوء الشامل ، وبذلك القسط من السرور الذي يستطيع مثلي أن يستمتع به في عزلته بعيدا عن المجتمع . وبقيت على هذه الحال حتى توفيت هذه السيدة بعد أن عمرت طويلا — طويلا في تقدير السلاحف — ، وبعد موتها انتقلت إلى ابن أخ لها . وأخرجني هذا الرجل وهو سيدي الحالي من مستقرى الشتوى ، ووضعني في صندوق من الخشب ، وألقاني في عربة مقفلة سارت بنا ثمانين ميلا ، كنت في أثنائها أضطرب وأتخبط في جوانب الصندوق حتى وصلت إلى مسكني الحالي . وكانت هذه أسوأ رحلة قمت بها في حياتي ، وقد قاسيت من جرائها ألما شديدا . غير أني أستمتع حيث أقيم الآن بكثير من المزايا — حديقة متسعة فيها الشمس والظل ، ويكثر فيها الخس والخشخاش واللوبيا وكثير من الأعشاب والنباتات الشهية النافعة ، أخص منها بالذكر طائفة كبيرة من خير أنواع عنب الثعلب اللذيذ . غير أني مع هذا أشعر بأني حرمت من عطف سيدتي الصالحة التي كان وقارها وسلوكها يتفقان مع مزاجي إلى أقصى حد . وأحب أن أقول لك إن سيدي من أولئك الذين يسمون علماء الأحياء يزوره الكثيرون من أمثاله ويغرونه بإجراء تجارب غريبة عليّ ، فتارة يجسون نبضي ، وتارة يضعونني في وعاء به ماء ليروا هل أستطيع السباحة أولا أستطيع ، إلى غير ذلك من التجارب السخيفة . وهم يأخذونني في كل عام مرتين إلى دكان البدال ليزنوني كي يعرفوا كم أفقد من وزني في أشهر صومي ، وكم يزيد وزني من طعام الصيف . وهم إذا أرادوا ذلك وضعوني على ظهري في كفة ميزان ، فأحرك سيقاني وأنا في هذا الوضع حركات يسر منها أطفال صاحب الدكان ، وإن كانت تضايقني أشد المضايقة . لكن الذي يجرح كرامتي هو ما يظهره بنو الإنسان سادة المخلوقات

(١) Timothy .

من الازدراء بفهمى وذكائى ، واعتقادهم أن أحدا غيرهم لم يؤت شيئاً من المعرفة . فقد سمعت سيدى يقول يوما إنه يتوقع أن أتردى يوما ما فى حفرة فى الحديقة لا أراها ؛ وأحب أن يعرف سيدى هذا أنى أستطيع أن أفرق بين الحفر والأرض المستوية كما يفرق هو بينهما . وأسمع سيدى أحيانا يردد أقوالا يضحك منها سامعوه فيقول :

لقد وضعت تمثيوس فى مكان عال

بين طائفة من المغنين

ومست بأصابعها السريعة العود

أما أنا فلست أرى شيئاً من الفكاهة فى هذه العبارة ، ولست أعرف من أين نقلها ، ولعله أخذها عن حكيم من حكماء بنى الإنسان . وإذا كان هذا الحكيم قد أراد بقوله هذا أن يسخر من جنس السلاحف فقد أضاع جهوده فى غير طائل . هذا بعض ما أشكو منه ، ولكنه لا يعد شيئاً مذكوراً إذا قيس إلى ما سأقوله لك بعد . ألا فلتعلمى أيتها السيدة الرحيمة أن أعظم ما حل بى من المصائب مصيبة لم أبح بها لأحد من قبل ، وهى حاجتى إلى الرفاق من بنات جنسى . ذلك شىء لا أنساه مطلقاً لأنه على الدوام ماثل أمام عينى . فإذا جاء الربيع اشتد حنينى إلى الصحاب حتى لا أستطيع له دفعاً . وقد بلغ من أمرى أن فكرت فى شهر مايو الماضى فى أن أفر من المكان الذى أنا فيه ، فقد تصورت أن سلاحف كثيرة ذكرانا وإناثا تقيم فى المرتفعات المعروفة بتل الخبازين[١] أو فى سهول الكلأ الفسيحة المجاورة لنا ، وكان فى وسعى أن أرى الربى والسهول من شرفة دارنا . وظللت أترقب الفرصة التى أستطيع فيها الفرار حتى رأيت باب السور مفتوحا فى صباح يوم مشمس ، فغافلت الحارس تومس هور[٢] وفررت إلى المراعى المزهرة ، ومنها إلى مزارع اللوبيا ، وغبت عنهم ثمانية أيام كاملة ، كنت فيها أطوف هذه البرية الجميلة وأرتاد المراعى أحيانا . ولكن جهودى كلها ذهبت أدراج الرياح ، فإنى لم أجد الرفاق الذين كنت أرغب فيهم ، والذين خرجت لأبحث عنهم . وعضنى الجوع وبدأت أتمنى العودة إلى الدار ، ولهذا سرت نحوها حتى قربت منها ، وأسلمت نفسى إلى تومس ، وكان قد حزن أشد الحزن لفراقى .

---

(١) Bakers Hill

(٢) Thomas Hoar

هذه يا سيدتى هى قصة أفراحى وأتراحى ، والثانية منها أشد وأكثر من الأولى . وقد قيل لى إنك سيدة مرهفة الحس ، ومن أجل هذا جئت أبسط قضيتى إليك لتجعليها قضية لك ، وفى مقدورك أن تعرفى منها شعورى وآلامى . تصورى أيتها السيدة أن إنساناً اختطفك غدا وأنت فى عنفوان الشباب ، وسار بك إلى أرض السلاحف ، وأنك بقيت فيها خمسين عاما لا تبصرين وجه إنسان ! ! ! فكرى فى هذا يا سيدتى العزيزة . وأشفقى على سلحفاتك الحزينة

تمى

* * *

وفى وسعنا أن نقول إن تمى كانت من بعض الوجوه أوسع شهرة من صاحبها ، فبينا يرقد جلبرت هويت فى مقبرة سلبرن نرى صدفة تمى معروضة للأنظار فى المتحف البريطانى !

چوزف پريستلى يجزى الإساءة بالإحسان

[رسالته إلى جيرانه فى برمنجهام]

كان چوزف پريستلى[1] من رجال الدين ، ومن العلماء والسياسيين ، وكان كيميائيا ذائع الصيت ، يرجع إليه الفضل فى كشف الأكسچين وأكسيد النيتريك وغيره من المركبات ، ولكنه كان على الدوام يثير المتاعب فى طريقه بآرائه الدينية التى لا تتفق مع آراء معظم معاصريه ، وبالطريقة التى كان يتبعها فى الجهر بهذه الآراء .

ولد پريستلى فى برمنجهام عام ١٧٣٣ ، وقضى معظم حياته فى تلك المدينة ، ولما هاجم إدمند بيرك[2] الكاتب والخطيب الإنجليزى المعروف حكم الإرهاب فى الثورة الفرنسية فى كتابه (آراء عن الثورة الفرنسية Reflections on The French Revolution) تصدى له پريستلى وهاجمه مهاجمة عنيفة منح على أثرها لقب مواطن فى الجمهورية الفرنسية . ثم ثار عليه أهل بلده بسبب آرائه الدينية المتطرفة ، فهاجموا بيته وحرقوه وهدموا معمله الكيميائى ، ونهبوا مكتبته ، ومزقوا كثيراً مما كان فيها من مخطوطات لا تقدر بثمن . وكتب پريستلى عقب هذه الأعمال الهمجية رسالته التالية إلى أهل بلدته برمنجهام .

— ٥٨ —

« . . . . نحن الأغنام وأنتم الذئاب . . . . »

لندن فى ١٩ يوليه سنة ١٧٩١

أهل بلدى وجيرانى السابقين

لقد عشت بين ظهرانيكم إحدى عشرة سنة خبرتم فيها سلوكى وحبى للسلام ، ورأيتم فيها عنايتى بالواجبات الهادئة التى تفرضها علىّ مهنتى ودراساتى فى الفلسفة . ولم أكن بعد هذا لأنتظر منكم تلك الإساءات التى نالتنى أنا وأصدقائى على أيديكم . ولكنكم خُدعتم

---

(١) Joseph Priestly

(٢) Edmund Burke

وغرَّر بكم ، فلقد طالما سمعتم الناس يسخرون من المنشقين وبخاصة المنشقين الموحدين[1] ، ولهذا أصبحتم تعتقدون أنا خليقون بكل مايصيبنا من أذى ، وخفيت عنكم الحقائق فلم تبالوا بالأساليب التى نعامل بها .

لقد ظننتم أن الوسيلة لا يمكن أن تكون خاطئة ما دامت الغاية صالحة ، وأخذ معلموكم ورؤساؤكم بوجه عام يصبون اللعنات علينا (ونحن نعرف أنهم ظلوا يفعلون هذا زمناً طويلا)، حتى سمموا عقولكم وأثاروا تعصبكم إلى أقصى حد مستطاع ؛ ولم تسمعوا فى هذه الأثناء شيئاً يلطف من غضبكم علينا ، بل كنتم تسمعون على الدوام ما يملأ قلوبكم غيظا منا وحقداً علينا ، فأصبحتم من أجل ذلك متأهبين لارتكاب كل عمل من أعمال العنف دون تفكير منكم أو منهم ، وهم أقدر على معرفة الحقائق منكم ،وكان جديراً بهم أن يعلموكم ويحسنوا تعليمكم ، ولكنهم لم يفعلوا فظننتم أن كل ما يصيبنا من شر يفيد الحكومة والكنيسة ، وأنكم بقضائكم علينا تؤدون عملا يفرضه عليكم ربكم ، وتتطلبه منكم بلادكم .

ولقد كان من حسن حظنا أن عقول الإنجليز تستفظع القتل ، ومن أجل هذا لم تفكروا — كما أرجو — فى ذلك الجرم ، . . . ولكن ما قيمة الحياة إذا كنتم لا تتركون عملا يزيد فى بؤسها إلا فعلتموه ؟ . . .

فلقد حطمتم من الأجهزة العلمية والفلسفية ما لا تقدر قيمته وفائدته ، وما لم يجتمع مثله عند أحد غيرنا فى هذا البلد أو فى غيره من البلاد ، ذلك أنى ظللت أنفق على هذه الآلات مبالغ طائلة فى كل عام ، ولا أرجو من ورائها فائدة مادية ، بل كل الذى كنت أعمل له هو تقدم العلم لخير مواطنى ولخير الإنسانية عامة . ودمرتم مكتبة لا تقل قيمة وفائدة عن هذه الأجهزة ، ولا يمكن شراؤها بالمال إلا بعد أجيال طوال . على أن الذى آلمنى أكثر من هذا كله أنكم أتلفتم مخطوطات هى ثمار جهود شاقة بذلتها سنين طوالا ، وليس فى مقدورى أن أؤلفها من جديد ، لقد فعلتم بى هذا كله وأنا الذى لم أوذ واحداً منكم ، بل لم أفكر قط فى إيذائه . . . .

وما أشد خطأكم إذ ظننتم أن أعمالكم هذه ستفيد قضيتكم أو تضر بقضيتى. إن الدين

(١) Unitarian Dissenters وهم طائفة دينية مسيحية تقول بوحدانية الله ولاتؤمن بألوهية المسيح

أيا كان لا ينتصر إلا بالحجة القوية والدليل المقنع ، فما عليكم إذن إلا أن تدحضوا حجتنا فتنتصروا بذلك علينا ؛ أما التجاؤكم إلى العنف فليس إلا دليلا على أنه هو خير ما لديكم من الحجج . ألا فلتعلموا أنكم إذا قضيتم عليّ كما قضيتم على منزلى ومكتبتى وأدواتى فإن عشرة غيرى لا يقلون عنى جرأة وكفاية بل يزيدون سيبرزون من فورهم ، فإذا قتلتم هؤلاء العشرة فإن مائة غيرهم يحلون على الفور محلهم . . . .

. . . . فنحن الأغنام وأنتم الذئاب ، وسنحتفظ نحن بأخلاقنا ، ونرجو أن تبدلوا أنتم أخلاقكم . وسندعو لكم بالخير كلما دعوتم علينا بالشر ، ونطلب إلى الله أن تعودوا فى القريب العاجل إلى سابق جدكم ، وإلى أخلاقكم الهادئة الرزينة التى كان أهل برمنجهام فيما مضى يمتازون بها من جميع الناس .

المخلص الداعى لكم بالخير

ج . بريستلى

* * *

وارتحل بريستلى بعد هذه الكارثة من برمنجهام إلى لندن ، وبعد أن أقام فيها ثلاث سنين غادرها إلى أمريكا . ولما وصل إلى نيويورك استقبله أهلها بحماسة عظيمة ، وقضى بقية حياته فى أمريكا يكتب تاريخاً للكنيسة المسيحية ، ويجرى التجارب الكيميائية فى نورثمبرلند[١] من أعمال بنسلفانيا[٢] حتى توفى فى عام ١٨٠٤ . ويصعب على الباحث أن يجد بين الإنجليز فى القرن الثامن عشر من عمل لتقدم العلم كما عمل بريستلى .

---

(١) Northumberland

(٢) Pennsylvania

شيان لنج إمبراطور الصين يرفض ما طلبته إنجلترا

من امتيازات تجارية

[رسالته إلى چورچ الثالث]

كان شيان لنج من أكثر شعراء العالم إنتاجا ، فقد كتب ٣٤٠٠٠ قصيدة ، ولكن شهرته ومجده يقومان مع ذلك على حكمه فى بلاد الصين ، فقد جمع هذا العاهل بلاد الصين كلها وجزءاً كبيراً من التركستان تحت حكمه ، وظل منذ اعتلى العرش إلى نزوله عنه بعد ستين سنة يشن حربا عوانا على القبائل الهمجية المعادية له حتى أصبح الرئيس الأعلى للدولة الصينية وللديانة التُبتِّية . وقد حاول شيان لنج أن يخضع الرؤساء الدينيين فى تلك البلاد لسلطانه ، فاستدعى لاما تاشى إلى قصره الصيفى فى چيهول ، وتردد اللاما أولا ثم اضطر إلى إطاعة الأمر . ولما جاء إلى تلك المدينة استقبل استقبالا رائعاً ، ثم سار فى زيارة إلى پكين عاصمة الصين ، وهناك مات فجاءة ، وأكبر الظن أن شيان لنج أمر بقتله بالسم . وكان لاما دالاى أسلس قياداً من زميله .

ولم يكن شيان لنج سياسيا قديراً فحسب ، بل كان إلى ذلك عالما وفناناً ، ازدهرت فى عصره الفنون ، وأدخل الطراز اليونانى فى الأبنية الصينية .

وكانت للغربيين مطامع فى بلاد الصين لما فيها من الثروة العظيمة ، ورأت شركة الهند الشرقية فى الصين جنة ينعم فيها رجالها أمثال كليف وهيستنج[١] ، وأرسل چورچ الثالث ملك إنجلترا بناء على طلب الشركة وعلى نفقتها بعثة يرأسها لورد مكارتنى[٢] لتفاوض الصين فى إنشاء علاقات تجارية بين البلدين . ووصلت البعثة إلى چيهول قبيل احتفال شيان لنج بعيد ميلاده الثالث والثمانين ، واستقبلها عاهل الصين أحسن استقبال ، ودهش حين رأى ملكا عظيما من ملوك الغرب يعنى هذه العناية كلها بخطب وده ، وعجب رجال القصر حين رأوا عاهلهم العظيم يجيز لمكارتنى أن يركع على ركبة واحدة بدل أن يسجد أمامه تسع مرات كما جرت بذلك الآداب الصينية .

(١) Clive و Hasting

(٢) Macartney

ثم قدمت البعثة مطالبها التجارية إلى شيان لنج ، ووصف مكارتنى حكومة الصين فى أيامه بقوله . « إن دولاب الحكومة وسلطانها قد بلغا من النظام والقوة حدا يمكنها من أن تتغلب من فورها على أعظم العقبات ، وأن يكون لها من الأثر كل ما تستطيع أن تبلغه القوة البشرية » . وليس بعجيب مع هذا وبعد أن رأى الإمبراطور ما جرته الامتيازات التجارية على بلاد الهند المجاورة له أن يرفض المطالب الإنجليزية .

— ٥٩ —

« . . . . حتى يكون خضوعك الأبدى إلى عرشنا سببا فى تمتع بلادك بالسلم . . . »

[١٧٩٣]

أيها الملك ! إنك تعيش وراء حدود بحارى الكثيرة ، لكن رغبتك الخاشعة فى أن يكون لك نصيب من مزايا مدنيتنا قد حملتك على أن ترسل إلينا بعثة من عندك تحمل رسالتك . وقد قطع رسولك البحار ، ومثل بين يدىَّ فى عيد ميلادى ، وأردتَ فوق ذلك أن تظهر إخلاصك فبعثت معه هدايا من حاصلات بلادك .

ولقد قرأت الرسالة ورأيت فى ألفاظها الصادرة من قلبك ما يدل على اتضاعك واحترامك لنا وهو ما تحمد عليه كثيراً .

ولما كان رسولك ومن معه قد جاءوا برسالتك وهداياك من بلاد بعيدة ، وقطعوا مسافات شاسعة ، فقد أظهرت لهم عظيم عطفى وسمحت لهم بالمثول بين يدى . وأردت أن أؤكد لهم هذا العطف فدعوتهم إلى وليمة ، وأعطيتهم كثيرا من الهدايا ، وأمرت فوق ذلك أن تهدى الهدايا إلى القائد البحرى وإلى ستمائة من ضباطه ورجاله وإن لم يأت هؤلاء إلى پكين حتى يكون لهم نصيب من عطفى الشامل .

أما رجاؤك أن ترسل أحد رعاياك ليمثلك فى بلاطنا السماوى ، وأن يشرف على تجارة بلادك مع الصين ، فهذا ما تأباه تقاليد أسرتنا وما لا أستطيع أن أجيبك إليه بحال من الأحوال . نعم إن بعض الأوربيين الذين يعملون فى خدمة أسرتنا قد سمح لهم بالإقامة فى پكين ، ولكنهم يرغمون على أن يلبسوا لباس الصينيين ، ولا يسمح لهم باجتياز حدود المنطقة التى يقيمون فيها

أو العودة منها إلى بلادهم ؛ وأكبر ظنى أنك تعرف القواعد التى تسير عليها أسرتنا ؛ وليس فى مقدور رسولك الذى تقترح إيفاده إلينا أن يكون فى وضع يماثل الموظفين الأوربيين المقيمين فى پكين والذين لا يسمح لهم بالخروج من الصين ؛ وليس فى مقدورنا نحن أن نسمح له بحرية التنقل ، وأن نخوله حق الاتصال ببلده ، ومن ذلك ترى أنكم لن تستفيدوا شيئاً من إقامته بيننا .

هذا إلى أن لأسرتنا السماوية أملاكا واسعة ، وأن بعثات الخراج التى تفد إلينا من البلاد الخاضعة لنا تسيطر عليها كلها مصلحة الولايات الخراجية ، فتؤدى إليها حاجاتها ، وتشرف أدق إشراف على حركات رجالها ، ولا يمكننا مطلقا أن نتركهم وشأنهم . وإذا جاء رسولك إلى بلاطنا فإن لغته ولباسه الوطنى سيختلفان عن لغة شعبنا ولباسه ، وليس فى مقدوره أن يقيم بهذه الحالة بيننا . وقد يقال إن فى وسعه أن يفعل ما يفعله الأوربيون الذين يقيمون إقامة دائمة فى پكين ، فيلبس لباس الصينيين ويتعود عاداتهم . لكن أسرتنا لم ترغب فى يوم من الأيام أن ترغم الناس على أن يفعلوا ما لا يحبون أو ما لا يسهل عليهم فعله . وسأفترض أنى أرسلت رسولا من قبلى إلى بلادكم ، فكيف تستطيعون أن يهيئوا له وسائل إقامته المطلوبة ؟ ثم إن أوربا تشمل أمما كثيرة غير أمتكم ، فإذا طلبت كل أمة من هذه الأمم أن يكون لها من يمثلها فى بلاطنا فهل نستطيع أن نجيبها إلى طلبها ؟

إن ذلك مستحيل من الوجهة العملية . وكيف تستطيع أسرتنا أن تبدل خطتها ونظام معاملاتها المقررة منذ قرن من الزمان أو أكثر لكى نجيبك إلى ما تطلبه أنت بمفردك ؟ ...

وإذا قلت إن احترامك لأسرتنا السماوية يجعلك شديد الحرص على اقتباس مدنيتنا ، أجبتك أن مراسيمنا وقوانيننا تختلف كل الاختلاف عن نظائرها فى بلادكم ، ولو أن رسولك استطاع أن يقتبس أصول مدنيتنا فإنك لن تستطيع مع ذلك أن تنقل أخلاقنا وعاداتنا إلى بلادكم الغريبة عنها والتى لا تلائمها ، ولهذا فإن رسولكم مهما يبلغ من المهارة والكفاية لن يفيدكم أدنى فائدة .

وإنى وإن كنت الحاكم المسيطر على هذه الدنيا الواسعة لا أرغب إلا فى شىء واحد أضعه دائما نصب عينى ، وهو أن أحكم البلاد أكمل حكم وأحسنه ، وأن أصرف شئون

الدولة على أحسن وجه . أما السلع العجيبة الثمينة فلا أعنى بها ، فإذا كنتُ قد أمرت بأن تقبل الهدايا التى أرسلتها إلى أيها الملك فإنى لم أقبلها إلا تقديرا للروح التى دفعتك إلى إرسالها من بلادك البعيدة . إن فضائل أسرتنا العظيمة قد عمت كل البلاد التى تحت قبة السماء ، وقد أرسل إلينا ملوك الأرض من جميع الأمم الخراج بطريق البر والبحر ، وفى وسع سفيرك أن يرى بعينيه أنا قد أوتينا من كل شىء ، وأن ليس للغريب البديع من الأشياء قيمة فى نظرى ، وأنا لا حاجة بنا إلى مصنوعات بلادك . وهذا هو ردى على ما طلبك أن ترسل ممثلا لك إلى بلاطى ، وهو طلب لا يتفق وتقاليد أسرتنا ولا يمكن أن تجنوا أنتم منه إلا المتاعب .

ولقد أوضحت لك رغباتى مفصلة ، وأمرت رسلك الذين جاءوا بالهدايا أن يعودوا إلى بلادهم آمنين . وجدير بك أيها الملك أن تحترم عواطفى هذه وأن تكون فى المستقبل أكثر مما كنت فى الماضى إخلاصاً وولاء ، حتى يكون خضوعك الأبدى إلى عرشنا سببا فى تمتع بلادك بالسلم والرخاء فى مستقبل الأيام . لقد أهديت إليك أيها الملك هدايا قيمة يزيد عددها على ما يهدى فى مثل هذه الأحوال ، منها خز ومنها سلع نادرة المثال (مبينة كلها فى ثبت مرسل مع هذه الرسالة) ، هذا فضلا عما أهديت إلى كل عضو من أعضاء بعثتك (وهى مبينة أيضاً فى ثبت معها) فلتتقبلها بما يليق من الاحترام ولا تنس حسن صنيعى إليك .

***

ولم يعش شيان لنج حتى يرى تغلغل النفوذ الأجنبى فى بلاد الصين ، فقد نزل عن العرش باختياره فى عام ١٧٩٦ لابنه الخامس عشر ، واعتزل شئون الحكم ليتفرغ للقراءة والراحة ، ولكنه قبل أن ينزل عن الملك جاءته بعثة تجارية أخرى ، وكانت بعثة هولندية ، ولم تُغْفَلْ تقاليد البلاط الصينى هذه المرة كما أغفلت فى المرة السابقة ، وحدث حين سجد الهولنديون السمان أمام الإمبراطور أن ضحك شيان لنج بأعلى صوته مخالفا فى ذلك ما توجبه الكرامة الشرقية .

كامى ده مولن[١] يودع زوجته قبيل إعدامه

كان ده مولن من رجال الثورة الفرنسية ومن أكثرهم حماسة لها، ولما أدرك آخر الأمر ما فيها من فظائع مروعة لم يفده هذا شيئاً، لأنه كان أضعف من أن يقف فى وجه التيار الذى لم يلبث أن جرفه معه.

وبدأ ده مولن عمله فى الثورة فى الثانى عشر من يوليو سنة ١٧٨٩، فقد رآه الناس وقتئذ يقفز فوق منضدة فى مقهى فى باريس، ويعلن للحاضرين أن لويس السادس عشر قد طرد نكر[٢] من منصبه، ثم رأوه يشهر مسدسه ويدعو الناس إلى التسلح، ويندفع إلى الشارع ومن ورائه الجمهور الغاضب الهائج. وازداد عديد أتباعه وهم سائرون فى شوارع المدينة ينهبون ويسلبون، ويقتحمون المتاجر والمساكن ليستولوا على كل ما يصلح أن يكون سلاحا. وبعد يومين من ذلك التاريخ أى فى اليوم الرابع عشر من شهر يوليو هاجمت هذه الجموع سجن الباستيل.

ومن ذلك الوقت بدأ ده مولن يصدر الجرائد والنشرات الثورية. وكان ربسپيير أكبر زملائه فى المدرسة يسميه «طفلا مفسوداً»، ويقول عنه ميرابو إنه «ممن يسهل شراؤهم بالمال»، ويصفه أندريه شنييه[٣] الذى هاجمه ده مولن فى جريدته بأنه «إنسان لا يخشى بأسه، وحتى أولئك الذين يسمون أنفسهم أنصاره إنما يتخذونه موضعاً لسخريتهم، وأما أصدقاؤه فيحتقرونه أكثر مما يحتقره أعداؤه لأن أولئك أعرف به من هؤلاء». ولم يكن أحد من زعماء الثورة يعنى به إلا ربسپيير.

وظل ده مولن يناصر الثورة حتى شهر أكتوبر من عام ١٧٩٣ حين بلغ حكم الإرهاب غايته، فلم يطق صبراً عليه، وأصدر جريدة دعا فيها إلى السلم والاعتدال. وصدر أول عدد منها فى ديسمبر من ذلك العام، ومما جاء فيه: «لقد كنت قاطع طريق وأنا فخور بما فعلت، ولكننى أخالف فى الرأى أولئك الذين يقولون إن الإرهاب يجب أن يكون هو النظام المألوف. لا! إنى أعتقد أن حريتنا تقوى دعائمها، وأن فى وسعنا أن نهزم أوربا، إذا

---

(١) Camille Desmoulins
(٢) Necker
(٣) Andié Chénier

أقمنا الجنة للرحمة» . وجاء فيه أيضاً : « ... إن الحرية هى السعادة والعقل . . . فهل تريدون منى أن أدركها ، وأن أخر ساجداً أمامها ، وأن أسفك دمى دفاعا عنها ؟ إن كنتم تريدون ذلك فافتحوا أبواب السجون ، وأطلقوا سراح المائتى ألف مواطن الذين يحلو لكم أن تسموهم المشبوهين » .

وأصدر ربسپيير أمره بالقبض على ده مولن وغيره من المعتدلين ومنهم صديقه القديم دانتن ، وحوكموا جميعاً ولم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم ، وقضت محكمة الثورة بإعدامهم كلهم ، وكتب ده مولن فى أثناء محاكمته وقبل أن يصدر الحكم بإعدامه الرسالة التالية إلى زوجته لوسيل[1] ، وكان قد تزوج بها أيام الثورة :

— ٦٠ —

« . . . ولدت لأقرض الشعر وأدافع عن البائسين . . . . »

فى الساعة الخامسة من صباح أول إبريل سنة ١٧٩٤

لقد أعانني النوم على نسيان آلامى . ذلك أن الإنسان إذا نام لا يشعر بأنه فى السجن فهو يستمتع وقتئذ بكامل حريته . ولقد شملنى الله برحمته وأرانى إياكم منذ لحظة واحدة فى منامى ، وعانقتكم فرداً فرداً . . . رأيت ابننا الصغير قد فقد إحدى عينيه إذ شاهدتها معصوبة ، وحزنت حين أبصرتها ، واشتد بى الحزن حتى أيقظنى من النوم ، فوجدت نفسى فى غيابة سجنى . وكانت تباشير النهار قد بدت فلم أرك بعدها يا لولت ، ولم أستطع سماع صوتك ، وقد كنت أنت وأمك تتحدثان إلىّ ، وكان هوراس[2] ينادينى «أبى!أبى!»، وهو لا يحس بألمه . ألا ما أقسى أولئك النفر الذين يحولون بينى و بين التمتع بسماع هذه الألفاظ العذبة ، و بين رؤيتى إياكم ، و إدخال السرور عليكم ! لقد كان هذا هو مطمعى الوحيد ومؤامرتى الوحيدة .

وكشفت عن شق فى سجنى ، فوضعت أذنى عليه ، وسمعت إنساناً يتنهد ، فخاطرت بالنطق بألفاظ قليلة ، وطرق سمعى صوت مريض يتألم . وقد سألنى عن اسمى ؟ فلما قلته له

(١) Lucile

(٢) Horace

صاح : « يا إلهي ! » ، قالها وهو يلقى بنفسه على مخدعه : «أنا فابر دجلنتين[١] وأنت ماالذى جاء بك إلى هنا ؟ هل نجحت إذن الحركة المعارضة للثورة ؟ » ولم نجرؤ بعدئذ على الحديث لئلا يحرمنا الحاقدون من هذه السلوى القليلة ، ولئلا يسمعنا إنسان فيفرق بيننا و يشدد الرقابة علينا . آه يا عزيزتى ! إنك لا تستطيعين أن تتصورى حال من يوجد فى الظلام وهولا يعرف سبب وجوده فيه ، ولا يسأل عما جناه ، ولا يطلع على صحيفة واحدة . إن هـذا هو الحياة والموت فى وقت واحد ، أو إنه هو الحياة والشعور بأنه مدرج فى كفن . إنهم يقولون إن الذى لا يقترف ذنباً يكون شجاعا مطمئن النفس . آه يا لوسيل ! إن هـذا يكون صحيحاً لو أن الإنسان كان إلها لا بشراً .

وفى هذه اللحظة جاء مأمورو الجمهورية ليسألونى هل ائتمرت بالجمهورية ؟ ألا ما أسخف هذا السؤال ! كيف يجرؤ هؤلاء على أن يوجهوا هذه الإهانة لأشد الناس إخلاصاً للجمهورية ! إنى أرى مصيرى المحتوم ، وداعا يا عزيزتى لوسيل ، وداعا يا لولت[٢] ، وأسألكما أن تودعا أبى نيابة عنى . إن حالتى لهى شاهد على وحشية الإنسان وجحوده ، وها أنتم هؤلاء ترون أن مخاوفى كانت تقوم على أساس صحيح ، وأن ما كنت أخشاه قد وقع . ولكن لحظاتى الأخيرة فى هذا العالم لن تكون مزرية بقدرى . لقد كنت زوجا لامرأة اتصفت بأكمل الفضائل ، وكنت زوجا صالحا وابنا صالحا ، ولو أننى عشت لكنت أيضاً أبا صالحاً . إن مصيرى الآن هو مصير إخوتى الذين استشهدوا دفاعا عن الجمهورية ، ولست أشك فى أننى سأذهب إلى قبرى محوطاً بأعظم العطف والتقدير من جميع أصدقاء الفضيلة والحرية والحق . إنى أموت فى سن الرابعة والثلاثين ، ولكن من أعجب الأشياء أننى مررت بما مررت به من المخاطر فى خمس سنين من عهد الجمهورية ، وأننى لا أزال بعدها حيا أرزق .

إننى أضع رأسى فى ثقة واطمئنان على ما خططته من كتابات كثيرة يسرى فيها كلها حبى للإنسانية ورغبتى فى أن أجعل بنى وطنى أحراراً سعداء لا يرتكبون ذنبا يستحقون عليه العقاب . إنى أعتقد أن السلطة تسكر جميع الناس إلا القليل النادر منهم ، وأن الناس كلهم يتبعون قول ديونيسيس السرقوسى[٣] « إن الاستبداد هدية جميلة» . ولكن فى وسعك أن تعزى نفسك

---

(١) Fabre d Eglantine　　(٢) Lolotte

(٣) Dionysius of Syracuse

أيتها الأرملة البائسة لأن عنوان قبر زوجك الشقى خير من هذه العبارة وأشرف . إنه هو عنوان قبرى كيتو[١] وبروتس[٢] ، قاطعى دابر الاستبداد .

أى عزيزتى لوسيل ! لقد ولدت لأقرض الشعر وأدافع عن البائسين ، وقد وقفت من أربع سنين ليالى طوالاً لأدافع عن أم لها عشرة أبناء لم تجد من يدافع عنها ، وقفت أمام أولئك القضاة أنفسهم الذين يحكمون اليوم بإعدامى ، بعد أن خسر أبى قضية كبيرة ؛ ظهرت أمامهم وكأننى هبطت عليهم من السماء ، ولم يكن البكاء فى ذلك الوقت جريمة لا تغتفر ، وأثرت فيهم خطبتى وأهاجت مشاعرهم فكسبت القضية التى خسرها أبى . نعم كسبتها أنا الرجل الذى ائتمر بالجمهورية . إننى لم أتغير عما كنت عليه قط . لقد جئت إلى هذا العالم لأسعد كما يا ولدىَّ ، ولأكفل لكما ولى ولأمكما ولأبى ولبعض الأصدقاء الأوفياء حياة سعيدة . لقد رأيت الرؤيا التى رآها الأب سانت بيير[٣] . لقد رأيت الجمهورية التى يتمناها الناس جميعاً ، ولم أكن أعتقد أنهم قد وصلوا إلى ما وصلوا إليه من ظلم وقسوة . وهل أستطيع أن أتصور أن إشارة فكهة فى كتابتى لبعض الزملاء تمحو حسناتى الكثيرة ؟ لست أخفى عن نفسى أننى ضحية هذه العبارات الفكهة ، وضحية صداقتى لدانتى المسكين ، وإنى لأحمد لقاتلى أنهم قتلونى معه ......

لقد جبن زملائى وأصدقائى وفرقتى كلها إلا قليلا منها ، أولئك الذين طالما شجعونى وهنأونى على عملى ، وقبّلونى وأثنوا على . كل هؤلاء قد جبنوا وتخلوا عنى . إن أحداً من الذين طالما تحدثوا إلى ، أو من أولئك الذين طعنوا على صحيفتى ، لا يستطيع أن يعدنى مؤتمراً بالجمهورية . إن حرية الصحافة وحرية الرأى لم يعد لهما أنصار ، سنموت نحن آخر أنصار الجمهورية دفاعا عنها ، ولو اضطررنا إلى أن نطعن أنفسنا بسيوفنا إذا لم تكن هناك مقصلة ، كما فعل كيتو بنفسه . عفواً يا عزيزتى ، يا زوجتى الوفية التى فقدتها حين افترقنا ، عفواً إذا كنت أشغل نفسى بالذكريات . لقد كان أجدر بى أن أشغل نفسى بما ينسيك أحزانك . أرجوك يالوسيل ، يا أحب الناس إلى ، ألا تناديني باسمى . إن بكاءك يمزق قلبى ولو كنت فى قبرى . اعتنى بابنك الصغير ، عيشى من أجل هوراس ، وحدثيه عنى ، وقولى له فى مستقبل أيامه

---

(١) Cato

(٢) Brutus

(٣) Saint Pierre

ما لا يستطيع أن يفهمه الآن ، قولى له إنى لو عشت لأحببته أشد الحب ، وإنى رغم محنتى هذه أعتقد أن ثمة إلها ، وأننى سأغسل بدمائى ذنوبى وأسباب ضعفى ، وأن الله سيجزينى خير الجزاء على ما قدمت من خير ، وما اتصفت به من فضائل ، وعلى حبى للحرية . وما من شك لدى فى أنى سأراك يوما ما يا لوسيل . . . وإذا كان الموت ينجينى من رؤية أولئك الأعداء الكثيرين فهل يصح أن نعده شرا وبلاء ؟

وداعا يا حياتى وروحى ويا جنتى فى هذه الدنيا . إنى لأتركك لأصدقاء أخيار — أتركك لجميع من بقى من الناس ذوى العقل والفضيلة ، وداعا يا لوسيل ! يالوسيل ! يا لوسيل العزيزة . . . إن شاطئ الحياة يبتعد الآن عنى ، ولكنى لا أزال أراك يا حبيبتى لوسيل . إن يدىّ المغلولتين تعانقانك ، وإن رأسى حين يسقط عن جسدى لتقع عيناه عليك » .

***

وبعد يوم واحد من كتابة هذه الرسالة قطع رأسه بالمقصلة . وبعد أسبوع واحد من مقتله سيقت زوجته هى الأخرى إلى المقصلة ، إذ اتهمت بأنها حاولت أن تهرّب زوجها وأن تأتمر بالجمهورية . وتقدمت لوسيل إلى ساحة الإعدام وهى أربط جأشا من زوجها — ولم يكن قد بقى حراً طليقا من الستين رجلا الذين شهدوا زواجهما إلا رجل واحد هو ربسبيير ، ولكن حياته كانت قصيرة الأجل .

تومس پين يتهم چورج واشنجتن بأنه

خائن فى صداقته الخاصة ومنافق فى حياته العامة

من أقوال بنجمين فرنكلن المأثورة : « حيث تكون الحرية تكون بلادى » ، وقد عارض هذا تومس پين(١) بقوله : « حيث لا تكون الحرية تكون بلادى » .

وكان پين من صغره حرا متطرفا فى حريته ، وظل إلى يوم وفاته من ألد أعداء الطغيان ، يقاومه بكل ما وهب من قوة وشجاعة ، فى أمريكا وفى فرنسا ، حتى سمى بحق « بطل الثورة فى العالمين » ، وكان من أعظم أقطاب الجمهورية الأمريكية .

وقد ولد تومس پين فى إنجلترا عام ١٧٣٧ ، وفر فى حداثة سنه إلى البحر ، ثم اشتغل فى شبابه بتجارة الدخان ، وأفلس فيها . وقابله بنجمين فرنكلن فى لندن فى زيارة له لهذه المدينة فأعجب به ونصحه بالسفر إلى أمريكا ، وكانت وقتئذ زاخرة بالمؤامرات الثورية والآمال القومية .

وجاء پين إلى أمريكا فى عام ١٧٧٥ فى فترة وصفها هو بعبارته الخالدة : «الأوقات التى تمتحن فيها أرواح بنى الإنسان » . ولم يمض على مجيئه إليها عام واحد حتى أصبح من زعماء الثورة وكتابها المتحمسين . وكان مما أصدره منشور ثورى سماه « الإدراك الفطرى العام » بيع منه خمسمائة ألف نسخة فى وقت صدوره ، وقرأه چفرسن وواشنجتن وچون أدمز ؛ واقترح مجلس الأمة الأمريكى مكافأته على جهوده هذه بثلاثة آلاف ريال ، ومنحته ولاية نيويورك ثلثمائة فدان ، وانتشرت آراؤه الثورية فى طول البلاد وعرضها ، وأصبحت عباراته القوية الملتهبة شعار الأمريكيين ، وتردد صداها على الفور فى إعلان الاستقلال .

وبعد أن حصلت أمريكا على استقلالها سافر پين إلى إنجلترا فى عام ١٧٨٧ ليعمل فيها مهندساً للجسور ؛ وسرعان ما اجتذبته الثورة الفرنسية إليها كما يجتذب المغنطيس الحديد . ولما روّعت أعمال « عهد الإرهاب » فى الثورة الفرنسية إدمند بيرك(٢) الخطيب الإنجليزى الشهير رد عليه پين برسالة أخرى قوية عنوانها « حقوق الإنسان The Rights of Man» ،

---

(١) Thomas Paine   (٢) Edmund Burke

غير أنه اضطر على أثر كتابتها إلى الفرار من إنجلترا ، وكافأته فرنسا على دفاعه عن ثورتها بأن عينته عضواً فخريا فى الجمعية الوطنية مع واشنجتن و بريستلى [١] وكسيسكو [٢]

ولما كتب تومس پين كتابه المشهور « عصر العقل » زجه ر بسپيير فى السجن ، وأبى وزير أمريكا المفوض فى فرنسا أن يقدم لمواطنه أية مساعدة ، لأن الوزير كان أرستقراطيا من الطراز القديم . وظل پين يقاسى آلام السجن عشرة أشهر كاملة ، وعَد ذلك خيانة له وجحوداً لخدماته من الجمهورية التى عمل على إقامتها ، وألقى تبعة ذلك على موريس [٣] وزيرها فى باريس ، وعلى چورچ واشنجتن نفسه ، ولهذا كتب رسالته التالية إلى صديقه السابق يتهمه فيها بالغدر والخيانة .

— ٦١ —

« . . . مخادع انه لم تكون غادراً . . . »

باريس فى ٣٠ يوليو سنة ١٧٩٦ .

لما كان الاعتذار لا يخفف من أثر النقد إلا تخفيفاً يشوهه ، فإنى لا أعتذر لك عن هذه الرسالة ؛ يضاف إلى هذا أن الأزمة الشديدة التى تردت فيها شئون بلادك بسبب سياستك ذات الوجهين تتطلب بحثاً واستقصاء لا أثر للمجاملات فيهما .

لقد أتى على أمريكا حين من الدهر كانت فيــه سمعتها الأخلاقية والسياسية فى العالم رفيعة عالية ، وكانت ثورتها يتألق سناها أمام ناظرى كل إنسان ، وكان الانتساب إليها مفخرة ومجلبة للاحترام فى أوربا . . . . ذلك وقت لم يكن قد ظهر فيــه واشنجتن السياسى . . . إنى أجهر بمعارضتى لعدة مواد فى الدستور ، وأخص منها الطريقة التى يتألف بها ما يسمونه السلطة التنفيذية . . . . ، كما أنى لا أوافق على نظامك الإدارى كله تقريباً . . . .

لقد ورد فى الأمثال الإنجليزية « إن ثلاثة عشر لوحا من الخشب لا طوق من الحديد معها لا يتكون منها برميل » . ولما كان أى رباط مهما يكن ضعيفاً خيراً من عدم وجود رباط على الإطلاق ، فقد كان لا بد أن ينشأ من ارتباط الولايات الأمريكية بعضها ببعض

(١) Priestly
(٢) Kosciusko
(٣) Morris

مزايا لا يستهان بهـا . ولشدما سر كل صديق مخلص لأمريكا حين رأى الأثر الطبيعى لاتحادها ، ألا وهو رخاؤها المتزايد ، ولـكن هؤلاء الأصدقاء قد أحزنهم أن يروا ذلك الرخاء تختلط به من بدايته جراثيم الفساد . فقد كانت إدارتكم من يوم نشأتها مسرحا للاحتكار التجارى ، وأغدقت الأراضى التى حصلنا عليهـا بثورتنا على الأنصار ، وانتشر الظلم تحت ستار العقائد ، وأصبح قائد الجيش نصير الغش والخداع .

وماذا ينتظر بعد هذه البداية غير ما وقع فعلا ؟ لا شىء إلا خضوعنا المذل المحقر للإهانة تلحقنا من إحدى الأمم ، وخيانتنا لأمة أخرى والـكفر بنعمتها . ووجد الفارون من وجه العدالة من هذه الأمة الأخيرة فى شخصك من يحميهم ويدافع عنهم .

وكان الدستور الأمريكى صـورة من الدستور البريطانى ، وإن لم يبلغ ما بلغه هذا من الانحطاط ، ولذلك كان من الطبيعى أن يكون مثله فى نقائصه ورذائله .

وليس ثمة من يجهل الواجب الذى اضطلعتُ به فى الثورة الأمريكية ، فهو معروف حق المعرفة ، ولن أكلف نفسى عناء تكراره هنا . وأنا أعرف كذلك أنه لولا ما أسدته إلينا فرنسا من معونة فى الرجال والمال والسفن ، لـكان من المحتمل جدا أن يؤدى سلوكك الذى لا ينطبق على أصول فنون الحرب ، والذى سأبينه لك فى هذا الخطاب ، إلى ضياع أمريكا ، أو لمـا نالت استقلالها الذى تتمتع به الآن ، فقد أضعت وقتك خاملا فى ميدان القتال ، لا تقوم بعمل ما ، حتى أفقرت خزائن الدولة من المال . وليس لك أنت نصيب من المجد الذى تُوجت به جهودنا ، وقد آن الأوان يا سيدى لإظهار الحقائق التاريخية سافرة .

ولـكنك حين رُفعت إلى رياسة الجمهورية اختصصت نفسك بالفضل كله ، وبدأ ينكشف ما انطوى عليه طبعك من جحود ؛ فبدأت أعمالك فى الرياسة بتشجيع الملق فى أبشع صوره ، وقبوله من المتملقين ، وطفت بأمريكا من أقصاها إلى أقصاها لتتقبل هذا الملق ، وأعددت لهذا الطواف من الخطب قدر ما أعده جيمس الثانى .

أما آراؤك السياسية فليس فى مقدورنا أن نتبينها من عباراتك التى تنطق بها ، ولـكن أشياعك فى السياسة قد فضحوا ما أخفيته أنت ، وتبين منهـا أنك وإن لم تَسْمُ إلى أن تكون لك مطامع قد بلغت من الصغار حد الاغترار بنفسك .

لقد قال چون أدمز[١] (والمعروف عن چون أنه رجل دائب السعى إلى المناصب ، وأنه لا يظن أن خدماته الحقيرة قد نالت ما هى جديرة به من الجزاء) إن مستر واشنجتن ليس له أبناء ، و إن رياسة الجمهورية يجب أن تكون وراثية فى بيت لند واشنجتن[٢] . ولو تم ذلك لكان فى مقدور چون أن يحصل لنفسه على منصب يتقاضى عليه أجراً ، ولا يعمل فيه عملا ، وأن يضمن لأولاده ما يكفيهم . ولم يضف إلى ذلك أن منصب وكيل الرياسة يجب أن يكون أيضاً وراثيا فى أسرة چون أدمز ، بل هداه عقله إلى ترك هذه المسألة كما هى ، ثقة منه بأن الإحسان لن يكون جزاؤه إلا الإحسان . . . . وإن ادعاء كم حق إقامة حكومة وراثية وتدعيمها فى هذه البلاد لهو جريمة أكبر من الخيانة العظمى ، إنه جريمة فى حق الطبيعة البشرية ؛ ذلك أن ما للأجيال جميعاً من حقوق متساوية لهو مبدأ مقرر يتفق مع طبيعة الأشياء ، فهو حق للابن إذا بلغ الرشد ، كما كان حقا لوالده من قبله . . . .

وقال چون چاى[٣] (وكان چون هذا على الدوام تابعاً ذليلا لكل رجل ذى جاه من مستر چيرارد[٤] فى أمريكا إلى چرنفل[٥] فى إنجلترا) : إن مجلس الشيوخ يجب أن يعيش مدى الحياة . ولو تحقق قوله هذا لما كان فى حاجة إلى منصب لنفسه يدر عليه المال ولما خشى الاتهام . . . .

ولقد بدأت أعرف أننى لست وحدى الذى أسىء الظن بمستر واشنجتن ، إذ تبين لى أن سمعته أخذت تسوء بين الأمريكيين أنفسهم ، و بين الأجانب من أبناء الأمم المختلفة . لقد أصبح زعيم حزب بعد أن كان رئيس حكومة . . . . وأضحت بعثة المستر چاى إلى لندن . . . . مضغة فى الأفواه ...

ولقد أرسل مستر واشنجتن فى عام ١٧٩٠ أو حوالى ذلك الوقت المستر موريس إلى لندن مندوبا خاصا سريًا له . . . . وإذا لم يكن موريس وهو وزير مفوض فى فرنسا مندوبا رسمياً للوزارة البريطانية والدول المتحالفة معها ، فقد كان سلوكه مما يبعث على الظن بأنه

---

(١) John Adams
(٢) Lund washington
(٣) John Jay
(٤) Mr. Girard
(٥) Grenville

يعمل لحسابها ... ، ولا يزال هذا الرجل يتسكع فى أوربا و بخاصة فى إنجلترا ، ولا يزال مستر واشنجتن يتبادل و إياه الرسائل . ولذلك يجب ألا يعجب مستر واشنجتن إذا عدته فرنسا هو وموريس من صنف واحد ، وخاصة بعد مسلكه المعروف فى معاهدة مستر چاى .

وأهم ما هنالك من فرق بين أخلاق الرجلين (إذ ليس هناك فرق بينهما فى السياسة) أن أحدهما فاسق مستهتر يجهر بعدم اكتراثه بالمبادئ الخلقية ، على حين أن الآخر قد أوتى من الفطنة ما يستطيع به إخفاء حاجتــه إلى تلك المبادئ . . . . إن الأخطاء أو النزوات أمور يستطاع العفو عنهـا ونسيانها . أما الجرائم التى يرتكبها الناس عمداً ولا يؤنبهم ضميرهم عليها ، كالتى يستطيع مستر واشنجتن أن يقترفها ، فهى جرائم لا يمكن أن تمحى . . .

وليس الخلق الذى حاول مستر واشنجتن أن يتخلق به فى هذا العالم إلا التذبذب الذى تعجز الألفاظ عن وصفه ، والذى يسمونه حكمة وكياسة ، ويُتَّخذ فى كثير من الأحوال بديلا من المبادئ السامية ، ويتصل أوثق اتصال بالرياء ، وما أسهل ما ينحدر إليه .

لقد كان أول نبأ وصل إلى پاريس عن معاهدة يتفاوض فيها مستر چاى (لأن أحدا لم يكن يدور بخلده أن ثمة مفاوضات مع هذا النوع) هو ما جاء فى إحدى الجرائد الإنجليزية من أن معاهدة هجومية دفاعية قد عقدت بين إنجلترا والولايات المتحدة الأمريكية . وكذب هذا النبأ على الفور . . . . ولــكن المعاهدة نفسها أعلنت آخر الأمر . . . . وامتلأت الصحف الحزبية المناصرة لتلك الإدارة السفيهة بعبارات تشير إلى حق السيادة . إن فى وسع النذل الجبان أن يفخر بحقه الــكامل فى أن يركله غيره بقدمه ، وهذا وحده هو نوع السـيادة التى نراها فى معاهدتنا مع انجلترا . . . .

وتظهر حكومة واشنجتن رغبتها الشديدة فى الاحتفاظ بالمعاهدة القائمة بين فرنسا والولايات المتحدة ، وما من أحد يشك فى إخلاصها فى هذه المسألة ، وليس ثمة وزير بريطانى بأمريكا كلها إلا وهو شديد الرغبة فى ذلك . إن معاهدتنا مع فرنسا تتخذ الآن وسيلة لإمداد إنجلترا بما تحتاجه أساطيلها و بمنتجات البلاد الأمريكية ، على حين أن هذه البضائع نفسها إذا صدرت إلى فرنسا عدتها إنجلترا من المهربات ، وحجتها فى ذلك هى نصوص المعاهدة التى عقدها چاى مع إنجلترا ...

إن من السخف أن نتحدث عن الإخلاص والشرف القومى والوفاء بالمعاهدات فى الوقت الذى تظهر فيه هذه الخيانة سافرة للعالم كله .

وخير لحكومة واشنجتن أن توفر على نفسها عناء التأكيد للحكومة الفرنسية بأنها تعتزم مخلصة أن تحتفظ بمعاهدتها معها . ذلك أن فرنسا لا ترغب الآن فى الاحتفاظ بهذه المعاهدة ، فقد رشحت فى هذه الأيام مندوبا لها فوق العادة ترسله إلى أمريكا ليقدم هذه المعاهدة هدية إلى المستر واشنجتن وحكومته وليقطع كل صلة لبلاده بهما ، كما أبلغت وزير أمريكا فى باريس أن « الجمهورية الفرنسية تفضل أن تكون الحكومة الأمريكية عدوة لها سافرة عن أن تكون صديقة غادرة » . هذا يا سيدى مضافا إلى الاضطراب الداخلى الذى يسود أمريكا وما فقدته من مكانتها فى العالم هو الأزمة الخطيرة التى أشرت إليها فى أول رسالتى . . . .

وقد يظن الأجنبى إذا رأى تلك الأنانية التى يتحدث بها المستر واشنجتن أنه هو وحده الذى أشعل نار الثورة وقادها وأوصلها إلى غايتها وثبت قواعدها . . . ، وأنها كلها من صنعه ، وأن مستر واشنجتن يمتاز من غيره بالثبات . . . ولكننا حين نتحدث عن الأخلاق العسكرية ، يجب أن نفهم منها شيئاً أكثر من الثبات ، يجب أن نفهم شيئاً أكثر من خطة فابيوس[1] التى تقضى بالركود وعدم القيام بعمل ما ، فتلك وسيلة لا يعجز عنها أى إنسان . . . .

ولقد كان مستر واشنجتن فى ظاهر الأمر هو القائد الأعلى للجيش ، ولكنه لم يكن كذلك فى الواقع . . . لأنه لم يكن له قط إشراف على جيش الشمال الذى يقوده جيتس[2] والذى استعاد الولايات الجنوبية ، ولم يكن هو الذى يوجهه ، غير أن هذا اللقب الأسمى لقب القائد العام جعل الناس يعزون إليه فضل القيام بهذه الأعمال ، وأظهره كأنه هو الروح المحرك للعمليات الحربية فى أمريكا وقطب رحاها . . .

ولما انتصرت الثورة الأمريكية آخر الأمر . . . . أرسل المستر جاى مندوبا فوق العادة إلى لندن ليسوى الأمور بالتوبة والرجاء . . . . فما الذى فعل ؟

لقد كانت تجارة أمريكا حرة بمقتضى المعاهدات القائمة قبل معاهدة المستر جاى . . . . فأصبحت حسب نصوص هذه المعاهدة خاضعة لسلطان الأجنبى . فهى معاهدة استسلام

---

(١) Fabius القائد الرومانى الشهير الذى قاد الجيوش الرومانية فى حروبها مع هنيبال واشتهر بخطته القائمة على عدم الاشتباك معه فى مواقع فاصلة والاعتصام بالصبر وترك الأمر للزمن يفعل فعله بجيوش عدوه

(٢) Gates

حقيرة ذليلة لم يكن فى المعاهدات كلها منذ وجودها ما يماثلها .

أما أنت يا سيدى ، الخائن فى صداقته الخاصة (وكذلك كنت لى فى ساعة المحنة) والمنافق فى حياته العامة ، فإن العالم سيكون فى حيرة من أمرك . فهل يا ترى يحكم عليك بأنك مرتد أو مدع ، و بأنك تخليت عن المبادئ السامية أو أنك لم يكن لك مبدأ من أول الأمر .

تومس پين

* * *

وأفرج عن تومس پين آخر الأمر بفضل جهود الوزير الأمريكى المفوض الجديد چيمس منرو[1] ، ثم تبدل موقف پين من الأمة الأمريكية الجديدة فى عام ١٨٠٢ حين اختير صديقه چفرسن[2] لرياسة الجمهورية . وعاد بعدئذ إلى الولايات المتحدة ، ولكن الوطنيين الأمريكيين اتهموه بأنه يندد بمبادئ الثورة الأساسية ، كما اتهمه السياسيون بالطعن فى واشنجتن ، وحرم وهو فى مسكنه فى بلدة نيو روشل[3] حتى من حق الانتخاب، ومات وحيداً مهجوراً مثقلا بالدين فى الثانية والسبعين من عمره

(١) James Monroe

(٢) Jefferson

(٣) New Rochelle

من تشارلس لام إلى صمويل تيلر كولردج

كتب تشارلس لام بعد أن قَتَلت أخته ميرى أمها يطلب إلى صديقه كولردج
أن يواسيه وأن يكتب له رسالة دينية

يجـد القارئ فى رسائل تشارلس لام كل ما يريد أن يعرفه من صفاته وأخلاقه ومن قصة حياته بعد أن بلغ سن الرشد . وقد كتب فى أول رسالة عثرنا عليها مؤرخة ٢٧ مايو سنة ١٧٩٦ يقول : « لست أعرف يا كولردج ما قاسيته أنت فى برستل — أما أنا ففى حياتى الآن شىء من التنوع . لقد قضيت الستة الأسابيع التى اختتم بها العام الماضى وبدأ بها هذا العام فى مستشفى للأمراض العقلية فى هكستن[1] ، قضيتها فيه وادعاً مطمئنا . والآن قد عاد إلىّ بعض عقلى ، فلا أعض أحداً ، ولـكننى كنت مجنوناً بحق ، وكثيراً ما بدت لى أخيلة وصور غريبة تكفى إذا قصصتها كلها لأن تملأ مجلداً كاملا » .

وكان مرض الجنون وراثيا فى أسرة لام . فقد أصيب به والده فى آخر أيامه قبل وفاته ، واختلت موازين عقل أمه أيضاً .

أما لام نفسه فقد اضطرب عقله فى فترتين قصيرتين فى عام ١٧٩٥ وفى أوائل عام ١٧٩٦ ، ولـكنه ظل سليما بقية حياته . وبعد أربعة أشهر من رسالته الأولى إلى كولردج كتب إليه الرسالة التالية ينبئه بحادث مروع وقع لأسرته :

— ٦٢ —

« . . . . . وكنت أنا قريبا منها . . . . فاستطعت أن أختطف السكين من يدها » .

[فى ٢٧ سبتمبر سنة ١٧٩٦]

يا أعز الأصدقاء :

لعلك قد علمتَ قبل الآن من هويت[2] أو من بعض الأصدقاء أو بعض الصحف بالـكوارث المروعة التى وقعت فى محيط أسرتنا . وحسبى أن أقص عليك مجملها .

لقد قضت أختى المسكينة العزيزة على حياة أمها ، وكنت أنا قريباً منها فاستطعت أن

(١) Hoxton   (٢) White

أختطف السكين من يدها . وهى الآن فى أحـد مستشفيات الأمراض العقلية وأخشى أن نضطر إلى نقلها منه إلى مستشفى عادى . أما أنا فقد حفظ الله علىّ حواسى ، فأنا أطعم وأشرب وأنام ، وأعتقد أن عقلى سليم . وأصيب أبى المسكين بجرح بسيط وأنا الآن أعنى به و بعمتى ، ولقد كان صديقنا الوحيد مستر نرس[٢] رحيما بنا ، ولـكنى أحمد الله إذ وهبنى نعمة الهدوء والاطمئنان ، وأن أمكننى من أن أقوم بكل ما بقى علىّ من الواجبات . اكتب إلى رسالة فيها من الروح الدينية أكثر ما تستطيع ، ولـكن لا تذكر فيها شيئاً ممـا مضى ولا رجعة فيه ، فإنى أرى أن مامضى قد فات وأن أمامى من الواجبات أكثر مما يسمح لى بأن أقضى وقتى فى الشعور . . .

إن الله جل جلاله يتولانا جميعاً

تشارلس لام

لا تذكر شيئاً عن الشعر . لقد مزقت كل أثر من آثار الغرور المـاضى ، أما أنت فافعل بشعرك ما يحلو لك ، و إذا أردت أن تنشره فانشر شعرى معه (إنى آذن لك بنشره) من غير أن تضيف إليه اسمى أو توقيعى ، ولا ترسل إلى نسـخة مطبوعة منه ، ولست أشك فى أن عقلك سيهديك إلى ألا تذكر شيئاً من هـذا إلى زوجتك العزيزة ، وأوصيك أن تعنى بأسرتك فإنى لا يزال لدى من العقل والقوة ما يمكننى من العناية بأسرتى . و إياك أن تأتى لزيارتى ، حسبك أن تكتب إلى ، و إذا جئت فلن أقابلك . فليهبك الله جل شأنه ، وليهبنا كلنا ، حبه .

* * *

ولقد وقعت الـكارثة التى يصفها لام فى ٢٢ اكتوبر أى أنه لم يكتب إلى صديقه كولردج إلاّ بعد خمسة أيام من وقوعها . وقبل وقوعها بثلاثة أيام — فى التاسع عشر من شهر اكتوبر — كانت مسز كولردج قد وضعت طفلا ذكراً هو ابنها الأول الذى كان موضع قصيدة عصماء كتبها وردسورث[١] ، والذى كان أسوأ حظا من أبيه .

وفى هذه الظروف الشديدة كتب كولردج إلى صديقه رسالة تعد من أعظم الرسائل وفاء .

---

(١) Mr. Norris

(٢) Wordsworth

من كولردج إلى لام

— ٦٣ —

« . . . ما أحلى أن يوقظ الإنسان من حلم مخيف . . . »

فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٧٩٦

لقد روعتنى رسالتك يا صديقى ، إذ أقبلت على فجأة وأفقدتنى جميع مشاعرى ؛ وأنت تأمرنى أن أكتب إليك رسالة دينية ، ولكننى لست بالرجل الذى يسخر من عظمة آلامك بما يقدمه لك من تعزية . والله يعلم أن أسهل الحادثات تنطوى على كثير من متاعب النفس وآلامها ، ومما يتطلب من الإنسان أن يتذرع بالصبر والاستسلام لقضاء الله وقدره . أما العواصف القوية والكوارث التى تهز النفس وتحطم القلب فليس فيها خطة وسط بين اليأس والاستسلام إلى قضاء الله وقدره . وإن من أكبر بواعث السرور أنك لم تفقد إيمانك بالله ، فهو قريب منك وهو الذى فى مقدوره أن ينجيك . وأنت مسيحى فباسم ذلك المنقذ الذى قاسى الآلام من أجل البشر أدعوك أن تلجأ إلى الصلاة والعبادة إلى « إلهه وإلهك » إله الرحمة والسلوى . وأرجو ألا يكون والدك المسكين على علم بالكارثة .

أما الأداة التى اختارتها الأقدار لتنفيذ أمرها فهى بلا شك تجهلها كل الجهل ، وأما والدتك فهى فى الرفيق الأعلى . ألا ما أحلى أن يوقظ الإنسان من حلم مخيف على تغريد الطيور وأشعة الصباح المبهجة ، وأحلى من هذا ألف مرة أن يستيقظ الإنسان من الظلمة ومن الحيرة المنبعثة من كارثة مفاجئة مروعة ليرى جلال الله ويستمع إلى تسبيح الملائكة .

أما أنت فإنى أوافق كل الموافقة على تركك كل ما تسميه غروراً . فأنا أنظر إليك نظرتى إلى إنسان دعاه داعى الحزن والألم وفقدان الرجاء إلى حياة الهدوء ، أو إلى نفس اعتزلت العالم وشغلت نفسها بالله . وليس فى مقدورنا أن يكون لنا نصيب من النعيم السماوى إلا إذا تشبهنا بعض الشبه بالمسيح . ذلك أن الذين يتشبهون به فى أصعب صفاته هم الذين ينالون أكبر قسط من هذا النعيم . فإذا حلت بهم المصائب وأناخ عليهم الدهر بكلكله نادوه من قلب عامر بالإيمان : « فلتكن مشيئتك » .

وأكثر ما أرغب فيه أن تحضر إلى هنا بعض الوقت ، ولن يكون لدينا زائرون يضايقونك ويؤلمون شعورك المرهف ، وستحظى فى هذا المكان بالهدوء الذى يشفى نفسك . ولست أرى ما يمنعك من إجابة طلبى هذا ، اللهم إلا إذا كانت حال أبيك هى التى تحول بينك و بينه ، وإلا إذا كان وجودك إلى جانبه أمراً لا بد منه . فإذا لم يكن هذا هو المانع فإنى أطلب إليك أن تكتب إلى بأنك ستحقق رغبتى .

وأرجوك أيها الصديق العزيز ألا تستسلم للكآبة أو لليأس . إنك تقتسم مع البشر آلامهم إلى حين لكى تنال بذلك نصيبا دائما من الطبيعة الربانية . أدعوك مرة أخرى أن تأتى إلىّ إن استطعت إلى ذلك سبيلا .

صديقك الوفى

ص . ت . كولردج

* * *

ولم تكن نتيجة العمل الذى أقدمت عليه ميرى لام من الخطورة كما كان يظن فى بادئ الأمر ، فقد قيدت حريتها أولا ، ولكن تشارلس استطاع بمعونة بعض الأصدقاء أن يطلق سراحها على شريطة أن يعنى هو نفسه بأمرها ، وأن ينقلها إلى مستشفى للأمراض العقلية إذا ظهرت عليها مرة أخرى علامات الجنون . ولازم تشارلس أخته بعد موت أبيهما فى عام ١٧٩٩ ، لم يفارقها إلا حين كانت تصاب بنوبات جنونية . ومن أغرب الأشياء أن هذه العناية بدل أن تتلف أعصاب تشارلس الهائجة المضطربة بطبيعتها — قد هدأتها على ما يظهر . وحتى بعد عام ١٨٢٧ حين زادت نوبات ميرى الجنونية واضطرتها إلى الإقامة فى الريف لم تؤثر هذه العزلة فى أعصاب أخيها ولم تفقده اتزان عقله . ووهب تشارلس حياته للعناية بأخته ، فمحا من عقله فكرة الزواج ، وقد اشتركت معه فى كتابة « قصص من شكسبير[1] » وهى التى يشير إليها فى مقالاته باسم « ابنة العم بردجت » .

(١) انظر ترجمتنا لهذه القصص

ربسپير يعد دانتن بأنه سيظل مخلصاً له إلى الأبد

كان هذان الصديقان والعدوان السفاحان ربسپير ودانتن من رجال القانون ومن زعماء الثورة الفرنسية ، وكان كلاهما من أبطال حكم الإرهاب وضحاياه . ولم يكن بين مولدهما إلا عام واحد ، ولا بين موتهما إلا بضعة أشهر — ومات كلاهما بحد المقصلة .

ولما شبت الثورة الفرنسية فى عام ١٧٨٩ كان مكسملين فرنسوا مارى إزدور ربسپير(١) فى الحادية والثلاثين من عمره ، وكان نائبا فى الجمعية العمومية ، كما كان چورچ چاك دانتن(٢) فى الثلاثين من عمره وضابطاً كبيرا فى الحرس الوطنى . وكان الرجلان صديقين حميمين ، ورفيقين وفيين ، وزميلين عسكريين فى أحداث الثورة ، ثم صار دانتن مديراً لمدينة باريس ، ثم وزيرا للعدل ؛ ونظم ربسپير عهد الإرهاب وأشرف عليه ، وأصبح بعد قليل صاحب الأمر والنهى فى الجمهورية الناشئة .

ولما توفيت زوجة دانتن وتركته فريسة للأحزان كان ربسپير لا يزال صديقه الوفى فكتب إليه الرسالة التالية التى تفيض عطفاً عليه ووفاء له .

— ٦٤ —

« . . . . فلنبك معا . . . . »

عزيزى دانتن :

إذا كان عطف الصديق وإخلاصه مما يخفف عنك بعض الأسى فى هذا الحزن الذى لا يستطيع حزن غيره أن يطغى على من كانت له روح مثل روحك ، فإنى أبعث إليك بهذا الخطاب ليعبر لك عن عطفى وإخلاصى . إن حبى لك الآن أقوى ما يكون ، وسيظل كذلك أبد الدهر . وأنا وأنت فى هذه اللحظة روحٌ واحدة ، ورجائى إليك ألا ترد عن قلبك صوت الصديق الذى يقاسمك جميع أحزانك .

فلنبك معاً أصدقاءنا ، ولنكشف بعد قليل عن آثار أحزاننا لأولئك الطغاة الذين

---

(١) Maximilien Francois Marie Isidore de Robespierre

(٢) Georges Jacques Danton

كانوا سبب مصائبنا العامة وآلامنا الخاصة . أى صديق ! لقد كتبت إليك من بلچيكا تلك العبارات التى تنبعث من قلبى ، وكان واجباً علىّ أن أكون الآن إلى جانبك لولا إجلالى للساعات الأولى من ساعات حزنك الشديد

صديقك

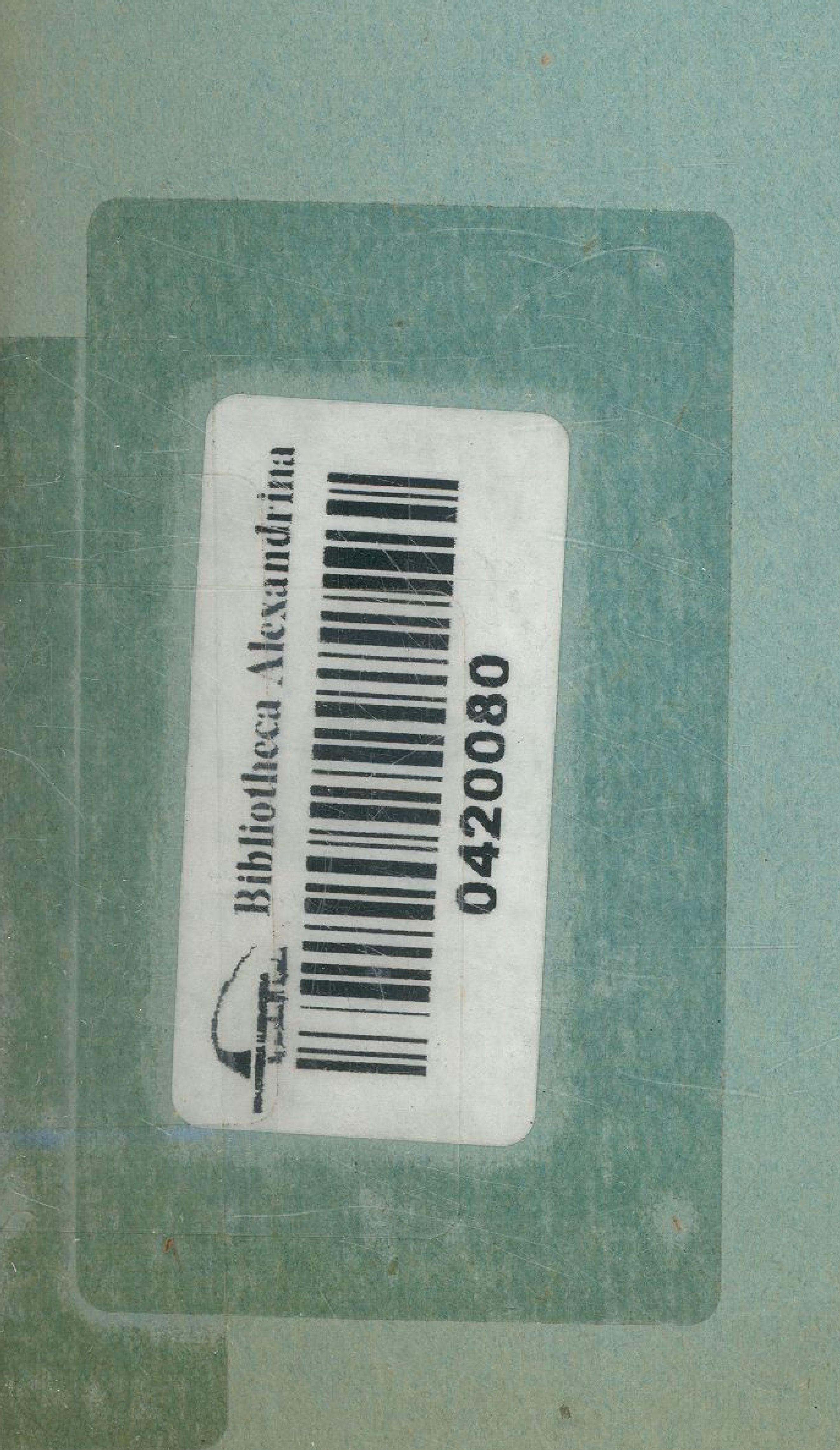
روبسپيير

* * *

ولم يمض إلا أقل من عام على هذه الرسالة التى تفيض عطفاً وحناناً حتى أصبح الصديقان عدوين يتنازعان السيطرة على لجنة الأمن العام التى أقامها روبسپيير . وكان دانتن معبودُ الشعب عضواً فى محكمة الثورة ومن أشد المطالبين بإعدام الملك ، ولكنه أبى أن يساير روبسپيير إلى النهاية ، وهو صاحب الكلمة المأثورة التى صارت فيما بعد شعار الثورة « الجرأة ثم الجرأة والجرأة على الدوام » .

وأرسل إلى المقصلة فى السادس من إبريل سنة ١٧٩٤ بأمر صريح من زميله القديم روبسپيير صاحب رسالة العطف والإخلاص السالفة الذكر .

وكان إعدامه إيذاناً بسقوط روبسپيير نفسه ، فلم تكد تمضى على هذا الحادث أشهر معدودات ، امتلأت كلها بالرعب والفزع ، حتى اتهم روبسپيير بأنه قد استحوذ من السلطة على أكثر مما يحق له ، ثم حكمت عليه بالإعدام اللجنة التى كان هو مسيطراً عليها ، ولم يكن قد جاوز وقتئذ السادسة والستين من عمره .


Bibliotheca Alexandrina
0420080